آموس عوز



حنّه وميخائيل



ترجمة
رفعت فوده

منشورات الجمل

رواية

آموس عوز



حنّه وميخائيل

ترجمة

رفعت فوده

منشورات الجمل

آموس عوز: حنّه وميخائيل

آموس عوز: حنّه وميخائيل، رواية، ترجمة: رفعت فوده

الطبعة الأولى ٢٠١٣

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ - ٠١ - ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ - ١١٣ بيروت - لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

اتجاهات سريعة
في الأدب العبري الحديث

يميل نقاد الأدب العبري الحديث إلى تقسيم الكُتَّاب الذين ظهروا في إسرائيل في الفترة ما بين الأربعينات والثمانينات إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: وهي تتكوّن من الكُتَّاب الذين ينشرون أعمالهم الأدبية منذ أواخر الثلاثينات وحتى أواخر الخمسينات، وتعرف هذه المجموعة باسم جيل البالماخ، وهي تسمية خاطئة لأن البالماخ ـ التنظيم العسكري اليهودي في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ ـ لم يضم في صفوفه كثيراً من كُتَّاب هذا الجيل، وإنما قليلون فقط هم الذين انتموا وشاركوا في عمليات هذا التنظيم.

أما المجموعة الثانية فهي تتكوّن من الكُتَّاب الذين بدأوا نشر أعمالهم من بداية الستينات، وقد أطلق عليهم النقّاد العبريون أسماء مختلفة منها اسم الموجة الجديدة، وكان أول من أطلق هذا الاسم الناقد جير شون شاكيد، بينما ناقد آخر مثل دان ميرون يعارض هذه التسمية ويفضّل اسم «الموقف الجديد». إلا أن أي دراسة متأنّية لأعمال هذين الجيلين توضح أن الفروق ليست واضحة كما يبدو للوهلة الأولى، والمهتمون العرب بالأدب العبري يؤيّدون هذا الاتجاه. فقد كتب الدكتور

رشاد الشامي في كتابه «لمحات من الأدب العبري الحديث» أن أي تمييز دقيق بين عصر خلق أدبي، وعصر آخر يجب أن يكون قاطعاً ولكن من الصعب بوجه خاص التمييز بين المرحلة والمرحلة التالية، وذلك لأن الخط الفاصل بين ما يسمى «المنفى» وفلسطين كموضوع للأدب العبري ليس واضحاً تماماً، ومن السهل المرور عليه بسرعة. والواقع هو أنه لو كان هناك تبرير للتمييز فإنه يقوم على أساس الحاجة إلى إيجاد تصنيف مبدئي للأعمال المختلفة.

وهذا الاستنتاج قد يكون حقيقياً لعدة أسباب... فعلى سبيل المثال كانت الأربعينات هي سنوات البدء من الكُتّاب اليهود أي أنهم كانوا من جيل البالماح. ومع ذلك ظلّ إنتاجهم الأدبي يظهر حتى أواخر الثمانينات، وفي كتاباتهم حدثت تغييرات على امتداد السنين، نظراً للتغيرات الاجتماعية والسياسية وبروز كُتّاب أصغر سناً، وأيضاً بسبب التغيير الذي طرأ على توقعات النقّاد والقرّاء. بمعنى آخر ليس هناك حد فاصل، أي أن جيلاً يتوقف والجيل التالي يبدأ ولكن المجموعتين متداخلتان في بعضهما البعض حيث يبرز الجديد من القديم.

وعلى الرغم من ذلك ظهرت العديد من الدراسات والموازنات بهدف توضيح الفروق بين الجيلين.. فعلى سبيل المثال قيل إن الجيل الجديد أقرب إلى الواقعية منه إلى الخيال أو أنهم اهتموا أكثر بالواقعية الاجتماعية كما أوضح ذلك الناقد جير شون شاكيد في كتابه «موجة جديدة في الأدب العبري». بينما ناقدة أخرى مثل نوريث غيريتس تتجنّب هذه الصيغ مستخدمة بدلاً منها مفاهيم أكثر تعقيداً في محاولة منها لتوضيح التغييرات الفنية والموضوعية التي حدثت في ما بين بداية الأربعينات، وبداية الستينات، وقد استنتجت هذه الناقدة أن معظم

الأعمال الأدبية التي كتبت قبل وبعد الإعلان عن قيام الدولة اليهودية مباشرة قد افتقدت الرؤية الداخلية والارتباط الثقافي والروحي مع مَن سبقهم من الأدباء العبريين الذين كتبوا في فترة قبل ما يطلقون عليه جيل العبرية، والتجربة الرئيسية لمعظم هؤلاء الكُتّاب لم تكن أزمة الإيمان، أو القرار الصعب بالهجرة ولهذا فإن إنتاجهم الأدبي تميّز بالانفصال المتعمّد عن الماضي وأبرزوا عالمهم كعالم حيّزي (مكاني) وليس زمانياً، وغالباً ما كانت شخصياتهم قوالب وهمية وليست شخصيات تعبّر عن الواقع.

على العكس في الستينات عندما تغيّر الواقع الاجتماعي الإسرائيلي وجدنا في الكُتّاب انجذاباً إلى اتجاه الاشتراكية الشرقية، ووصول كُتّاب أصغر سناً إلى الساحة. هؤلاء الكُتّاب كانت الدولة اليهودية بالنسبة لهم حقيقة واقعة، ولذا فقد أخذت الواقعية في أدبهم صيغة شخصية، ولم يهتموا كثيراً بدوافع ومشاعر وأفكار شخصياتهم، وهذا يمكن تمييزه في الشخصيات، والأزمنة والأمكنة التي حجبت تجربة الكاتب الذاتية أكثر مما كشفتها، ولا شك أن الجيل الأخير من الكُتّاب الإسرائيليين قد شاركوا في الرفض العام لتراث آبائهم المباشرين وبدلاً منه أخذوا إلهامهم من أجدادهم أمثال عجنون وبرينر، وكان أدبهم الجديد متأثراً بكافكا والأدب الوجودي، وفي كلمة مختصرة نستطيع أن نقول بأن الجيل الأسبق من الكتّاب الإسرائيليين كانوا «يستعرضون»، بينما الجيل اللاحق كانوا «يخبرون»، آموس عوز واحد من جيل الموجة الجديدة خصوصاً في روايته «ميخائيلي».. ففي مقابلة مع الملحق الأدبي لجريدة جيروزاليم بوست ـ أوضح عوز الفرق بين ميخائيلي والروايات الإسرائيلية قبل ١٩٧٠ حين قال:

بينما الكُتّاب العبريون من الفترات السابقة حاولوا وصف أوج المعاناة وذروة القتال، وتصوير أبطال وهميين، هذه الرواية تتعامل عمداً مع المشاكل الحياتية اليومية للطبقة البرجوازية بانتقائها الغريزي الضيّق الأفق.

لماذا هذه الرواية؟

في العديد من المناسبات اقترح عليَّ بعض الزملاء في (مجلة أكتوبر)، وبعض القرّاء في العالم العربي أن أقوم بترجمة رواية من الأدب العبري إلى اللغة العربية حيث إن هناك حاجة ماسة لمثل هذا العمل خصوصاً وأن الجانب اليهودي قد ترجم العديد من الروايات العربية إلى العبرية في حين أن المكتبة العربية تعاني من نقص شديد في هذا المجال، الأمر الذي نتج عنه عدم تمكّن القرّاء العرب من إلقاء نظرة ولو عاجلة على الأدب العبري الذي هو مرآة مجتمعه.

وللأسف لم أتمكّن في الماضي من الاستجابة لهذا المطلب الملحّ بسبب عدم التفرّغ والدخول في دوّامة العمل الصحافي، وحين لاحت الفرصة قررت اختيار هذه الرواية لأسباب عديدة منها:

أولاً: تمثّل هذه الرواية تحدّياً لأي مترجم يقوم بترجمتها لأية لغة.. فهي تحتوي على مجموعة اللغات التي يتحدّث بها المهاجرون اليهود في إسرائيل، وهي تحوي خليطاً من الخلفيات اللغوية يتحدّث بها يهود قدموا من مختلف أرجاء المعمورة. كتب نيكولاس دي لانغ في مقدمة ترجمته لهذه الرواية إلى اللغة الإنكليزية قائلاً: «من الطبيعي أن تعكس العبرية الإسرائيلية الخلفيات اللغوية المتنوّعة لأولئك الذين يتحدّثون

بها، ويستطيع القارئ أن يجد في شخصيات هذه الرواية نماذج مختلف المجموعات القومية واللغوية التي يتشكّل منها اليهود في إسرائيل... فبين الجيل الأكبر سناً تسود اللغة البولندية واليدش. فنجد في الرواية أم حنه تتحدّث هاتين اللغتين.. إلا أنها تشعر بألفة أكثر مع اللغة الروسية وتتحدث العبرية بصعوبة.. أيضاً هناك ألمان، عرب وفرس».

ثانياً: في حين أن الأدب العبري قبل هذه الرواية بفترة «البالماح» كان يصف فقط البطولات الزائفة، والحلم الوردي المزعوم، ومجتمع اللامشاكل سوى من الأعداء العرب، فإن هذه الرواية لا تتعامل فقط مع الهوّة التي بين الأجيال في المجتمع الإسرائيلي بل تتناول الهوّة في اللغة التي بين الآباء، بإقامة الدولة وفق أفكار ومثاليات وضعوها هم لأنفسهم، والأبناء الذين كان عليهم أن يتركوا هذا العالم المزعوم ويكرّسوا جهودهم لإيجاد حلول لمشاكل حقيقية تواجههم في حياتهم اليومية. أي أن هذه الرواية تركّز على الثمن الذي يدفعه الجيل اليهودي المولود في إسرائيل عندما تصطدم أحلامهم بالواقع المرير، والرواية تتعامل مع هذا الثمن في إطار عالم صغير من حياة أسرية. ولعلّ ذلك يتّضح أكثر إذا ما عرفنا أن الرواية قد كتبت قبل حرب ١٩٦٧ بشهور قليلة، وأبطالها الفاشلون في حياتهم الزوجية هم من جيل الصابرا، الجيل الذي أعدّته إسرائيل لكي يستوطن الأرض على حساب سكّانها. على المستوى الروائي السردي تحكي هذه الرواية قصة انهيار زواج بين شاب وفتاة عندهما توقعات متضاربة عن حياتهما مع بعضهما البعض. فمن بداية الرواية تتساءل حنه لماذا تزوجت زوجها. محاولاته البائسة لكي يبدو جذاباً وأصيلاً.تبدو في نظرها مخزية، وعائلته استبدادية، ومع استمرار الرواية يزيد هذا التساؤل إلحاحاً في عقل حنه فتعاني من

انسلاخ عاطفي يأخذ شكل توق غير محدود إلى الماضي وشعور غامض بأن هناك شيئاً ما ناقصاً مع إيمان بأن حياتهما لا معنى لها، وأنها وقعت في شرك، وأنها تريد فقط أن تنام. إنه من السهل أن نتتبّع تخلّي حنه عن الواقع حين تندفع أكثر إلى عالم الأحلام بسبب وتيرية ورتابة زوجها ميخائيل الجامد، ومن هنا جاءت المقارنة بين هذين الزوجين والجيلين اللذين مثّلا الحياة في إسرائيل حتى صدور هذه الرواية.

ثالثاً: هذه الرواية تعتبر أشهر روايات آموس عوز ففي كل مكان يذهب إليه يسأل عنها، وهي قد ظهرت في إسرائيل في أوائل إبريل عام ١٩٦٨ وسبّبت عواصف سياسية، وأدبية تتراوح بين نقد عدائي، وإعجاب متحمّس، وكانت من أكثر الكتب مبيعاً.

وقد تُرجمت ونُشرت في أمريكا، إنكلترا، فرنسا، إسبانيا، هولندا، ألمانيا، إيطاليا، السويد، فنلندا، النرويج، اليابان، رومانيا، البرازيل والمجر... كما أنها أُنتجت فيلماً في إسرائيل عام ١٩٧٦ من إخراج دون واكمان.

رابعاً: طبقاً لما كتبه الناقد الأمريكي روبرت ألتر في النيويورك تايمز عدد ٢١ مايو ١٩٧٢ فإن هذه الرواية دراسة ـ صوّرت بدقة ـ لعملية تآكل نفسي سيكولوجي في أدب خيالي غنيّ، ولعلّ هذا يتّضح أكثر إذا ما أولينا انتباهنا إلى حقيقة أن هذه الرواية قد كتبت في الستينات أو في زخم ما اصطلح النقاد على تسميته «حالة الحصار الإسرائيلية» ومع ذلك فهي لا تتعامل مع أبناء المستوطنات لتصوّرهم كنبلاء، ولا الرشاشات، ولا أبناء جيل الصابرا الذين لا يفشلون، وليس لها علاقة بالجفاف التلمودي الذي كان سائداً في أدب عجنون الفائز بجائزة نوبل للأدب بل على العكس تبقى هذه الرواية قصة شخصية جداً في مضامينها، لا

سياسية في اهتماماتها رغم أنها توظّف المواد السياسية المثقلة بالاحتمالات.

خامساً: على غير العادة في الأدب الإسرائيلي هذه الرواية خالية من شيئين هما الجنس، والعرب الذين يعيشون داخل إسرائيل كأقلّية، بل إنها هي الوحيدة التي تتعامل مع صورة العرب في الضمير اليهودي، ولعلّ التشابه الوحيد بين هذه الرواية، وباقي الروايات العبرية الأخرى هو أن العرب في حالة بطلة رواية آموس عوز صوّروا كبدائيين نبلاء، أو كأجلاف شرفاء ينتظرون السيدة البيضاء على بوابة المدينة. وهكذا فإن التوأمين العربيين اللذين عاشا في جيرتها بالقدس ولعبا مع حنه بطلة الرواية استمرّ وجودهما فقط في أحلامها. كفتاة بالغة استمرّت حنه تعيش في المدينة بينما غادرها التوأمان خلال حرب ١٩٤٨. رغبتها في استعادة ماضيها يتوازى مع الرغبة الجارفة لدى التوأمين في العودة إلى مدينتهما، وبيتهما، كما كتبت الناقدة الأمريكية اليهودية جيلار رامراس راكوخ فإن كل ذلك يبرّر الهلع الإسرائيلي من العودة العربية، وعلى هذا فإن التوأمين العربيين عاشا فقط في خيال حنه ليمثّلا الخوف المرضي المزمن لدى الإسرائيليين، وانتظار مواجهة أخرى أكثر مرارة. حيث إن هذين التوأمين لم يعودا رفيقيها في اللّعب بل أصبحا فدائيين عربيين منذرين بالانتقام العربي ضد المغتصبين اليهود. ولا شك أن التعامل مع العرب بهذه الطريقة قد مكّن هذه الرواية من لمس جرح مفتوح في الحياة الإسرائيلية، لذا فقد سببت عاصفة سياسية تتراوح بين نقد غاضب، وحماسة شديدة.

أجرى إيريك سيلفر الناقد الأدبي لجريدة (الغارديان) البريطانية مقابلة مع آموس عوز وناقش معه نجاح هذه الرواية في إسرائيل وهل

كان ذلك بسبب أنها تحكي فشل قصة زواج اثنين من جيل الصابرا، أم أن ذلك يرجع إلى التساؤل الذي بين سطور الرواية عن مضامينها السياسية. قال عوز في هذه المقابلة:

بشكل أو بآخر من المؤكّد أن هذه الرواية قد لمست جرحاً مفتوحاً رغم أنني كنت أدرك أن المضامين المؤلمة المتعلقة بالنزاع العربي - الإسرائيلي - في صورتها غير المباشرة كما هي عليه في الرواية - قد تزعج بعض القرّاء. إلاّ أنها في ذات الوقت أضفت شرعية على مفاهيم سياسية كانت موجودة إلاّ أن أحداً لم يعبّر عنها من قبل على الأقل في الأدب العبري.

أما الناقد الأمريكي ديفيد سباتر في مجلة التايم الأمريكية فقد كتب عن هذه الرواية: إنها أشدّ خطراً على إسرائيل من جيوش عربية - هكذا قال أحد النقّاد الإسرائيليين في تبجّح مبالغ فيه - إلا أن هذه الرواية قد عبّرت عن خوف مكبوت لدى الإسرائيليين. فالتوأمان ليسا إلاّ رمزين سياسيين للقدرة على الحياة والنماء المتجدّد لدى العرب، وأيضاً هما يعبران عن واقع المشكلة الفلسطينية المرير. والنقطة التي حاول الناقد الإسرائيلي التركيز عليها هي عندما كانت البطلة تحلم وهي سعيدة بالتوأمين العربيين يأخذانها من زوجها، وهما لا يهدأ لهما بال، ومصمّمان على الانتقام، وهذا في حدّ ذاته بالنسبة للإسرائيليين كثير جداً لأنه لمس عاطفة لا يود الإسرائيليون الإفصاح عنها، وهي الشعور بالذنب تجاه الفلسطينيين العرب... فقد قال لي آموس عوز: على السطح في إسرائيل هناك ثقة في النفس هائلة.. رصيد ضخم من اللامبالاة، ومن إجابات سخيفة تدور في أي ذهن، وتتمثّل في «لا تنزعج نحن نستطيع أن نحلّ كلّ شيء، ونتغلّب على كل صعوبة».

ولكن هذه الثقة تطفح على السطح فقط.. بينما في العمق، وفي داخل طيّات الضمير، والعقلية الإسرائيلية هناك شعور قديم بالفزع اليهودي التقليدي.. هذا الفزع يبرهن عن نفسه في الشعور بالذنب تجاه العرب، ويؤدي في حالة بطلة هذه الروايات إلى نزوات انتقامية.

الكاتب

آموس عوز من مواليد عام ١٩٣٩ في أحد الأحياء الفقيرة بالقدس يوم كانت تحت الانتداب البريطاني، كان من أفراد عائلته مثقّفون ومدرّسون ينتمون إلى طبقة المثقّفين اليهود الذين استوطنوا القدس قادمين إليها من شرق أوروبا.. بعضهم كان ينتمي إلى الجناح اليميني المتطرّف في حركة الصهيونية العالمية. درس أثناء طفولته في مدرسة «تحكموني» الابتدائية الدينية للبنين، وكانت هذه المدرسة مبنى تركي قديم بنوافذ مرتفعة تركت انطباعاً في ذاكرته ليذكرها في ما بعد في هذه الرواية. بعد ذلك انتقل إلى مدرسة علمانية لأن العائلة انتقلت إلى حي تعيش فيه الطبقة المتوسطة بالقدس. أما أبوه أرييه كلاونز فكان يعمل أمين مكتبة، ويتقن ١٥ لغة، وقد انتحرت أمه بانيا كلاونز في يناير من عام ١٩٥٢ وقيل أن إباه هو السبب.. هذه الحادثة انطبعت في ضمير ابنها، وما زالت تظهر في رواياته لدرجة أن بعض صديقاتها الباقيات على قيد الحياة قلن حين رأين هذه الرواية في فيلم سينمائي إنها قصة حياة «بانيا» الصديقة التي انتحرت منذ زمن.

بعد انتحار أُم آموس وهو في الثانية عشرة قرّر أن يصبح عكس أبيه تماماً، فأبوه كان صهيونياً من الجناح اليميني المتطرّف لذا أصبح آموس اشتراكياً. أبوه لم يستطيع إلا أن يعيش في مدينة كبيرة كالقدس،

أما آموس فقد ذهب ليعيش في مستوطنة غولدا كما أنه غيَّر اسم عائلته من كلاونز ليصبح عوز، ومعناها باللغة العبرية القوة. في مستوطنة غولدا درس آموس الاشتراكية، واستكمل تعليمه الثانوي ثم التحق بالجيش لينهي خدمته الإلزامية عام ١٩٦١. وبعد أن نشر مجموعته القصصية الأولى التحق بالجامعة العبرية في القدس ليدرس الفلسفة والآداب ثم عاد بعدها إلى مستوطنة غولدا ليعيش هناك ٢٣ عاماً مقسماً وقته بين الكتابة والزراعة والتدريس في المدرسة الثانوية بالمستوطنة. ومن المعروف أن الحياة في المستوطنة تسير وفقاً للنهج الاشتراكي بمعنى أن كل فرد فيها يعطي كل ما يكسب، ويأخذ فقط ما يحتاج، وقد أشار عوز إلى ذلك ذات مرة في إحدى لقاءاته الصحافية بالقول: «إنه مجتمع تلاشى فيه الفرق بين البنت الغنية والبنت الفقيرة وإنما الفرق الأكثر أهمية أن تكون البنت جميلة أو قبيحة».

كجندي احتياطي في وحدة دبابات بالجيش الإسرائيلي اشترك آموس عوز في حرب ١٩٦٧ على جبهة سيناء، وفي حرب أكتوبر ١٩٧٣ في مرتفعات الجولان، وحين نحاول مقارنة مواقفه السياسية وحقيقة كونه اشترك في حربين ضد العرب، بينما ظلّ طوال عمره ينادي بالتسوية السلمية مع الفلسطينيين، وإقامة دولة فلسطينية على الضفّة وقطاع غزة، ويصرخ بأعلى صوته ضد ضمّ أراضي الفلسطينيين بالقوة نجد في ذلك تعارضاً يثير السخرية. هذا التعارض يرجع إلى حقيقة أن عوز في كتاباته السياسية يتبنّى موقفين لهما تأثير مباشرة على أعماله الأدبية وعلى حياته عامة. الأول: هي انتماؤه للصهيونية، واعتقاده الراسخ بأن دولة إسرائيل هي الوطن الحقيقي الوحيد لليهود. الثاني: هي رؤيته أن النزاع العربي ـ الإسرائيلي على الأرض هو نزاع ليس بين حق

وباطل، وإنما بين حق وحق، ولهذا فهو ينادي بالاعتدال، وتجنّب التطرّف السياسي.

ولعل هذين الموقفين كانا أيضاً السبب في الجدل بين عوز وإيريك سيلفر المحرّر الأدبي في جريدة جيروزاليم بوست حين سأله في مقابلة أجراها معه في ١٨ مايو ١٩٧٢ سائلاً:

«بينما أنت تريد أن تشارك الأرض مع العرب لا تتبرّأ من الأيديولوجية الصهيونية، وبينما أنت لا تعتبر إقامة دولة إسرائيل أنها بداية ونهاية المطاف.. ذهبت إلى الجيش، وخدمت في وحدة دبابات خلال حرب الأيام الستة، وبعد ذلك في حرب يوم الغفران ألا ترى في ذلك مثاراً للسخرية؟

أجاب عوز:

أرى كثيراً من السخرية في جزء من ذلك، إلا أنه سيكون تبسيطاً شديداً للأمور حين لا تتحدّث عن انفصام بين الصهيونية اليمينية المتحذلقة وبين المتمرّدين الذين يريدون أن يبدأوا كل شيء من البداية السليمة، وبين أولئك الذين يعارضون الفكرة برمّتها. الصهيونية حركة متشعّبة فهي تحوي اتجاهات مختلفة، وصراعات أيديولوجية داخلية. أنا صهيوني، ولكن صهيوني حزين، أنا صهيوني أعتبر أن هناك ضرورة للعالمية، وأعتبر الوطنية مفهوماً عتيقاً ومدمّراً، ولكن كوني أباً لا أستطيع أن أخاطر شخصياً في أن أكون أول من يتنازل عن وطنه، فليحاول غيري ولو مرة، لن أكون أول من يتنازل عن الوطن، وما يتبعه مثل الجيش والنظام الدفاعي. لن أكون الأول في العالم، ومن المؤكد

لن أكون الأول في الشرق الأوسط. سأكون سعيداً إذا كنت ثاني، أو ثالث من يفعل ذلك. لا أريد أن أكون من الروّاد بعد الآن».

في ما بين عامي ١٩٦١ ـ ١٩٦٣ لعب عوز دوراً فعّالاً مع حركة «على المبدأ»، وبعد عام ١٩٦٣ ترك ماباي الجناح اليساري من حزب العمل، ولم يشترك في أي حزب سياسي كعضو حتى الآن. إلاّ أنه في عام ١٩٦٧ أصبح عضواً في حركة «السلام والأمن»، وفي عام ١٩٦٨ أصبح عضواً في لجنة السلام الفلسطينية ـ الإسرائيلية. ومنذ عام ١٩٧٨ حتى الوقت الراهن قاد حركة السلام الآن كداعية للسلام، وككاتب رسَّخ آموس مبادئ وأخلاقيات ما يسمى معسكر الحمائم في إسرائيل. والمقصود بهم هؤلاء الذين يعارضون ضم الأراضي المحتلة.. حيث إنه لم ير المواجهة بين العرب واليهود كنزاع بين النور والظلام، بين الخير والشر، ولكنه اعتبره خلافاً بين عدل مطلق، وعدل مطلق، لذلك فالحل في نظره يكمن في تسوية على أسس عادلة تضمن الأمن والاستقرار للجميع. وقد كتب آموس في إحدى مقالاته:

«لست أحد الذين لديهم نظرة متشائمة في أنه لا توجد طريقة أخرى لحل هذه المأساة إلاّ بهزيمة مطلقة لجانب واحد بالدم والنار. وعلى الجانب الآخر لا أشارك أصحاب النظرة الميلودرامية التي ترى بأن الجانبين سيتعانقان طالما وجدت التركيبة السحرية الجيوسياسية، أفضل ما يمكن أن تتوقعه هو مراحل بطيئة لتفاهم وقبول نفسي مصحوب باستيقاظ بطيء ومؤلم للحقيقة تتخلّله مراحل مريرة من أحلام متبدّدة، وشكوك متبادلة. فالجروح الإنسانية تلتئم وتترك ندوباً دائمة».

وكمعظم كبار الكُتّاب عوز أذكى من أن يقع في دائرة الثنائية السطحية بين خطأ وصواب، أو نعم ولا. بل إنه يرى وجهي العملة

ويتجنّب الوقوف على الحواف رغم أن له مواقفه الثابتة في ما يتعلق بضم الأراضي العربية المحتلة، وبالحرب بصفة عامة خلال حرب لبنان في عام ١٩٨٢ قاد تظاهرة ضد مناحيم بيغين رئيس وزراء إسرائيل الأسبق مذكّراً إياه بأن هتلر قد مات.

تتبلور في رواياته وقصصه القصيرة مضامين سياسية كثيرة كما أن آراءه السياسية المسموعة حول النزاع العربي ـ الإسرائيلي، وانتقاداته اللاذعة للتصرفات الإسرائيلية أكسبته شهرة كبيرة في داخل إسرائيل، وخارجها، وجعلته أحد زعماء معسكر الحمائم، وحركة السلام الآن في إسرائيل، يرى فيه بعض النقاد الإسرائيليين خروجاً عن النص المكتوب للدولة اليهودية الأمر الذي قد يؤدي إلى تدمير الذات، ولكن ما يود عوز أن يعكسه في كتاباته هو أنه ليست هناك إسرائيل واحدة وإنما كثير بما في ذلك الجناحان الرسميان العمل والليكود، وهو في كتاباته يركّز على الفرد في مجتمع يتغيّر بعنف. قصصه ورواياته تدور في فلسطين قبل وبعد إقامة الدولة اليهودية. قال مرة في إحدى لقاءاته الصحافية: «كنت سأسحل»، فيما اعتبره الصحافي الذي أجرى معه اللقاء مبالغة لرد فعل بعض القرّاء حول قصة كتبها في مجلة «اليوم السابع» وتدور حول أُم تشعر بأن احتلال القدس في حرب عام ١٩٦٧ لا يساوي إصبعاً واحدة من أصابع ابنها الذي فقدته في تلك الحرب، وأوضح عوز في هذه القصة أيضاً أنه يعطي أفضلية للحياة البشرية على الشعارات الجوفاء التي تؤدي إلى حروب مقدّسة. فبالنسبة له المقدّسون هم الناس، وليست الحروب ولا الأماكن.

وقد أثارت معظم رواياته ومجموعاته القصصية عواصف سياسية في إسرائيل ليس هنا مجال الحديث عنها. وإنما سنكتفي بالإشارة إلى موضوعين رئيسيين في منطقة الشرق الأوسط تناولهما عوز في كتابه هنا

وهناك في أرض الميعاد وفيه يصف رحلة قطع فيها إسرائيل من الشمال إلى الجنوب وأجرى لقاءات مسجّلة مع مواطنين من مختلف القطاعات أثناء حرب لبنان بالإضافة إلى ملاحظاته الشخصية حول ما يقوله الناس هناك في قالب روائي.

الموضوع الأول الذي سنتناوله هو زيادة القوى السياسية لمعسكر المتطرّفين الدينيين في إسرائيل، والموضوع الثاني هو الفرق الأخلاقي بين تهويد مدينتي يافا ورام الله في حدود ما قبل ١٩٦٧ ، وتهويد مناطق في الضفة الغربية.

الموضوع الأول أثاره عوز في إحدى مقالاته هنا وهناك في أرض الميعاد حين اقتبس من كلام مدرّسه العجوز دون سيدان الذي قال له منذ ما يزيد على عشرين سنة أن الصهيونية ليست إلاّ حلقة عابرة، ظاهرة موقتة في التاريخ والسياسة ولكن اليهودية المتطرّفة ستنبعث من جديد وستبتلع الصهيونية وستهضمها. سأل أحد النقّاد الأمريكيين آموس عوز إذا كان يعتقد بعد مضي هذه الفترة أن تنبّوءات مدرّسه قد صدقت؟ هل تسود إسرائيل الآن الظاهرة التي أطلق عليها آموس نفسه «القوة الخارقة على النماء للتطرّف الديني اليهودي؟».

وهل ما زال يأمل أن دولة علمانية ديمقراطية تستطيع البقاء في إسرائيل؟ وكانت إجابة عوز:

حين سمعتها من سادان في بداية الستينات اعتقدت أنها ضرب من الخيال السياسي الجامح، ورأيت أنها مخالفة لمسار التاريخ الطبيعي في فلسطين والمنفى، ولكن في عام ١٩٨٢ كتبت أنني لست متأكداً من أن آرائي سليمة تماماً، وما زلت غير متأكد في عام ١٩٨٦ ، ما زالت المباراة قائمة. فالدين، والتطرّف الديني والتعصّب يبدو أنها قد حقّقت

ارتفاعاً هائلاً ومفاجئاً ليس فقط في القدس ولكن في أماكن كثيرة أخرى من العالم تحت سيطرة الإسلام، المسيحية وبالتأكيد اليهودية. سيؤدي ذلك إلى سيطرة الدينيين الأصوليين على القدس؟ لا أعرف.. فهذا من الصعب التنبّؤ به خصوصاً وأنه يعتمد على عوامل مختلفة.. فأنا أعتقد بأن التطرّف الديني والتعصّب في العالم الإسلامي له تأثير معين على التطرّف الديني اليهودي في القدس والعكس صحيح. أعتقد بأن التطرّف الديني في أمريكا له تأثير مباشر على التطرّف الديني في القدس والعكس صحيح. إنه عالم واحد وأنا قلق، ومن المؤكد أنني لن أعتبر بعد الآن موجة التطرّف الديني في إسرائيل ظاهرة عابرة، إنها تعبّر عن ظاهرة ثابتة وقائمة. لا أستطيع القول إنها لن تدوم إلاّ أنني لن أدلي بصوتي مع الاتجاه المعاكس وأقول إن الصهاينة العالمية قد انتهت أيضاً. ما زالت المباراة قائمة.

أما في ما يتعلق بالموضوع الثاني وهو تهويد الضفّة الغربية فقد شرحها عوز في كتابه هنا وهناك في أرض الميعاد بقوله: إن الذي يغرق ويتشبّث بلوح من الخشب مسموح له بكل المقاييس الطبيعية، والعدالة الدولية أن يوجد لنفسه مكاناً فوق اللوح حتى ولو كان عليه ليفعل ذلك أن يزيح الآخرين قليلاً. والحقيقة المرّة هي أن هذه الأرض وطن لشعبين من الواضح أنه ليس لديهما وطن آخر ولا خيار آخر لذا فإن عليهما أن يتقاسماها بشكل ما وهذا أمر سياسي، عسكري، ديموغرافي واقتصادي.

رفعت فوده

سيدني - يناير/ كانون الثاني ١٩٩١

شخصيات الرواية

حنه: بطلة الرواية والراوية

ميخائيل غونين: زوج حنه

د. روزنتال: الطبيب الذي عالج جنه وهي صغيرة من مرض الدفتيريا

خليل وعزيز: التوأمان العربيان

راشد شحاده: والد التوأمين

عمانوئيل: الأخ الأكبر والوحيد لحنه

رينا: زوجة عمانوئيل

يوسي (يوسف): ابن عمانوئيل

ملكاه: أم حنه

يوسف غرينباؤم: والد حنه

عائلة ترنو فولر: أصحاب البيت الذي كانت تعيش فيه حنه قبل زواجها

ميخائيل ستروغوف: بطل أحلام حنه

يحيعام بيلد: مدرّس الألعاب الرياضية لميخائيل أيام دراسته الأولى

يحزقائيل غونين (جانيتس): والد ميخائيل

طوقاه: والدة ميخائيل

العمة جينيه: عمة ميخائيل وتعمل طبيبة أطفال

العمة ليئة: عمة ميخائيل الثانية

العمة غيته: عمة ميخائيل الثالثة

دينه: عمة ميخائيل الرابعة

السيد قاديشمان: صديق العمة ليئة ويعيش في القدس

هداساه: أقرب صديقات حنه

أبا: زوج هاداساه

سارة زلدين: مربية الأطفال التي كانت تعمل حنه لديها

ياردينا: شقراء زميلة ميخائيل طالبة في قسم الجيولوجيا

يائير زالمان: ابن حنه وميخائيل

الياهو موشيح: بائع الخضار الفارسي

ليفانا: ابنة بائعة الخضار الفارسي

يورام كامنيتسر: ابن أسرة الجيران كامنيتسر

ليئواراه: صديقة ميخائيل من أيام الدراسة

د. أورياخ: طبيب عائلة حنه وميخائيل

رحاميم رحاموف: سائق سيارة أجرة من بخارى (يظهر في أحلام حنه)

إيفون أزولاي: الاسم الذي اختارته حنه لنفسها في أحلامها

ألبرت كيرسبن: زوج العمة جينيه

السيد جاليك وزوجته طوفاه: جارا حنه وميخائيل في السكن

عائلة غلوبرمان: جيران يحزقائيل والد ميخائيل

سيمحاه: مدبرة منزل هاداساه

فورتونا: مدبرة منزل حنه

د. لومبارزو: طبيب العائلة الجديد لحنه

١

أكتب لأن أناساً أحبهم قد ماتوا، أكتب لأنني حين كنت صبية كانت لديَّ القدرة على الحب، أما الآن فإن قدرتي على الحب تموت. أنا لا أريد أن أموت.

إنني امرأة متزوّجة، عمري ثلاثون ربيعاً. زوجي هو الدكتور ميخائيل غونين. جيولوجي، رجل طيب القلب، أحببته. التقينا قبل عشر سنين، في مبنى كلية «تيرا ـ سانتا». كنت طالبة منتسبة بالسنة الأولى في الجامعة العبرية، وكنا لا نزال نتلقّى المحاضرات في كلية «تيرا ـ سانتا».

وهكذا التقينا.

ذات يوم شتوي، وفي الساعة التاسعة صباحاً، انزلقت قدماي أثناء صعودي الدرجات في مبنى الكلية. شاب غريب أخذ مرفقي... قوية كانت يده، ومتحفّظة. لمحت أصابع قصيرة ذات أظافر مسحوبة. أصابع شاحبة نمت بين مفاصلها خصلة شعر أسود قصير.. أسرع لإيقاف سقوطي. اتّكأت على ذراعه إلى أن زال الألم وأنا مرتبكة. إذ إن الانزلاق فجأة أمام الغرباء يسبّب الارتباك. عيون ثاقبة، وابتسامات ماكرة. كنت أيضاً مضطربة لأن كفّ يد هذا الشاب الغريب كان عريضاً، ودافئاً، عندما أمسك بي شعرت بدفء أصابعه عبر أكمام الفستان الصوفي الأزرق الذي حاكته لي أمي. كان شتاء في القدس.

أراد أن يعرف إذا كان قد ألمّ بي سوء. أجبته بأنه ربما التوى كاحلي. قال إن كلمة «كاحل» تروق له. ثم ابتسم. ابتسامته كانت خجلة ومخجلة. خداي تورّدا استياء. لم أمانع حين طلب مني أن يرافقني إلى الكافيتيريا بالطابق الأرضي. آلمتني رجلي. مبنى «تيرا ـ سانتا» دير مسيحي انتقل إلى الجامعة العبرية بعد حرب عام ١٩٤٨، عندما انقطعت الطرق المؤدية إلى المباني الرئيسة للجامعة على جبل المشارف (سكوبس). إنه مبنى بارد. الردهات فيه عالية، وواسعة. كنت شاردة حائرة حين تبعت هذا الفتى الغريب الذي سمح لي بالاتكاء عليه. غمرتني سعادة حين أطعته. لم أستطع النظر إليه مباشرة لأتفحّص وجهه.

تخيلت من دون أن أرى، أن له وجهاً طويلاً نحيلاً أسمر.

قال: لنجلس الآن.

جلسنا من دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر، ومن دون أن يسألني عما أريده من الشراب طلب فنجانين من القهوة. المرحوم أبي كان أحبّ إليّ من أي رجل آخر في العالم. عندما أدار الذي تعرّفت عليه حديثاً رأسه، رأيت أن شعره قصير جداً، وأن ذقنه غير محلوقة بعناية. تحت ذقنه بدا شعر أسود غزير.

لا أدري لماذا بدت هذه التفاصيل مهمة في نظري.

في الحقيقة كانت لصالحه. أحببت ابتسامته التي كانت تداعب الملعقة كما لو أنها تعيش حياتها الخاصة بها وغير متعلّقة بصاحبها. كأنما استمتعت الملعقة بقبضة أصابعه عليها. إحدى أصابعي شعرت بميل جارف إلى لمس أسفل ذقنه.. حيث كانت الحلاقة غير ملساء، وحيث انتشرت الشعيرات الصلبة.

اسمه ميخائيل غونين.

طالب في السنة الثالث في قسم الجيولوجيا. من مواليد وسكان حولون.

«بقدسك الطقس بارد».

«قدسي؟ من أين لك أني مقدسية؟».

اعتذر إذا كان على خطأ هذه المرة ولكنه لا يعتقد أنه أخطأ. لقد تعوّد تمييز أبناء القدس وبناتها من النظرة الأولى. قال ذلك وهو ينظر لأول مرة في داخل عينيَّ، عيناه كانتا رمادية اللون. لاحظت في بريقهما بهجة، لكنها ليست سعادة حقيقية، أخبرته بأنه لم يخطئ هذه المرة أيضاً في تخميناته.. فأنا فعلاً مقدسية.

«تخمينات لا...».

أبدى وجهاً منزعجاً ثم نمت على شفتيه ابتسامة: لا، لم يكن هذا تخميناً، لقد كان بمقدوره أن يرى أنني مقدسية من النظرة الأولى، رأى؟ هل هذا أيضاً يدرسونه في قسم الجيولوجيا؟

لا! بالطبع لا... في الحقيقة تعلم ذلك من القطط. من القطط؟ أجل إنه يحب القطط، ويحب النظر إليها. القطة لا تصادق إطلاقاً من ليس بقادر على مبادلتها الحب. القطط لا تخطئ في حكمها على الآدميين.

«أنت شاب منطلق». قلت ذلك ببهجة، ثم ضحكت، لكن ضحكتي خانتني. بعد ذلك دعاني ميخائيل غونين إلى الصعود معه إلى الطابق الثالث من مبنى كلية «تيرا ـ سانتا» هناك يعرض الآن فيلم علمي عن البحر الميت، ووادي العربة. عندما صعدنا الدرجات مررنا في المكان الذي انزلقت فيه قدماي من قبل. عاود ميخائيل وضم معصمي براحته

الدافئة.. كما لو كانت هذه الدرجة مخصصة لانزلاقي، عبر الصوف الأزرق شعرت بكل واحد من أصابعه الخمس على حدة. سعل سعالاً جافاً فنظرت إليه. شعر بنظراتي فاحمرّت وجنتاه خجلاً. حتى أذناه احمرّتا، وقطرات المطر تطرق النوافذ.

قال ميخائيل:

«يا له من مطر غزير».

«بالفعل أمطار غزيرة»، وافقته. كما لو كان قد بدا لي فجأة من نبرته أننا أقرباء. تردّد ميخائيل.. ثم أضاف قائلاً:

«لقد رأيت في الصباح الباكر ضباباً.. كما شعرت بهبوب رياح عاصفة».

«في قدسي الشتاء شتاء» قلت ذلك بمرح وأنا أضغط على حروف «قدسي» لأنني أردت تذكيره بعبارته الأولى. وددت أن أواصل حديثه.. إلا إنه لم يكن قادراً على الإتيان بإجابة.. لأنه ليس حاد الذهن. لكنه عاد وابتسم.. في ذات يوم مطير بالقدس، وفي مبنى كلية «تيرا ـ سانتا» وعلى درجات بين الطابقين الثاني والثالث لم أنس. في الفيلم العلمي رأينا كيف يعملون على تبخير المياه إلى أن يظهر الملح النقي: بلورات بيض تلمع فوق طين رمادي اللون أخذ يتشقّق أمام أعيننا.. ولما كان هذا الفيلم تعليمياً عرضت فيه العمليات الطبيعية بتتابع سريع. كان فيلماً صامتاً. ستائر سود علقت على النوافذ لتحجب ضوء النهار. وعموماً كان الضوء باهتاً في الخارج.. لأن الضباب كان كثيفاً، وكان هناك أستاذ عجوز أخذ يلفظ بين الفينة والأخرى تعليقات وشروحاً لم أفهمها.

كان صوته صدئاً، ومتعباً. تذكّرت صوت د. روزنتال الرخيم الذي

عالجني من الدفتيريا حين كنت في التاسعة من عمري. وقد أمسك الأستاذ عدة مرات بمؤشر رفيع وهو يشير إلى المعالم المهمة في الصور المعروضة على الشاشة، كي يمنع شرود أذهان طلابه. أما أنا فكنت الحرّة الوحيدة في أن ألاحظ تفاصيل لا فائدة علمية فيها. ومثال ذلك النباتات الصحراوية التي بدت هزيلة وعنيدة وقد كانت تظهر على الشاشة مرات ومرات تحت الآلات التي تنتج البوتاس. وعلى الضوء الخافت للفانوس السحري كنت حرة أيضاً في أن أتأمل عصا الأستاذ وذراعه، ومعالم وجهه (الطاعن في السن) كما لو كان نقشاً خشبياً يزيّن أحد الكتب القديمة التي أحببتها ـ تذكّرت الكليشيهات الخشب الداكنة في كتاب موبي ديك، وفي الخارج كان الرعد شديداً مزمجراً يصمّ الآذان. كانت قطرات المطر القوية تدق على النوافذ المظلمة كأنها تحمل إلينا رسالة مستعجلة تطلب أن نصغي إليها في اهتمام مشوب* بالخوف.

٢

المرحوم أبي قال في مناسبات عديدة: الأقوياء أحرار في فعل كل شيء هم يرغبونه تقريباً، إلا أنه حتى أقوى الناس ليسوا أحراراً في رغباتهم، وأنا لست من أقوى الأقوياء. أنا وميخائيل اتفقنا على أن نلتقي ذاك المساء في مقهى «عطاره» في شارع «بن - يهودا».

في الخارج هبّت عاصفة حقيقية وكأنها تختبر جدران القدس الحجر اختباراً غاضباً. قدّموا لنا قهوة غير طبيعية (اصطناعية) وأكياس سكر صغيرة جداً. لأن قوانين التقشّف كانت لا تزال سارية المفعول في ذلك الوقت. سخر ميخائيل من هذا الوضع. لم تكن نكتته مضحكة، لأنه لم يكن رجلاً حاد الذهن ولربما لم يعرف سبيل التنكيت المضحك.

استلطفت مجهوداته لأنه سرّني أنني كنت أسبّب له توتراً داخلياً. بسببي كان يحاول الخروج من أطواره، باذلاً قصارى جهده ليفرح ويفرحني، حتى عندما كنت بنت ابنة تسع سنين كنت أود من صميم قلبي أن أصبح رجلاً لا امرأة. لم تكن عندي صديقات في أيام طفولتي.

أحببت الصبيان وكتب الصبيان كنت اصارع، أركل وأتسلق، كنا نسكن في حي «كبريات شموئيل» عند حدود حي «القطمون»، وهناك على السفح كان ملعب مهجور.. مغطّى بالصخور، والأشواك، وخردة

حديد. وعند أسفل المنحدر كان بيت التوأمين. هذان التوأمان كانا عربيين هما خليل وعزيز ابنا رشيد شحادة.

كنت أميرة وهما حارسيّ، كنت قائدة مغوارة وهما الضابطان، كنت باحثة غابات وهما صيادين. كنت القبطانة وهما الملاحين. جاسوسة، وهما العينين. معاً كنا نتجوّل في شوارع بعيدة نجوب الغابات.. جوعى.. نركض لاهثين نعذب الأطفال المتدينين، نتسلّل إلى حرش «سان سيمون» ننادي رجال الشرطة البريطانيين بأسمائهم، نهرب ونطارد الآخرين، نختبئ ثم ننقض، كنت متسلطة على التوأمين، وكان ذلك يغمرني بسعادة باردة.. بعيداً جداً كان ذلك.

قال ميخائيل:

«أنت فتاة خجولة».

بعد أن ارتشفنا قهوتنا أخرج ميخائيل من جيب معطفه غليوناً ووضعه على المائدة بيننا. كنت أرتدي بنطلوناً من القطيفة البنية، وسترة حمراء ضيقة مرقّطة. كانت السترة الضيقة هي الموضة بين الطالبات في تلك الأيام في القدس. إذ كنّ يرتدينها لكي يعطينّ انطباعاً بالإهمال المرح. وقد علّق ميخائيل بخجل قائلاً: إنني كنت أكثر أنوثة في عينيه عندما كنت أرتدي الفستان الصوفي الأزرق هذا الصباح.

قلت: «وقد كنت أنت الآخر مختلفاً في الصباح».

لقد كان ميخائيل يرتدي معطفاً رمادياً لم يخلعه طيلة جلستنا في مقهى «عطاره» احمرّ خداه على أثر الانتقال من البرد القارس إلى الدفء، أما جسمه فبدا نحيلاً ضعيفاً، التقط غليونه المنطفئ وأخذ يرسم به أشكالاً على شرشف (مفرش) الطاولة. أعطتني أصابعه التي

تداعب الغليون إحساساً بالأمان. وقد يكون ندم على ملاحظته حول ملابسي كمن يحاول إصلاح الخطأ عندما قال إنني في نظره امرأة جميلة، وعندما كان يقول ذلك كانت عيناه مركّزتين على الغليون. إنني لست من الأقوياء، ولكنني أقوى من هذا الفتى.

قلت: «أخبرني عن نفسك».

قال ميخائيل:

«لم أحارب في صفوف البالماخ[1]. كنت جندياً في سلاح الاتصال (الإشارة) كنت جندي اتصال في لواء كارملي».

وبعد ذلك اختار ميخائيل أن يحكي لي عن أبيه. كان والده أرمل.. يعمل في مصلحة المياه في بلدة «حولون».

لقد كان رشيد شحادة والد التوأمين موظفاً في القسم الفني لبلدية القدس أيام الانتداب البريطاني. كان عربياً مثقفاً يتصرف حيال الغرباء كما لو كان نادلاً. قال ميخائيل إن معظم دخل والده يذهب إلى تعليمه الجامعي إذ إن ميخائيل هو وحيد والده.. وعليه يبني آمالاً عريضة. وهو (الأب) غير مستعد أن يقبل فكرة كون ابنه فتى كباقي الفتيان. مثلاً يقرأ الأب التمارين التي يعدّها ميخائيل في موضوع الجيولوجيا باحترام وخشوع.. ثم يمتدحها بكلمات ثابتة لا تتغير: «هذا عمل علمي.. إنه عمل دقيق».

---

(١) البالماخ: اختصار لكلمتين باللغة العبرية معناها قوات الانقضاض، وهي وحدات قتالية مدربة تابعة للهاغاناة أي القوات المسلحة اليهودية في فلسطين أيام الانتداب البريطاني وفي فترة الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨.

كانت رغبة والده الملحّة أن يصبح ميخائيل بروفيسوراً في الجامعة العبرية بالقدس، لأن المرحوم جدّه كان مدرّساً للعلوم الطبيعية في دار المعلمين اليهود في «غرودنو». كان معلماً معروفاً مما حدا بوالد ميخائيل أن يفترض استمرار العائلة من جيل إلى آخر على وتيرة أو وظيفة واحدة.

قلت: «العائلة ليست في سباق في العدو، والمهنة ليست شعلة يحملها الأول إلى الثاني...».

قال ميخائيل: «ليس بإمكاني أن أقول ذلك لأبي.. فهو رجل شديد الحساسية، إنه يستخدم التعبيرات العبرية كأنها أواني طعام صيني قابلة للكسر. والآن أخبريني أنت بدورك عن عائلتك!».

حكيت لميخائيل أن أبي مات عام ١٩٤٣ وأنه كان سمحاً.. كان يتحدث إلى كل الناس، وكأنه يسترضيهم، أو أنه يطلب مودّة لا يستحقها. كان لديه محل لبيع وتصليح أجهزة الراديو، والأدوات الكهربائية. منذ أن توفّاه الله تعيش أمي بمستوطنة نوف ـ هاريم عند أخي البكر عمانوئيل.

وفي ساعات العصر تجلس في غرفة عمانوئيل وزوجته رينا تشرب الشاي وتحاول تعليم يوسي ابنة أخي الأخلاق الحميدة.. لأن والديه ينتميان إلى جيل يعبث بمثل هذه الأخلاق. وهي تحبس نفسها طوال النهار في حجرة صغيرة في طرف المستوطنة لتقرأ إنتاجاً لتورغينيف، أو لغوركي باللغة الروسية، وتكتب إليّ رسائل بلغة عبرية ركيكة... تحيك، وتستمع إلى المذياع، كما أن الفستان الأزرق الذي أعجبك هذا الصباح حاكته أمي مالكاه.

ابتسم مخائيل قائلاً:

«ربما كان من الأفضل لأمك، وأبي أن يلتقيا... فإنهما سيجدان حتماً الكثير من المواضيع المشتركة للحديث، ولن يكونا مثلنا يا حنه نجلس هنا لنجترّ الحديث عن والدينا. هل تشعرين بالملل؟» سأل ميخائيل في فزع، وعيناه تتقلصان، وكأنه قد أساء لنفسه إذ سأل هذا السؤال.

«لا» قلت «لا أشعر بملل.. إنني سعيدة هنا». وتساءل ميخائيل عما إذا كنت أقول ذلك حتى لا أخدش مشاعره. أنكرت ذلك.. بل ألححت عليه أن يحكي لي المزيد عن أبيه.. فإنه يجيد السرد. من خلال أوصاف ميخائيل بدا لي أن والده رجل متقشّف، ومتواضع، أما ساعات المساء فيقضيها متطوّعاً في إدارة نادي حزب العمّال بحولون مديراً. أي أنه يصفّ المقاعد، يلصق الملصقات، ويطبع المنشورات، ويجمع أعقاب السجائر بعد الاجتماعات. أعتقد أنه ربما من الأفضل لو التقى والدانا، ولما كان قد قال ذلك فإنه يعتذر على تكرار كلماته، وإزعاجي وماذا عن دراستي في الجامعة؟ هل أدرس علم الآثار؟

أسكن في غرفة مستأجرة في بناية يمتلكها متديّنون يهود في حي «أجفا».

أعمل مربية أطفال في حضانة ساره زلدين (صباحاً بحي كيريم أفراهام) وبعد الظهر أستمع إلى محاضرات في الأدب العبري القديم والحديث، ولكني طالبة منتسبة. كلمة منتسبة على وزن كلمة شأن في اللغة العبرية توحي بكل قوته محاولاً تأجيل الصمت، ولهذا لعب بهذين اللفظين في محاولة يبدو معها مرحاً. إلا أن الدعابة في كلماته لم تكن

واضحة.. لذا أعاد صياغتهما من جديد.. وفجأة صمت ليحاول من جديد متميزاً من الغيظ إشعال غليونه العنيد. سعدت لارتباكه. في تلك الفترة كنت أنفر من منظر الرجال الخشنين الذين قدرتهن صديقاتي في تلك الأيام. رجال البالماخ الأشدّاء الذين كان من عادتهم معاكسة الفتيات بسيل متدفق من حنان زائف، سائقو الجرارات غلاظ الأذرع قادمون من صحراء النقب يعلوهم الغبار.. كما لو أنهم يغيرون على مدينة، يستبيحون نساءها. أحببت ارتباك الطالب ميخائيل غونين أمامي في مقهى «عطاره» في تلك الأمسية الشتوية. دخل المقهى عالم مشهور بصحبة امرأتين، ميخائيل مال ناحيتي لكي يهمس في أذني اسم هذا العالم فلمست شفتاه شعري، وقلت لنفسي إنه يشم الآن رائحة شعري. إن شعري الآن يدغدغ جلده. إني أحب هذه الهواجس، قلت:

«بإمكاني أن أقرأ أفكارك.. إنك شفاف.. إنك تتساءل وماذا بعد..؟ كيف لعلاقتنا أن تستمر؟ هل أنا صادقة..؟». احمرّ وجهه فجأة كأنه طفل صغير ضبطوه يسرق الحلوى: «لم يسبق أن كانت لي علاقة مستمرة بأية فتاة من قبل».

«من قبل؟».

أزاح ميخائيل فنجانه الفارغ بعناية.. نظر إليّ.. في العمق. وخلف استسلامه ارتفعت سخرية مكبوتة في عينيه.

«نعم حتى الآن».

بعد ربع ساعة خرج العالم الشهير برفقة إحدى السيدتين.. على حين انتقلت زميلتها إلى إحدى الطاولات البعيدة، وأشعلت سيجارة.. تعبيرات وجهها أفصحت عن مرارة. وقد أبدى ميخائيل ملاحظة وقال:

«هذه السيدة غيور».

«أهي غيور منا؟».

«منك أنت ربما».

«أمنا تغار..؟»، يحاول ميخائيل أن يسخر فلم يستطع.

لو استطعت لاعترفت له بأن جهوده قد أثمرت، وأن أصابعه تناديني، لم أستطع الكلام، وخفت من الصمت. لهذا أخبرت ميخائيل بأنني أحب أن ألتقي برجال مشهورين من القدس كالأدباء والمثقفين. من المرحوم أبي يوسف ورثت هذا الميل. حين كنت طفلة تعوّد أبي أن يشير إلى العلماء بالبنان عندما يمرّون علينا. أبي كان مغرماً بمصطلح «ذو شهرة عالمية» كان يهمس بذهول بأن هذا العالم الذي غاب عن ناظرينا ودلف لتوّه إلى محل الزهور ذو شهرة عالمية، أو أن هذا الشخص الذي يمشي بيننا في الأسواق له شهرة عالمية. فأنظر لأرى عجوزاً قزماً.. يتحسّس طريقه بحرص كتائه في بلد غريب. عندما درسنا في المدرسة كتب الأنبياء[1].. تخيّلت الأنبياء في صورة الأدباء العلماء الذين أشار

---

(١) كتاب الأنبياء: ج٢ من العهد القديم ـ توراة موسى ويتضمن الأحداث التي وقعت للعبريين بعد موت موسى منذ دخولهم أرض فلسطين مع يوشع بن نون خليفة موسى.. إلى أن خرجوا منها في السبي البابلي على يد الإمبراطور الكلداني بختنصر. وهذا الجزء يغطي فترة زمنية بين حوالى سنة ١٣٠٠ وسنة ٢٠٠ ق.م. أي قرابة ألف سنة ونيف.
وهو ينقسم إلى قسمين: الأنبياء الأول، والأنبياء الأخر. أما الأنبياء الأول فهو يتألف من أربعة أسفار كالتالي:
أ ـ سفر يوشع بن نون: وهو أربعة وعشرون إصحاحاً تروي اقتحام العبريين أرض فلسطين بزعامة يوشع بن نون إلى أن مات في تمنه إحدى بلدات فلسطين. =

= ب ـ القضاة: وهم سلسلة من الزعماء العسكريين والدينيين حاولوا على مدى أكثر من قرنين من الزمان أن يمنعوا المجتمع العبري من الانزلاق في الفجور والكفر، وأن يواصلوا إعداده إعداداً قتالياً. ويحتوي هذا السفر على واحد وعشرين إصحاحاً.
ج ـ صموئيل: وبه تبدأ فكرة النبوة تتبلور بشكل واضح كما تتحدد صفات النبي في المفهوم اليهودي، وهي صفات زعامة سياسية ودينية تعتبر امتداداً للقضاة، وإن كانت لا تسعى إلى تسلم مقاليد الحكم رسمياً، بل تبقى لتدير هذا الحكم من وراء ستار، بينما الحاكم ملك يجلس على عرشه، ويبايعه رعاياه بأمر من هذا النبي. سفر صموئيل ينقسم إلى جزأين، أولهما يروي انتقال صموئيل من صفة القاضي إلى صفة النبي، ونضاله من أجل توحيد كلمة العبريين بكافة أسباطهم تحت تاج واحد، ثم اختيار شاؤل ليكون ملكاً، وانتهاء أمر هذا الملك بالانتحار على إثر موقعة حربية فاشلة ضد الفلسطينيين. وأما الجزء الثاني فإنه يروي جهود هذا النبي في تولية داود على العرش، وما كان من استيلاء داود على أورشليم ـ مدينة اليبوسيين ـ وهم من قبائل الفلسطينيين الأصليين، وتشييده قلعة حربية على جبل صهيون جنوب غربي هذه المدينة، وهو الذي أصبح شعاراً للصهيونية السياسية في ما بعد. وسفر صموئيل في جزئه الأول يحتوي على واحد وثلاثين إصحاحاً، وفي جزء الثاني على أربعة وعشرين.
د ـ الملوك: وهو مكوّن أيضاً من جزأين: الملوك الأول والملوك الثاني، والجزء الأول يحتوي على اثنين وعشرين إصحاحاً خصصت الأحد عشر الأول منها لذكر مملكة سليمان، وبنائه الهيكل. وابتداء من الإصحاح الثاني عشر يتحدث هذا السفر عن انقسام مملكة سليمان بعد موته إلى قسمين. مملكة يهوذا في الجنوب، وعاصمتها أورشليم القدس، ومملكة إسرائيل في الشمال، وعاصمتها السامرة في منطقة نابلس. أما الملوك الثاني فيحتوي على خمسة وعشرين إصحاحاً وهو يروي الفترة التي سقطت فيها المملكة الشمالية واستمرار المملكة الجنوبية يهوذا في أورشليم إلى تدميرها على يد بختنصر.
أما الأنبياء الأخر وهو الشطر الآخر من كتاب الأنبياء.. فيحتوي على تراث القادة الروحيين الذين حاولوا الأخذ بيد اليهود نحو بر السلامة في ظروف سياسية وعسكرية واجتماعية حالكة، أحاط بهم فيها الأعداء من كل جانب وقد رتب مؤرخو الكتاب المقدس المحدثون الأنبياء الأخر ترتيباً تاريخياً. فمثلاً رتبهم لوسيان غوتييه في كتابه «مقدمة للعهد القديم» على النحو التالي: =

إليهم والدي. إنهم أشخاص في منتهى الرقّة يضعون نظاراتهم، ولهم لحى شاب شعرها ومشذَّبة.

خطواتهم متوجلة، ومترددة كأنهم يهبطون منحدراً جليدياً شديد الانزلاق. وعندما كنت أتخيّل في ذهني كيف يرعد هؤلاء الضعفاء، ويزمجرون في غضب ضد خطايا الناس كنت أضحك، لأنني تخيلتهم

= ١ ـ هاموس/ ٧٦٠ ق.م.
٢ ـ هوشع/ ٧٥٠ ق.م.
٣ ـ أشعيا/ ٧٤٠ ق.م.
٤ ـ ميخا/ ٧٢٥ ق.م.
٥ ـ ناحوم/ ٦٥٠، ٦٢٠ ق.م.
٦ ـ أرميا/ ٦٢٦ ق.م.
٧ ـ صفنيا/ ٦٢٥ ق.م.
٨ ـ حبقوق/ ٦٠٨ ق.م.
٩ ـ حزقيال/ ٥٩٢ ق.م.
١٠ ـ عوبديا/ القرن ٦ أو ٥ ق.م.
١١ ـ حجاي/ ٥٢٠ ق.م.
١٢ ـ زكريا/ ٥٢٠ ق.م.
١٣ ـ ملاخي/ القرن ٥ ق.م.
١٤ ـ يونس/ القرن ٤ ق.م.
١٥ ـ يوئيل/ القرن ٥ أو ٤ ق.م.
وترتيب الأسفار المذكورة بحسب ما وردت في العهد القديم يختلف عن هذا الترتيب إذ إنه يأتي على النحو التالي:
أولاً: أشعيا، أرميا، حزقيال.
ثانياً: أسفار الأنبياء الأثني عشر الصغار وهم:
هوشع، يوئيل، آموس، عوبديا، يونس، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حجاي، زكريا، ملاخي. [أنظر: د. حسن ظاظا، «الفكر الديني الإسرائيلي»، القاهرة، مكتبة جامعة عين شمس، ١٩٧٥، ص٣٦ ـ ٥٠].

وهم في شدّة هياجهم وصراخهم وقد جفت حلوقهم، وبحّت أصواتهم.. أما إذا دخل عالم دكان (محل) أبي في شارع يافا، فإن أبي كان يعود إلى البيت، وكأن شعاعاً من نور مسّه. كان يستعيد برهبة وبحرص كل ما قاله له العالم. كان يتفحّص ألفاظهم كأنها عملة نادرة كما كان دائم البحث عن الرموز والمعنى الآخر في كلماتهم. لأن حياته في نظره بمثابة درس متواصل يجب استخلاص العبرة منه. كان رجلاً يعرف كيف يصغي.

وفي صباح أحد أيام السبت أخذني أبي مع أخي عمانوئيل إلى دار سينما تل ـ أور للاستماع لخطب يلقيها كل من مارتن بوب وهوغو برغمان في اجتماع دعا إليه تنظيم (حلف السلام). ولا زلت أتذكر حدثاً غريباً عند خروجنا من القاعة أمام البروفيسور برغمان، وقال لوالدي هذه الكلمات:

«أنت حقاً؟ لم أتوقع أن أراك بيننا اليوم يا عزيزي الدكتور ليبرمان معذرة! أليس سيدي هو الدكتور ليبرمان؟ إذاً أين التقينا يا سيدي. إن وجه سيدي معروف لي جداً». تلعثم أبي، وشحب وجهه كأن أحداً يتهمه بارتكاب عمل قبيح، ولذا ارتبك البروفيسور أيضاً، واعتذر عن خطأه ومن شدّة ارتباكه لمس كتفي وقال لوالدي: «إن ابنتك جميلة يا سيدي.. أهي ابنتك؟ ابنة رائعة حقاً».

وقد ارتسمت تحت شاربه ابتسامة رقيقة.. لم ينس أبي هذا الحادث أيضاً حتى نهاية عمره. كان يعيد حكايته هذه مرّات، ومرات بانفعال، وسرور. حتى عندما كان يجلس في الكرسي الفوتيه وهو يرتدي رداءه البيتي الفضفاض ونظارته مرفوعة إلى جبهته، وشفتاه متدليتان.. كان أبي

وكأنه يصغي في صمت إلى أصوات سلطة خفية. هل تعرف يا ميخائيل أنني ما زلت حتى الآن أتخيّل أحياناً أنني سأصبح زوجة لعالم شاب يسعى لكي يكون ذا شهرة عالمية. على ضوء مصباح قراءته سيطفو وجه زوجي على أكوام من المجلدات الألمانية القديمة، وأنا أدخل إليه على أطراف أصابعي.. لأضع على مكتبه كوباً من الشاي. أفرغ منفضة سجائره.. أغلق النوافذ في هدوء، ثم أخرج من دون أن تشعر بي.. ستسخر مني الآن.

٣

الساعة العاشرة.

دفع كل منا ما عليه.. كما يفعل الطلبة.. ثم خرجنا إلى الليل.. الصقيع القارس لفح وجوهنا. زفرت نفساً عميقاً في اتجاهه كي تختلط أنفاسي بأنفاسه.. لم تكن معي قفازات عندما خرجنا ألحّ عليّ ميخائيل أن ألبس قفازه.

كان خشناً من جلد مبشور.. بعد ذلك لمست يدي نسيج معطفه.. أحسست بالنسيج سميكاً وخشناً، ولذيذاً. كانت تجري المياه في قناة عند طرف الرصيف في اتجاه ميدان صهيون. وكأن شيئاً مثيراً يحدث الآن في وسط المدينة. وهي تسرع لرؤيته.

مرّ بنا زوجان يتأبّط كل منهما الآخر، وقالت الفتاة:

«هذا مستحيل.. لا يمكن أن أصدّق ذلك..».

وقد ضحك صديقها:

«يا لك من ساذجة!».

وقفنا لحظات معدودة لا ندري ماذا نفعل.. عرفنا أننا لا نريد الفراق.. توقّف المطر، واشتدّ البرد. لم أعد أتحمّل البرد، كنت

أرتجف.. كلانا رأى المياه تتدفق في القناة الصغيرة عند طرف الرصيف. الطريق كان يلمع والأسفلت عكس أضواء السيارات المارة.. حولّها إلى أضواء صفر مموّجة، ومكسورة.. أضواء زائفة، وومضات متموّجة. وقد دارت في رأسي أشلاء أفكار. كيف أستبقي ميخائيل ساعة أخرى ولو (برهة).

«إني آتآمر ضدك يا حنه!».

قلت:

«إياك يا ميخائيل! من حفر حفرة وقع فيها».

«مؤامرة خطيرة أحيكها ضدك يا حنه!».

شفتاه المرتعشتان خانتاه للحظة.. بدا وكأنه طفل كبير حزين، طفل حلقوا له كل شعره.. أردت أن أشتري له قبعة.. حبذا لو استطعت لمسه. فجأة رفع ميخائيل يده.. توقفت سيارة أجرة محدثة جلبة خفيفة.

كنا معاً داخل السيارة الدافئة. ميخائيل قال للسائق أن يأخذنا إلى أي مكان يخطر بباله.

رمقني السائق بنظرة خبيثة.. مختلطة بسعادة بذيئة. أما لوحة العدادات أمام السائق فبثت في وجهه مباشرة أضواء حمراً خافتة كأن بشرته قد أزيلت وظهر اللحم الأحمر عارياً. وجه السائق كان ساخراً. لم أنس.

أمضينا على الطريق حوالى عشرين دقيقة، ولم ندر إلى أين.. بخار أنفاسنا غطّى الزجاج.. ميخائيل تحدث عن الجيولوجيا. في تكساس بأمريكا يحفرون الآبار لاستخراج المياه.. فتنفجر فجأة نافورة من النفط.

ربما تخفي الأرض في إسرائيل موارد بترولية ومما قاله ميخائيل: ليثوسفيراة[1].. أحجاراً رملية.. طبقة جيرية. وأضاف:

صخوراً متحولة، وصخوراً بركانية. وتجعّدات وبراكين أرضية. ولأول مرة انتابني ذلك التوتر الداخلي الذي يلازمني عندما يستخدم زوجي التعبيرات الغريبة.. هذه الكلمات تتعلّق بحقائق ذات معنى بالنسبة لي. لي فقط. وكأنها رسالة منقولة عن طريق الشيفرة. تحت الأرض تعمل قوى باطنية وأخرى خارجية معاكسة لها. الصخور الرسوبية الطرية في حالة تفتّت دائمة من جرّاء الضغط على سطح الكرة الأرضية. هذا السطح ليس إلا صخوراً صلبة، وتحت الغشاء تفور المواد الذائبة (السيروسفيرا) في عنف وهي النواة الملتهبة. لست متأكدة إذا كان ميخائيل قد تفوّه بهذه الكلمات أثناء رحلتنا في ذات ليلة من شتاء ١٩٥٠.. لكنني متأكدة إذا إن بعضها قد سمعته منه حينئذٍ للمرة الأولى.. وقتها أحسست بألم لم أدر له سبباً. كما لو كانت رسالة مشؤومة موجهة إليّ، وليس بمقدوري فك رموزها كأنها محاولة يائسة لتذكر كابوس يتلاشى تدريجياً من الذاكرة إلى عالم النسيان.

حين تلفّظ ميخائيل بهذه التعبيرات كان صوته عميقاً، ومتحفّظاً. أضواء العدّادات كانت تشع لوناً أحمر في الظلام.. ميخائيل كان يتحدث وعلى عاتقه عبء ثقيل.. كما لو أن للدقة في هذه اللحظة أهمية قصوى. لو أمسك بكف يدي، ووضعها في يديه لما منعت: لكن حبيبي حلّق بعيداً في نوع من الحماسة المكبوتة: حماسة هادئة جارفة: أخطأت أنه

(١) ليثوسفيراة: تعبير جيولوجي معناه العصر الذي تكونت فيه القشرة الأرضية واليابسة منذ ملايين السنين.

حر أن يكون قوياً جداً كما يشاء أقوى بكثير مني. تقبّلته. كلماته أحدثت في داخلي سكينة. تماماً مثل إحساسي بعد أن أفيق من إغفاءة الظهيرة. سكينة ممتدة حتى مطلع الفجر.. حين يستدير الزمن وأكون أنا رقيقة. والأشياء حولي رقيقة. مرّت سيارة الأجرة في شوارع مبلّلة.. لم نستطع تمييزها لأن الزجاج كان مكسواً من الداخل ببخار أنفاسنا. المسّاحتان داعبتا الواجهة الأمامية. كانتا تعملان في إيقاع ثابت.. طوع قانون صارم. بعد عشرين دقيقة قال ميخائيل: كفى.. لم يكن غنياً، وهذا المشوار كلّفه ثمن خمس وجبات غذاء في مطعم الطلبة الواقع بنهاية شارع مارنيلا.

خرجنا من التاكسي في مكان لم نعرفه من قبل، زقاق شديد الانحدار مرصوف ببلاط من حجر منحوت. بدت الأرضفة وكأن المطر قد ضربها بسياطه إذ إن المطر تجدّد عند ذلك.. برد شديد لفحنا بقسوة. أبطأنا خطواتنا. كنا مبتلين.. رأس ميخائيل غسلته المياه. أما وجهه فبدا مضحكاً كأنه وجه طفل يبكي، وذات مرة مدّ إصبعاً لطيفاً وأزال قطرة ماء علقت بطرف ذقني. فجأة وجدنا أنفسنا في الميدان المقابل لمبنى جنرالي. هذا المبنى كان فيه تمثال لأسد. أسد، له جناحان، مبتل بارد. رمقنا بنظرة من علّ. ميخائيل كان على استعداد أن يقسم بأغلظ الأيمان أن هذا الأسد يضحك له في همس. «ألا تسمعين يا حنه! إنه يضحك، إنه يراه ويضحك له». أحقاً كان ذلك!؟

قلت: «خسارة.. القدس مدينة صغيرة، وليس بالإمكان أن نضيع فيها».

ميخائيل رافقني طوال شارع ميلساندا.. وشارع الأنبياء.. ثم شتراوس

الذي يسمونه أيضاً شارع الصحة على اسم المصح الواقع فيه. لم نلق أي إنسان.. كما لو أن السكان قد غادروا المدينة، ونحن كلانا سيداها. حين كنت طفلة صغيرة كنت ألعب دور أميرة المدينة، وكان التوأمان يمثلان شخصية مواطنين مطيعين.. أحياناً كنت أحثهما على التمرّد، وبعد ذلك أخضعهما بيد من حديد. كانت تلك متعة رقيقة ناعمة. في ليالي الشتاء تبدو مباني القدس كأشباح رمادية تجمّدت على ستائر سود. مشهد عنف مقهور. لكن القدس مدينة مجرّدة، فيها الأحجار والصنوبر والحديد. قطط منتصبة الذيل كانت تمرّ في الشوارع الخالية. أما أسوار الزقاق فردّت إلينا صدى خطواتنا بعد أن زيفتها لتصبح مكتومة، وغير متقطعة. توقفنا أمام مدخل البيت الذي أعيش فيه حوالى خمس دقائق قلت:

«يا ميخائيل لا أدعوك إلى غرفتي، ولا أستطيع أن أقدم لك كوباً ساخناً من الشاي إذ إن أصحاب المنزل متديّنون. عندما استأجرت الغرفة تعهدت أمامهم بألا أدعو رجالاً إلى غرفتي، وها هي الحادية عشرة والنصف ليلاً».

عندما قلت رجالاً ضحكنا نحن الاثنين.

قال ميخائيل:

«لم أتوقع منك أن تَدْعِينِي إلى الدخول الآن إلى غرفتك».

قلت:

«يا ميخائيل غونين إنك زير نساء رقيق، وحلو الطباع، وإنني أشكرك على هذه الأمسية كلها، ولو دعوتني في يوم آخر لقضاء أمسية أخرى معك.. فلا أعتقد بأنني سأرفض. مال برأسه ناحيتي وبقوة شديدة

أطبق على يدي اليسرى بيده اليمنى.. ثم قبّلها. جاءت حركاته قوية، وكأنه كان يعد لها طوال الطريق وكأنه عدَّ هامساً إلى ثلاثة قبل أن ينحني ويقبّلني من خلال القفاز الجلدي الذي أعارني إياه عند خروجنا من المقهى، تغلغلت إلى بشرتي موجة قوية حارة.. هبت رياح رطبة سببت رعشة في قمم الشجر ثم توقفت تماماً كأمير في فيلم إنجليزي. قبّل ميخائيل كفّ يدي من خلال قفازه. لكن ميخائيل كان مبلّلاً، ولم يتذكر أن يبتسم كما أن القفاز لم يكن ناصع البياض. خلعت القفازين. وناولتهما إليه.. أسرع في ارتدائهما حتى لا يفقدان حرارة جسمي. سعل شخص مريض سعلة معكرة متواصلة من وراء ستار مسدل في الطابق الثاني.

«ما أغربك اليوم؟» ابتسمت كأنني أعرف أطواره في أيام أخرى. لا أزال أتذكر جيداً مرض الدفتيريا الذي أصابني عندما كنت طفلة في التاسعة. كان ذلك في الشتاء. رقدت في سريري أسابيع طويلة مقابل النافذة الجنوبية. عبر النافذة بدا أمامي فضاء بارد من السحاب، جنوب القدس بأطياف جبال بيت لحم، ووادي رفائيم والأحياء العربية الغنية في الوادي. كان عالماً شتوياً مليئاً بالخيوط، عالماً من الفراغ الذي تتراوح ألوانه بين الرمادي الفاتح والغامق، كان بإمكاني أن أرى القطارات أيضاً، وأن أتابعها بعيني إلى مسافة طويلة على امتداد وادي رفائيم ابتداء بالمحطة التي يغطيها الهباب حتى المنحنيات الواقعة أسفل قرية بيت صفافا العربية. كنت آمرة هذه القطارات وكان جنودي المخلصون قد سيطروا على قمم الجبال. كنت مثل قيصر في تنظيم سرّي. صلاحياته بقيت كما هي.. لم يؤثر عليها البعد والعزلة، وفي الأحلام تحوّلت أحياء القدس الجنوبية إلى جزر سان بيير، وميكلون،

تعرفت على هذه الجزر في ألبوم طوابع أخي عمانوئيل. أسماء هذه الجزر سلبت فؤادي. كانت لدي القدرة على نقل أحلامي إلى عالم اليقظة. ليلي ونهاري كانا عالماً متصلاً. ولم يخفف ذلك من حرارتي المرتفعة. كانت تلك أسابيع للمرض، أسابيع من الدوار المتعدّد الألوان. كنت ملكه. وقد تأرجحت الأمور في عرشي بين السيادة الباردة إلى التمرّد المشمس. عوامل بسيطة كانت تتآمر للإطاحة بي. لكن حفنة من المؤيدين لي وثقت بهم كانت تحيك في الخفاء خططاً لإنقاذي، وضعت ثقتي بهم.. تحمّلت المضايقة لأن النصر والفخار سيجيئان منها. السيادة المستعادة.

طبيبي الدكتور روزنتال تعوّد أن يقول إني أنني أتشبّث بأظافري بالمرض وأن هناك أطفالاً يحاولون الإبقاء على المرض ويرفضون الشفاء لأن المرض يجعلهم في حالة من الحرية في مفهوم ما وهذا مزاج مضطرب. عندما شفيت مع نهاية الشتاء ذقت طعم المنفى. تلاشت مني قدرتي على تحويل أحلام النوم إلى أحلام يقظة.. فقدت القدرة على جعل أحلامي تنقلني عبر الخط الفاصل بين المنام واليقظة. حتى هذه اللحظة أشعر بانهيار مع كل استيقاظ، لا زلت إلى الآن أسخر من نفسي على اشتياقي الغامض لأن أكون مريضة جداً.

بعد توديع ميخائيل صعدت إلى غرفتي أعددت شاياً ووقفت ربع ساعة أمام الموقد الكيروسيني.. ناشدة الدفء،.. دونما تفكير قشرت إحدى التفاحات التي بعث بها إليّ أخي عمانوئيل من مستوطنة نوف - هاريم. تذكرت كيف حاول ميخائيل ثلاث، أو أربع مرات أن يشعل غليونه.. دون جدوى. تكساس بلاد جميلة ساحرة. الإنسان يحفر في فناء

بيته حفرة ليغرس شجرة فاكهة، وفجأة يندفع من داخل الحجرة تيار من النفط.. لم أفكر بمثل هذه الأبعاد إطلاقاً.. في تلك العوالم التحتية الموجودة تحت كل بقعة أسير عليها. هناك المعادن وأحجار الكوارتز، وأحجار الدولوميت. إلى آخر هذه الأشياء. بعد ذلك كتبت خطاباً إلى أمي وعائلة أخي أخبرتهم جميعاً أنني بخير على أن أتذكّر في الصباح أن أشتري طابع بريد.

٤

في أدب عصر النهضة ـ التنوير اليهودي[١] ـ تتكرر أحياناً أوصاف حرب النور ضد الظلام.

---

(١) عصر التنوير العبري: والكلمة العبرية المرادفة لهذا هي الهسكلاة وهي تعني (التثقيف ـ التنوير) وتطلق على الحركة الثقافية والاجتماعية اليهودية التي ظهرت خلال القرن الثامن عشر وعرفت باسم «حركة التنوير اليهودية» وذلك بتأثير عصر التنوير الأوروبي وأفكاره، وهذه الحركة تميز بداية التاريخ الحديث لليهود في أوروبا وعلى الأخص في أوروبا الغربية.

وكانت الهسكلاة تسعى إلى تقريب جماهير اليهود من ثقافة الشعوب الأخرى وإخراجهم بقدر الإمكان من كمونهم وانغلاقهم حتى يصبحوا مواطنين شرفاء في أوطانهم، ومن أجل بلوغ هذه الغاية عمد المسكيليم ـ أتباع حركة الهسكلاة إلى:

١ ـ نشر الثقافة العامة بين اليهود عن طريق تعليم اللغة والأدب الخاصين بالشعوب التي يعيشون بينها.

٢ ـ تجديد الأدب العبري وصبغه بروح الثقافية الأوروبية.

٣ ـ حث اليهود على ممارسة المهن اليدوية ونبذ المهن التقليدية وكان رائد الهسكلاة في غرب أوروبا هو الفيلسوف الألماني اليهودي موسى لندلسون الذي قام بترجمة التوراة إلى الألمانية، وشق الطريق نحو تحطيم أسوار الغيتو اليهودي في غرب أوروبا، وحينما انتقلت الهسكلاة من غرب أوروبا إلى شرقها صادفت معارضة شديدة من اليهود المحافظين، ومن (الربانيين) زعماء الدين اليهودي، ومن (الحسيديم) وهي طائف دينية قامت في بولندا وروسيا بزعامة بعل شمطوف، إلا أن الهسكلاة تمكنت من شق الطريق أمام المجتمع اليهودي في شرق أوروبا واتخذت طابعاً عبرياً ساعد على إثارة العاطفة=

وكان الكاتب مهتماً بأن ينتصر النور على الظلام، لكنني أود أن أعترف بأنني كنت أحب الظلام. لأنه مليء بالحياة والدفء أكثر من النور.. خصوصاً في الصيف. الضوء الأبيض يضايق القدس.. يخجلها، يذريها، ولكن في قلبي لا صراع بين النور والظلام. تذكرت كيف انزلقت قدماي هذا الصباح على أدراج مبنى تيرا ـ سانتا. كانت لحظة مذلّة. أحد الأسباب التي تجعلني أحب النوم وأكره اتخاذ القرارات. في الأحلام تحدث أمور قاسية أحياناً.. لكن هناك قوة ما تقرّر بدلاً منك دائماً، وأنت حرة في أن تكوني زورقاً يبحر بقلاعه إلى حيث تختار الأحلام. حيث الملاحون نيام وكأنهم يعزفون لحن النوم السرمدي. وهناك أيضاً الأرجوحة الشبكية الرقيقة، وطيور النورس، وامتداد المياه اللانهائي بسطحه الأملس الناعم ذي العبير العليل. وهناك أيضاً الاضطراب العظيم في الأعماق. إنني أدرك أن العمق مكان بارد ولكن ليس دائماً وليس تماماً.

قرأت ذات مرة عن تيارات ساخنة وعن براكين تحت مائية. في نقطة معينة تحت أعماق المحيط المتجمدة قد يكون هناك كهف سري دافئ. عندما كنت طفلة أحببت أن أكرّر قراءة كتاب أخي ثمانين ألف فرسخ تحت سطح الماء لجول فيرن. ليال بطولها أقضيها في اكتشاف ممرات، وطرق سرية تحت المياه والظلام بين مخلوقات بحرية خضر رطبة إلى

=القومية عند اليهود، ومهد لقبول الفكرة الصهيونية بعد ذلك، وقد كانت نتائج الهسكلاة في التاريخ اليهودي الحديث بعيدة المدى: فمن ناحية شقت الطريق أمام الأدب العبري وحركة الإصلاح الديني وخاصة في غرب أوروبا، ومن ناحية أخرى أثارت اليهود ضد نظام الحياة اليهودية في الغيتو وخاصة في شرق أوروبا. [أنظر: د. رشاد الشامي، «لمحات من الأدب العبري الحديث»، القاهرة، مكتبة جامعة عين شمس، ١٩٧٨، ص٤٧ ـ ٤٨].

أن أقرع باب الكهف الدافئ، وأدق عليه. حيث هناك المكان كله لي. وحيث هناك أيضاً قبطان غامض ينتظرني. تحيط به الكتب والغلايين والخرائط. لحيته سوداء. وعيناه مليئتان بالبرق. الجائع. يمسك بها كهمجي وأنا أعمل على تهدئة غضبه وهياجه وهناك أسماك صغيرة تعوم في داخلنا كما لو كنا مياهاً ويعبورها خلالي تمنحني ومضات دقيقة من سعادة لاسعة.

قرأت فصلين لمابو[1] من كتابه «محبة صهيون» تحضيراً لورقة الغد. لو كنت تامارا[2] (بطلة الرواية) لجعلت أمنون يركع أمامي على ركبتيه سبع ليال بطولها. بعد أن يهمس في أذني عن لوعته في عشقه لي بلغة توراتية أصيلة. كنت سآمره أن يبحر بي على ظهر سفينة شراعية إلى جزر أرخبيل إلى مكان ناءٍ قصيّ.. يتحوّل فيه حمر البشرة إلى مخلوقات

---

(١) إبراهام مابو (١٨٠٨ ـ ١٨٦٧): من مؤسسي الرواية العبرية الحديثة، وأحد أعمدة حركة الهسكلاة ـ التنوير اليهودي ـ في شرق أوروبا. أشهر أعماله الروائية كتاب «محبة صهيون» الذي كتبه في عام ١٨٥٣، وهو يمثل نقطة تحول في تطوّر الأدب العبري الحديث. كان يتقن اللغة: اللاتينية والفرنسية والألمانية والروسية. ولد مابو في أحد أحياء مدينة كوفنو الروسية الفقيرة، اعتمد على نفسه في الدراسة منذ أن كان عمره ١٢ عاماً. عاش حياته فقيراً حيث عمل في معظمها مدرساً في المدارس اليهودية لكن بعد وفاة زوجته عام ١٨٤٦ انتقل إلى مدينة فيلنا ومنها إلى مدن روسية أخرى حتى ذاع صيته وأصبح في رغد من العيش.

(٢) تامار: اسم لشخصيات ثلاث وردت في التوراة. الأولى زوجة الابن البكر يهودا وبعد أن مات هذا الابن دخل بها الأب عن طريق الخطأ وداود يأتي من نسلها. الثانية: ابنة داود وأمنون هو الذي أحبها رغم أنها أخته غير شقيقته، وأخذ يطاردها. إلا أن أخاها الشقيق أبشالوم قتل أمنون انتقاماً لشقيقته. الثالثة: تامار ابنة أبشالوم وكانت مشهورة بجمالها وتزوجت من رحبعام بن سليمان.

بحرية تلمع بنقاط فضية وشرارات كهربائية. وطيور النورس تطير في فراغ أزرق، أحياناً أخرى أرى في أحلامي الليلية سهول روسيا. سهول متجمّدة تغطيها قشرة من الصقيع الضارب إلى الزرقة.. وتنعكس على القشرة ومضات خاطفة منبعثة من قمر متوحش. وهناك مزلاج وبساط من فروة الدب القطبي. يركب فوق المزلاج شخص أسمر لا يبدو منه سوى ظهره الغمق. وسباق خيل مسرعة. وفي الظلام تلمع عيون ذئاب كثيرة، وهناك شجرة جفّت وصارت وحيدة منعزلة على المنحدر الجليدي الأبيض، والليل بداخله ليل. ظلمات بعضها فوق بعض تملأ الصحراء، أما الكواكب فتراقب عن كثب. فجأة يلتفت السائق إلى اتجاهي.. فأرى وجهاً غليظاً. كأنه منحوت بيد نحات مخمور. كتل جليدية متعلّقة بطرفي شاربه الكثيف. فمه مفتوح إلاّ قليلاً. كأن عصف الرياح القارصة ينبعث من فمه.. ليس صدفة أن الشجرة الميتة اليتيمة على منحدر الصحراء تقف هناك إذ لها مهمة عندما أستيقظ لا أستطيع أن أتذكرها. لكن عندما أستيقظ أتذكر أنها تؤدي وظيفة ما وهكذا أعود من أحلامي بيدين غير خاويتين تماماً.

في الصباح نزلت لشراء طابع البريد، وأرسلت الخطاب إلى نوف ـ هاريم[١]. تناولت رغيفاً مع كوب لبن الزبادي.. ثم شربت قدحاً من الشاي، جاءت إلى غرفتي السيدة ترنو فولر صاحبة البيت.. طالبة مني أن أشتري لها صفيحة من الكيروسين في طريق عودتي للبيت. وبينما كنت أشرب الشاي، استطعت أن أقرأ فصلاً آخر من كتاب «مابو».

---

(١) نوف ـ هاريم: مستوطنة في شمال إسرائيل ومعناها في اللغة العبرية منظر الجبال.

في روضة أطفال سارة زلدين قالت لي إحدى الفتيات:

«وجهك يبدو مشرقاً اليوم يا حنه.. كوجه طفلة».

كنت أرتدي الفستان الصوفي الأزرق ولففت إيشارباً حريرياً أحمر حول رقبتي.. عندما رأيت نفسي في المرآة انتابني إحساس بالسعادة لأنني في هذا الإيشارب ظهرت كفتاة جريئة متهورة.. بإمكانها أن تفقد اتزانها فجأة.

في الظهر انتظرني ميخائيل عند مدخل بناية تيرا ـ سانتا.. بجانب البوابات الحديد الضخمة ذات الزخارف المعدنية السود، كان يحمل بين يديه صندوقاً مليئاً بالعينات الجيولوجية.. حتى لو كان قد خطر لي مثلاً أن أصافحه لما استطعت، قالت:

«هذا أنت يا ميخائيل؟ من قال لك أن تنتظرني هنا..؟

من حدّد لك موعداً هنا؟».

قال ميخائيل:

«الطقس ليس مطيراً الآن، وأنت لست مبتلة. عندما تكونين مبتلة تفقدين جزءاً من شجاعتك». بعد ذلك لفت ميخائيل انتباهي إلى الابتسامة المراوغة المتألقة على وجه تمثال البتول البرونزي والمنتصب على قمة البناية. ذراعا البتول امتدتا كأنهما تحاولان احتضان المدينة كلها. نزلت إلى قبو المكتبة، وفي ردهة ضيقة معتمة.. بين صناديق غامقة، ومختومة صادفت أمين المكتبة.

كان رجلاً قصيراً طيب القلب. يعتمر قبعة. تعوّدت أن أبادله التحية وبعض النكات اللغوية، وهو يسألني وكأنه يحقّق كشفاً علمياً:

«ما الذي حدث اليوم يا سيدتي؟ بشرى سعيدة.. السعادة مشرقة على وجه الآنسة حنه، كأن السحر قد دان لها».

وفي المحاضرة عن مابو حكى البروفيسور نادرة ساخرة حول فئة من المتديّنين والذين زعموا أنه منذ أن نشر أبراهام مابو كتابه «محبة صهيون» زاد عدد المقاهي في بيوت الدعارة، رحمتك يا إلهي! ماذا حدث اليوم لكل الناس؟ هل عادوا يتحدّثون مع بعضهم؟!

هل تواصلوا في ما بينهم لإبداء هذا اللطف معي.. السيدة ترنو فولر صاحبة البيت الذي أقطنه اشترت موقداً جديداً وابتسمت في وجهي.

٥

في المساء صفت السماء قليلاً، وانكشفت قطع زرق في الأفق الشرقي. الهواء كان مشبعاً بالرطوبة. اتفقت مع ميخائيل على اللقاء بجانب دار سينما أديسون على أن يشتري السابق منا تذكرتين لفيلم من بطولة غريتا غاربو.. بطلة الفيلم تموت من جراء حب لا أمل فيه. بعد أن ضحّت بنفسها وجسدها من أجل رجل قاس. وأثناء عرض الفيلم كتمت في داخلي ضحكة جارفة. المعاناة، والقسوة، كانتا في نظري كرمزين حسابيين لمعادلة بسيطة.. معادلة لم أكن متلهفة إلى حلّها. لم أصل إلى درجة الاستخفاف إذ شعرت بأن ما بي يكفيني، ولهذا أسندت رأسي إلى كتف ميخائيل ونظرت إلى الشاشة من زاوية مائلة. حتى تحولت الصور إلى تيار متتابع من الألوان السود، والبيض.. خصوصاً بدرجات متفاوتة من الرمادي الفاتح. عندما خرجنا قال ميخائيل:

«تتفجّر العواطف، وتتحوّل إلى ورم خبيث عندما تشبع حاجات الإنسان ولا يوجد ما يفعله».

قلت: «هذا سخف».

ميخائيل قال:

«اسمعي يا حنه! الفن ليس مجال تخصصي. أنا رجل تقني كما يقولون».

لم أتراجع:

«وهذا سخف أيضاً».

ابتسم ميخائيل:

«وماذا بعد؟».

عندما لا يجد الإجابة يلجأ إلى ابتسامة تشبه ابتسامة طفل صغير لاحظ في تصرفات الكبار عملاً صبيانياً.. ابتسامة خجولة، ومخجلة.

هبطنا في منعطف شارع أشعياء في اتجاه شارع جيئولا. في سماء القدس بدت النجوم ساطعة. أثناء حرب عام ١٩٤٨ حطّم القصف الكثير من مصابيح إنارة الشوارع. وفي عام ١٩٥٠ كان الكثير من هذه المصابيح لا يزال محطماً. في الأفق خلف الأزقة الضيقة كان بإمكاننا أن نرى ظل الجبال.

قلت:

«هذه القدس أوهام، وليست مدينة»، وأضفت:

«من كل صوب تتقدّم الجبال إلى الأمام: القسطل. جبل المشاهد (سكوبي) أوغوستا ـ فيكتوريا، النبي صمويل، ميس كيري. وفجأة ينكشف وهن المدينة».

قال ميخائيل:

«القدس بعد المطر تبعث على الكآبة، ومتى كانت غير ذلك؟ ولكنها كآبة مختلفة في كل ساعة، وفي كل موسم».

ذراع ميخائيل ضمت كتفي في حين وضعت كلتا يدي في جيبي بنطلوني القطيفة الأحمر. مرة أخرجت إحدى يدي لكي ألمسه عند ذقنه. قلت له إن حلاقته ناعمة اليوم، على خلاف المرة الأولى التي تقابلنا فيها ببناية تيرا ـ سانتا، ومن المؤكد أنه فعل ذلك لكي يروق في عينيّ. انتابه خجل، كذب حين قال اليوم إنه اشترى موسىً جديداً للحلاقة. ضحكت.. تردّد.. ثم اختار أن يشاركني ضحكي. في شارع جيئولا رأينا امرأة متديّنة تلف رأسها بمنديل أبيض. كانت تفتح نافذة في الطابق الثالث، وقد تدلّى نصف جسدها العلوي. كأنها تنوي إلقاء نفسها إلى الشارع. إلا أنها كانت تغلق الظلف الخارجية المصنوعة من الحديد الثقيل. مفصلات النافذة أحدثت صريراً عالياً كأنها تئن من الألم.

أثناء مرورنا أمام فناء روضة أطفال سارة زلدين أخبرت ميخائيل أنني أعمل هنا.. هل أنا مربية أطفال حازمة؟ إنه يخمن أنني مربية حازمة، بل قاسية. من أين جاءه هذا التصوّر.. لا يعرف الإجابة.. يا له من طفل.. قلت ذلك وأضفت بأنه يبدأ جملة ولا يعرف كيف ينهيها.. يعرب عن رأي ثم لا يستطيع الدفاع عنه. إنه طفل.

ابتسم ميخائيل من فناء خلفي على ناصية شارع ملاحي تعالى هواء القطط.. كان مواءً عالياً وهستيرياً بعدها سمعنا تأوهتين مخنوقتين، وأخيراً بكاءً مريراً.. بكاء خافتاً مستسلماً.. كأنه بلا مذاق، وبلا قلب.. مجرد دموع مذروفة.

قال ميخائيل:

«إن القطط تموء.من الحب.. هل تدرين يا حنه أن القطط تحنّ للتزاوج أيام البرد بالذات، وفي أشدّها برداً. بعد أن أتزوج سأربي في

بيتي قطة، دائماً كنت أريد أن أربي قطة.. إلا أن أبي لم يسمح.. كنت ابناً وحيداً. القطط تبكي حين تحب. لأنها ليست حبيسة عاداتها.. إنني أتصور أن القطة في فترة هياجها الجنسي تكون أهلاً للشعور بأن يداً غريبة تقبض على خناقها، وتضغط عليها.. إنه ألم جسدي فظيع. لا لم أتعلم هذا في الجيولوجيا.. ظننت أنك ستجعلين من هذه الأمور مادة للسخرية.. لنذهب».

قلت:

«لقد كنت طفلاً مدللاً جداً في طفولتك!».

أجاب ميخائيل:

«كنت ولا أزال أمل العائلة.. والدي وأخواته الأربعة لا يزالون يراهنون عليّ كأنني حصانهم في السباق، وكأن الدراسة الجامعية هي طريق سباق في ميدان، وماذا تفعلين صباحاً في روضة الأطفال؟».

أجابت حنه:

«يا له من سؤال غريب.. أفعل ما تفعله أي مربية أطفال في العالم. الآن منذ شهر في عيد المشاعل (الحنوكاه)[1] ألصقت دواليب (إطارات)

---

(١) الحنوكاه: عيد المشاعل أو عيد التدشين ـ وهو عيد له طبيعة سياسية وتاريخية، وموعده في الخامس والعشرين من شهر كسلو في التقويم اليهودي الذي يوافق شهر ديسمبر/ كانون الاول أي فترة أعياد الميلاد في الدين المسيحي. ومناسبة هذا العيد ترجع إلى سنة ١٦٥ ق.م. إذ كانت فلسطين وسائر بلاد الشام تحت الحكم اليوناني كما كانت مصر أيضاً، وكان المتصرف في الأقطار الشامية هو أنتيوخوس أيفانس الذي حاول إرغام اليهود الواقعين تحت حكمه على ترك دينهم والدخول في الوثنية الرومانية، ولكن الحاخام الأكبر متاتيا أعلن المقاومة وعاونه في ذلك أحد أبنائه واسمه يهوذا المكابي حيث تمكنا من=

من الورق وقصصت تماثيل للمكابيين[1] من الكرتون. أحياناً ألعب على

=انتزاع المعبد اليهودي من الجيوش اليونانية التي وجهها أنتيوخوس أبيفانس. وفي ٢٥ كسلو من هذه السنة أخرجت التماثيل اليونانية من الهيكل وزوده متانيا وابنه يهوذا المكابي بمذبح طاهر جديد، وأعيد فتحه للشعائر اليهودية، وهذا هو السر في تسمية هذا العيد بعيد التدشين، والطابع المميز للاحتفال بهذا العيد هو إشعال الشموع الكثيرة والأنوار المختلفة لمدة أسبوع كامل، كذلك تدخل في العبادة قصائد وأناشيد كثيرة كلها إشادة بالأعمال التي تمت في هذه الفترة. [د. حسن ظاظا، «الفكر الديني الإسرائيلي»، ص٢٠٥، ٢٠٦].

(١) المكابيون: لفظ المكابيين ليست من السهولة في شرحها واشتقاقها.. فقد اختلف في اللفظة العبرية المفردة التي تقابلها.. حيث ذهب بعض الباحثين إلى أن أصلها مقبى ومعناها المطرقة، وقد لقب بها يهوذا المكابي ـ الذي تمكن من تحرير المعبد اليهودي من قبضة الوثنيين اليونانيين كما رأينا في شرح عيد الحنوكاة، وذلك نتيجة للضربات الساحقة التي ألحقها بأعداء قومه اليهود وإلى جانب هذا الرأي يرى آخرون أن الأصل العبري هو مكبي وأنها اختصار للحروف الأولى لآية جاءت في نشيد انتصار موسى على فرعون تقول: «من كمثلك بالآلهة يا رب» (خروج ١٥/ ١١). وأن يهوذا كان قد اتخذ هذه الآية شعاراً له ونقش حروفها الأولى (م. ك. ب. ي) شعاراً له على خاتمه، انتسبت إليه امرأة الحشانوئيل وأصبحوا يسمون المكابيين، وفي النصوص المقدسة اليهودية هناك سفران يطلق عليهما سفر المكابيين، وفي هذا الصدد تقدم الترجمة العربية الكاثوليكية للكتاب المقدس بمقدمة للمكابيين تقول فيها:

لم يتوقف تاريخ الشعب اليهودي بعد الحكم الفارسي، بل تابع مجراه تحت سيطرة الإغريق في ظل السلالات المنبثقة من فتوحات الإسكندر.. ففي البدء كانت فلسطين، وبما فيها إسرائيل تحت حكم البطالمة المالكين في مصر، ثم انتقلت إلى حكم أكثر تعسفاً وهو حكم السلوقيين المالكين في سوريا. ولم تنقل التوراة العبرية شيئاً من أحداث هذه الأزمنة. إلا أن التوراة اليونانية ويتبعها في ذلك سائر التورات المستعملة عند المسيحيين قد قبلت كتابين يتميان إلى عهد السلوقيين إلى فترة مشؤومة على اليهودية، وقد سميا سفري المكابيين. وسفر المكابيين الأول تبدأ روايته بالإسكندر الأكبر حتى تبلغ سريعاً إلى الملك السلوقي أنتيوخوس أبيفانس الذي دمر الهيكل وأجبر الإسرائيليين على أن يقدموا الذبائح والقرابين للأوثان. حينئذ تألفت نواة مقاومة حول متياس الكاهن في مودين تحت رئاسة أولاد الكاهن وأولهم يهوذا المكابي الذي قاتل حتى دخل أورشليم فأصلح الهيكل. أما=

البيانو، وغالباً أروي للأطفال حكايات من الذاكرة عن الهنود والجزر والرحلات والغواصات. حين كنت طفلة استغرقتني تماماً كتب جول فيرن وفينمور كوبر اللذين كانا لأخي عمانوئيل. اعتقدت بأنني لو تسلقت الرفوف، وقرأت كتب الصبيان فإن علامات الذكورة ستظهر في جسمي، ولن أصير فتاة عندما أكبر. إهانة أن أكون فتاة. النساء الطاعنات في السن يثرن القرف ولا زلت أشتاق للقاء رجل مثل ميخائيل ستروغوف.. رجل ضخم وقوي لكنه هادئ ورزين وكان عليه أن يكون هادئاً وأميناً ومتحفظاً.. يتحكم بقوة في فيض طاقته الداخلية. لماذا تسأل عن نفسك. لا أنا أقارن بينك وبين مخائيل ستروغوف.. لماذا أقارنك به..؟ لا..».

قال ميخائيل:

«لو كنا التقينا في طفولتنا فمن المؤكد أنك كنت ستضربينني.. في أيام دراستي الأولى اعتادت الفتيات القويات أن تطرحني أرضاً، كنت من ذلك النوع الذي يطلقون عليه ولداً طيباً وخاملاً، لكنْ مثابر في العمل أما الآن فلست بارد المشاعر».

حكيت لميخائيل عن التوأمين. كنت أصارعهما بصرير الأسنان.. بعد ذلك وأنا في الثانية عشرة من عمري وقعت في حبهما معاً. أعطيتهما اسم خلزيز اختصاراً لاسميهما خليل وعزيز. كانا ولدين جميلين. ملاحين مطيعين قويين في سفينة الكابتن نيمو، وكلما تحدثنا

=سفر المكابيين الثاني فهو مميز عن الأول ويبدو أن هدفه ـ الجزئي على الأقل ـ هو دعوة الشعب اليهودي حتى في الهجرة ليقيموا عيد التدشين أو «الحانوكا» وهو التذكار السنوي لإعادة الهيكل إلى العبادة على يد يهوذا المكابي. [د. حسن ظاظا، المصدر السابق].

كانا إما صامتين أو يصدران أصواتاً حلقية. لم يحبا الكلمات. ذئبان رماديان بنيان.. مرنان ذو أسنان بيض، همجيان غامقا اللون. قرصانان بحريان وماذا تعرف أنت يا ميخائيل الصغير؟!

بعد ذلك حكى لي ميخائيل عن أمه، ماتت وهو بعد في الثالثة من عمره. وما زال يتذكر يداً بيضاء.. أما الوجه فلا يتذكر. أما الصور فقليلة، وهي ذات نوعية متواضعة. أبوه ربّاه.. حرص على تربيته كطفل يهودي اشتراكي. قصص كثيرة حول أطفال الحشمانوئيم. أطفال القرى. المهاجرين غير الشرعيين أطفال الكيبوتسيم. أساطير حول الأطفال الجوعى في الهند، وحول أطفال ثورة أكتوبر في روسيا، وقصة القلب «لداميتس». أطفال جرحى لكنهم ينقذون المدينة. أطفال يتقاسمون آخر كسرة خبز في ما بينهم. أطفال يشتغلون، يصارعون الحياة.

«ومن الناحية الأخرى هناك عماتي الأربع، شقيقات أبي: على الطفل أن يكون نظيفاً مجتهداً. يذاكر دروسه بجد. ويتقدّم في الحياة طبيباً شاباً يساعد أمّته، وأيضاً يحظى باحترام بالغ من الجميع. محامياً شاباً يقف ليدافع بصلابة أمام الحكّام البريطانيين وتنشر عنه الصحف كلها. في يوم إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل، غَيَّرَ أبي اسم عائلتنا من جانيتس إلى غونين[١]. اسمي الأصلي ميخائيل جانيتس، وما زال أصدقائي في حولون ينادونني جانيتس. لكن أنت يا حنه لا تناديني باسم جانيتس. استمري في مناداتي بميخائيل».

---

(١) غونين: معناه باللغة العبرية الحامي، أو المدافع، ويروي بعض النقاد أن لهذا الاسم مغزى خاص في الرواية حيث إنه يربط بين مخائيل وبين جيل الصابرا في إسرائيل الذي وقع على عاتقه الدفاع عن بلد هاجر إليها آباؤه.

في طريقنا عبرنا أسوار الثكنة العسكرية «شنيلر». قبل سنين عديدة كان هذا المكان ملجأ سورياً للأيتام. إن اسم الملجأ أثار لديَّ ضيقاً قديماً لم أستطع تخمين سببه. جرس بعيد أخذ يرن في الاتجاه الشرقي. لم أرد أن أحصي عدد رناته وكان أحدنا يضم الآخر. يدي كانت متجمدة ويد ميخائيل دافئة. أطلق نكتة قائلاً:

«يدان باردتان.. قلب دافئ. ويدان باردتان... قلب بارد».

قلت: «يدا أبي كانتا دافئتين، وقلبه أيضاً. امتلك أبي حانوتاً صغيراً لبيع وتصليح الأدوات الكهربائية والراديو.. لكنه كان تاجراً سيئاً. لا أزال أتذكره واقفاً يغسل الأواني واضعاً مئزر أمي حول وسطه. ينفض الغبار بمنشفة، وينفض غطاء الأسِرَّة. خبير في قلي البيض. يتلو صلواته وهو شارد الذهن، وهو يضيء شموع الحانوكا. يفكر دائماً في كل رأي يقال له، أو عنه. ويحاول إرضاء الآخرين كأن أبي ينتظر حكم الآخرين، وهو يائس عليه أن ينجح دائماً في امتحان لا نهائي، كان أبي دائماً مذنباً يحاول التكفير عن خطيئة منسية».

قال ميخائيل:

«على الرجل الذي تتزوجي منه أن يكون قوياً جداً يا حنه».

أمطار خفيفة بدأت تتساقط، وكان السحاب رمادياً كثيفاً، وقد ظهرت المباني وكأنها فقدت وزنها. في حي ماكور ـ باروخ مرّت بنا دراجة نارية مسرعة مبعثرة قطرات المياه في كل اتجاه. كان ميخائيل مستغرقاً في تفكيره. أمام المنزل الذي أقطنه وقفت على أطراف أصابعي حتى أتمكن من تقبيله على خده. أسرع ومسح جبهتي المبللة، وجففها بكف يده الدافئة. وقد لمست شفتاه بشرتي لمسة مضطربة ثم قال:

«مقدسية باردة وجميلة»، أخبرته أنني معجبة به.. لو كنت زوجته كنت سأسمح له أن يبقى نحيلاً إلى هذا الحد. بدا ضعيفاً في الظلام. ضحك ميخائيل. لو كنت زوجته ـ أضفت ـ كنت سأعلمه كيف يجيب عندما يتحدثون إليه ولا يبتسم ثم يعود ويبتسم.. كان العالم قد خلا من الكلمات. ميخائيل بلع ريقه. أخذ يحملق في درابزين السلالم المتساقطة ثم قال:

«حنه أريد أن أتزوجك (من فضلك) لا تجيبيني الآن».

قطرات مطر متجمّدة بدأت تتساقط مرة أخرى. غمرتني السعادة للحظة. تذكرة أنني لا أعرف بعد كم عمر ميخائيل حقاً. أرتجف الآن بسببه، صحيح أنه محظور عليّ أن أدعوه إلى غرفتي لكن لماذا لم يقترح أن نذهب إلى غرفته؟ لقد حاول ميخائيل مرتين أن يقول شيئاً ما بعد خروجنا من السينما وأنا قاطعته قائلة:

«هذا سخف» ماذا كان يريد أن يقول.. لا أتذكر. من الطبيعي أن أسمح له بتربية قطة في البيت، إنه يجعلني أشعر براحة وبسلام داخلي. لماذا يجب أن يكون الرجل الذي أتزوجه قوياً جداً.

سافرنا معاً بعد أسبوع لزيارة مستوطنة طيرات ـ ياعر، الواقعة في جبال القدس. في طيرات ـ ياعر كانت لميخائيل زميلة من أيام المدرسة. كانت زميلته في الدراسة ثم تزوجت من أحد أبناء المستوطنة. ألحّ ميخائيل أن أذهب معه، وأن يقدّمني لزميلته. كان أمراً مهماً بالنسبة له. صديقة ميخائيل كانت امرأة نحيفة طويلة ولاذعة. أشبه ما تكون برجل مثقف، بشعرها الأشيب وفمها المضموم بقوة. جلس طفلان صعب تحديد عمريهما في إحدى زوايا الغرفة. شيء ما في وجهي أو بملابسي

أثار لديهما تحريضاً مستمراً لضحك مكتوم. كنت مرتبكة. تحدث ميخائيل على مدى ساعتين في سرور عظيم مع صديقته وزوجها. أصبحت منسية تماماً بعد ثلاث أو أربع جمل مجاملة. قدّما لي شاياً «فاتراً» مع قطع من البسكويت الجاف. لمدة ساعتين جلست عابسة مقطّبة الجبين أفتح وأغلق إبزيم حقيبة ميخائيل، لماذا جاء بي إلى هنا؟ ما الذي أغراني إلى أن أرافقه؟ أي رجل هذا الذي قابلته أنا العاقلة. شاب مخلص مجتهد.. مسؤول، أمين ونظيف. كم هو مقفر، ونكاته الحزينة، ليس نمروداً. من الأفضل ألا يحاول التنكيت بلا انقطاع. لقد بذل قصارى جهده لكي يثبت أنه لمّاح حاد الذكاء، مرح وبهيج. في هذه الجلسة تبادلوا ذكريات مملّة عن مدرّسين مملّين. المغامرات النسائية لأحد مدرّسيهم في دروس الألعاب الرياضية ـ وكان اسمه يحيعام بيلد جعلت ميخائيل وصديقته ينفجران في موجة عارمة من ضحك أهوج.

بعد ذلك دار نقاش صاخب حول اللقاء بين عبد الله ملك (شرقي) الأردن، وغولدا مائير إبان الحرب. ضرب زوج صديقة ميخائيل بيده على الطاولة كما رفع ميخائيل صوته أيضاً. عندما صرخ كان صوته مرتجفاً رقيقاً.. حتى الآن لم أره في صحبة أناس آخرين، أخطأت في حكمي عليه.

بعد ذلك مشينا في اتجاه الطريق الرئيسي. مشينا في ممر ملتوٍ تحفه أشجار السرو على الجانبين.. يربط بين طيرات ـ ياعر والطريق إلى القدس. ريح عاصفة لفحت جسمي.

تحت أضواء المغيب الباهتة بدت جبال القدس وكأنها تضمر شراً.

سار ميخائيل على جانبي الأيسر وهو صامت تماماً لم يفه حتى بكلمة واحدة، غريباً كان وغريبة، إنني أتذكر هذه اللحظة الغريبة.. وأي شعور مرير ينتابني! لم أكن يقظة، ولم أكن أعيش في الحاضر. هذا كله حدث لي ذات مرة. أو شخص ما منذ سنين قد حذّرني بعنف من السير في الظلام في مثل هذا الطريق الحالك مع شخص شرير. الزمن توقف.. لم يعد متدفّقاً خافقاً، ومتوازياً. تحوّل إلى عدد من التيارات المتشنجة. أحدث ذلك في طفولتي أم إنه حلم أم إحدى قصص الرعب؟ ذهلت من الرجل الباهت المعالم الذي يسير إلى يساري ولا ينبس ببنت شفة. كانت ياقة معطفه مرفوعة حتى ذقنه. كان جسمه نحيلاً كخيال. قبعة طالبية من جلد أسود غطت معظم معالم وجهه. من هذا؟ ماذا تعرفين عنه؟ ليس أخاك، وليس قريبك، وليس من أصدقاء طفولتك. بل هو ظل غريب في مكان ناء عن العمران.. في ساعة حالكة الظلام ومتأخرة. ربما ينوي الانقضاض. ربما هو مريض. لم أسمع عنه شيئاً من أي شخص موثوق به. لماذا لا يتحدث إليّ؟ لماذا يبدو مستغرقاً في تفكيره من دوني؟ لماذا أحضرني إلى هنا؟ أي خطة رتبها في نفسه؟ في الليل. خارج المدينة بمفردي. بَمفرده. ربما كان كل ما حكاه مجرد كذب معتما.. إنه ليس طالباً واسمه ليس ميخائيل غونين. هارب من مؤسسة مغلقة. خطير جداً. هل حدث لي كل ذلك سابقاً؟ شخص ما قال لي منذ زمن بعيد إنه بالضبط هكذا تحدث الكارثة، وما هي تلك الأصوات المتواصلة القادمة من الحقل الغارق في الظلام.. حتى نور النجوم لا يبدو من خلال الستارة الكثيفة من أشجار السرو المتشابكة. من المؤكد أن البستان غير خال من البشر. لو صرخت، وصرخت من سيسمعني؟ هذا الغريب بجانبي يفرد خطواته الغليظة، ولا يشعر حتى بوقع

خطواتي.. تعمدت أن أتراجع أتباطأ إلى الخلف قليلاً وهو لم يلاحظ. اصطكت أسناني من الخوف، والبرد.

لأن رياح الشتاء العاتية ولولت، وهجمت. هذا الشبح المقفل على نفسه لا ينتمي لي. بل إنه بعيد منغمس داخل ذاته.

كما لو كنت مجرد فكرة في داخله ولست واقعاً يا ميخائيل إنني واقع.. أشعر ببرد. لم يسمع. ربما صوتي لم يكن مسموعاً. صرخت بأعلى صوتي:

«أشعر ببرد ولا أستطيع الركض بهذه السرعة».

تماماً كرجل قطعوا له حبل أفكاره.. قال ميخائيل غاضباً:

«بعد قليل.. بعد قليل سنصل المحطة صبراً».

قال ذلك ثم انغلق على نفسه مرة أخرى داخل معطفه الضخم، وغاب. جفّ حلقي، واغرورقت عيناي بالدموع. شعرت بانزعاج وذلّ. أصابني الهلع. أردت كفّ يده. فقط كفّ يده هي التي أعرفها أما هو فأنا لا أعرفه. إطلاقاً.

الريح الباردة تحدثت مع أشجار السرو بلغة واضحة وعدائية. لا وجود للسعادة في العالم لا في أشجار السرو، ولا في الطريق الملتوي، ولا في الجبال المعتمة حولنا.

«ميخائيل»، حاولت يائسة. «ميخائيل قلت لي الأسبوع الماضي إن كلمة كاحل تعجبك. قل لي من فضلك! هل تعلم أن حذائي مليء بالمياه الآن، وكاحليّ يؤلماني كما لو كنت أسير حافية فوق حقل من الأشواك؟ قل لي الآن من هو المذنب تجاهي؟ استدار ميخائيل فجأة بحركة حادة مخيفة. في وسط الظلام الحالك حملق فيّ بعينين مرتبكتين

حائرتين.. ثم اقترب بخديه المبلّلين من وجهي وشفتيه الدافئتين ألصقهما بعنقي.. كأنه طفل يرضع، وارتعد. كان وجهه بارداً، ومبتلاً.. ذقنه غير محلوقة هذه المرة أيضاً. كل بشرتي أحسّت بكل شعرة في ذقنه. راق لي ملمس نسيج معطفه الخشن.. كان النسيج تياراً متدفقاً من الدفء، والهدوء. فتح أزرار المعطف وسحبني إلى الداخل. أصبحنا كالجسد الواحد. تنفّست رائحته حينئذٍ أدركت أنه حقيقة وأنا لست مجرد فكرة في ذهنه، وهو لم يعد مصدر هلعي. كنا حقيقة واقعة.

استوعبت ذهوله المكبوت. استمتعت به. «أنت لي» همست. «لا تبتعد أبداً» همست. لمست شفتاي جبهته وأصابعه عرفت طريقها إلى مؤخر عنقي. لمساته هناك كانت ذكية، وحذرة.. كلانا ارتعد. تذكرت فجأة كيف كانت الملعقة بين أصابعه في كافتيريا تيراه ـ سانتا وكأنها تستمتع بلمستها. لو كان ميخائيل رجلاً شريراً لكانت أصابعه أيضاً شريرة.

٦

قبل الزفاف بحوالى أسبوعين سافرت مع ميخائيل للتعرّف إلى والده وعماته في حولون، وإلى أمي، وعائلة أخي في مستوطنة نوف ـ هاريم.

كانت شقة والد ميخائيل ضيقة ومعتمة. عبارة عن غرفتين في مساكن العمال. أثناء زيارتنا مساء انقطعت الكهرباء عن حولون. يحزقائيل غونين قدم نفسه لي على ضوء لمبة كاز قاتمة يعلو زجاجها السخام. كان مصاباً بالزكام.. لم يرد تقبيلي حتى لا ينقل العدوى قبل زفافي. ارتدى روباً بيتياً بنياً ووجهه كان شاحباً. قال إنه يودعني أمانة غالية ألا وهي ميخائيل. ثم علا وجهه الخجل، وهو يندم على هذه الكلمات.. حاول تمريرها كنكتة عابرة. بقلق مشوب بالخجل أحصى العجوز أمامي أسماء كل الأمراض التي أصابت ميخائيل في طفولته وركّز بصفة خاصة على التهاب حلق كاد يودي بحياة ميخائيل وهو في العاشرة من عمره. أخيراً أكد أنه منذ الرابعة عشرة من عمره لم يصب ميخائيل بأي مرض. رغم كل هذا فإن ميخائيل شاب سليم الجسم معافى تماماً. يتمتع بصحة جيدة، ولو أنه ليس من الأقوياء.

تذكرت أن المرحوم أبي عندما كان يبيع جهاز راديو مستعملاً كان يستخدم عبارات شبيهة في حديثه مع الزبون. الصراحة، والاستقامة والتعارف المتحفظ. ألفاظ كررها أبي كثيراً في جهد متواصل لكي يجعل

نفسه يروق للزبون. كان يحزقائيل غونين مؤدباً جداً حين كان يتحدث إليّ ولم يتبادل مع ابنه كثير حديث.. سوى أنه حكى له فقط عن سروره بالمفاجأة عندما تسلم الخطاب، وفيه البشرى السارة. شاي أو قهوة لا يستطيع ـ لشديد أسفه ـ أن يقدم لنا، لأن التيار الكهربائي مقطوع، وليس عنده ـ وابور كاز ـ ولا موقد غاز.. آه لو كانت طوفاه رحمها الله على قيد الحياة.

لو حظيت، وكانت معنا في هذا الموقف لصار كل شيء أكثر بهجة. كانت امرأة من نوع خاص. لكنه يتوقف الآن عن الحديث عنها.. لأنه لا يريد تكدير صفو اللحظة السعيدة.. لا يريد أن يخلط الفرح بالحزن.. سيأتي اليوم الذي سيحكي لي فيه حكاية حزينة جداً. ماذا يستطيع أن يقدم لنا؟

ها شوكولاته! وهكذا، وكرجل متهم بإهمال أهم واجبات وظيفته قام يحزقائيل غونين ليخرج من خزانة صغيرة علبة (ملبّس) قديمة ملفوفة برباط ورقي ملون: «خذوا! خذوا أيها الأولاد الأعزاء على قلبي! تفضلوا!».

معذرة.. لم يستوعب جيداً ما أدرسه في الجامعة بالضبط؟ نعم بالطبع أدب عبري سيتذكر ذلك من الآن فصاعداً.. فهل تدرسين على يدي البروفيسور كلاوزنر؟ نعم نعم إنه رجل عظيم رغم أنه لا يحب الحركة العمالية. بالمناسبة لدى يحزقائيل مجلد واحد من أجزاء كتاب تاريخ الهيكل الثاني سيجده فوراً وسيريني إياه. إنه في الحقيقة يود أن يهديني المجلد هدية. إنني أحتاجه أكثر منه.. لأن حياتي لا تزال أمامي أما حياته هو فإلى أجل. الكهرباء مقطوعة من الصعب أن يجد الكتاب حالياً إلا أنه من أجل عروس ابنه ـ كنته ـ سيبذل قصارى جهده. وبينما

كان يحزقائيل غونين منكباً يبحث عن المجلد في رف سفلي وصلت ثلاث من العمات الأربع. إذ إنهن دعين أيضاً للتعارف. من جراء انقطاع الكهرباء وصلن متأخرات. ولم يتمكن من العثور على العمة جينا لإحضارها. ولذا حضرت ثلاثتهن فقط. على شرفي وعلى شرف هذه المناسبة استأجرن سيارة أجرة من تل أبيب إلى حولون ليصلن في الوقت المناسب. كان الظلام حالكاً طوال الطريق. عاملتني العمات الثلاث بود شديد، كما لو كنت أذنبت إليهن، كأن كل ذنوبي مكشوفة إلا أنهن يسامحنني. إذ إن قلوبهن واسعة وكبيرة، كم هن سعيدات لمعرفتي.. في خطابه لهن كتب ميخائيل عن العديد من صفاتي الحميدة، وكم أسعدهن حقاً أنهن اكتشفن بأنفسهن أنه لم يكن مبالغاً. للعمة ليئه، صديق من القدس. اسمه السيد قاديشمان، رجل واسع الثقافة، وله نفوذ، وقد استعلم هذا الصديق عن عائلتي بناء على طلب العمة ليئه، وأربعتهن الآن يدركن أنني أنحدر من عائلة طيبة، أرادت العمة جينيه أن تتبادل معي كلمتين على انفراد. طلبت مني المعذرة لأنه من غير اللائق الهمس بين اثنين في حضور جمع. ولكن مع أقرباء العائلة لا داعي للتمسك بالشكليات. ومن الآن أعتبر نفسي أحد أفراد العائلة. خرجت معها إلى الحجرة الأخرى. جلسنا في الظلام على الفراش الصلب ليحزقائيل غونين، أضاءت العمة جينيه كشافاً كهربائياً. كأننا خارجتان إلى حقل ليلاً. رقصت ظلالنا رقصاً متوحشاً على الحائط المقابل.. مع كل حركة صدرت عنا. لأن الكشاف ارتعش في يدها. تملكتني فكرة مجنونة وهي أن العمة جينيه ستطلب مني أن أخلع ملابسي. ربما لأن ميخائيل حكى لي في الطريق أنها طبيبة أطفال. بدأت العمة حديثها بنبرة عاطفية متأججة:

وضع يحزقائيل (والد ميخائيل) المادي ليس على ما يرام. إطلاقاً ليس على ما يرام. يحزقائيل موظف بسيط لا داعي لأن يشرح لفتاة ذكية ما معنى موظف مدني بسيط ينفق معظم راتبه على تعليم ميخائيل. كم يشكل هذا من عبء عليه لا داعي لإخباري. ولن يتوقف ميخائيل عن التعليم. عليها أن تخبرني ذلك بصورة واضحة، وقاطعة لا تحتمل أي تأويل، ولا تفتح باباً لأي سوء فهم. لن توافق العائلة بحال من الأحوال أن يتوقف عن دراسته. هذا غير وارد. لقد تناقشت العمات في ما بينهن حول هذا الأمر طوال الطريق في سيارة الأجرة، وهن ينوين بذل قصارى جهدهن لمساعدتنا إلى أن نقف على أقدامنا. ولنفترض أن كل واحدة منهن بمقدورها أن تدفع خمسمائة ليرة ربما أقل، وربما أكثر بقليل، ومن المؤكد أن العمة جينا ستنضم إليهن في مساعدتنا على الرغم من عدم تمكنها من المجيء هذا المساء. لا، لا داعي لتوجيه الشكر لنا. فأسرتنا متماسكة جداً. أو بمعنى أدق أسرة تربطها روابط أسرية جداً لو صح هذا التعبير في اللغة العبرية. وعندما تتحسن ظروفكم وبعد أن يصير ميخائيل أستاذاً في الجامعة بمقدوركم رد نقودنا إلينا. هاه. هاه. هذا لا يهم. المهم الآن هو أنه بمثل هذا المبلغ الآن يستحيل تأسيس بيت. هذا الغلاء الفاحش يشغل العمة جينيه. العملة الآن تفقد من قيمتها من يوم إلى آخر، بودها أن تسأل: هل قرار الزفاف في شهر مارس/ آذار هو قرار نهائي؟ أليس بالإمكان التأجيل قليلاً؟ العمة جينيه تسمح لنفسها بتوجيه سؤال آخر بشكل صريح، وعائلي جداً: هل حدث بيني، وبين ميخائيل ما يستدعي عدم التأخير في إجراءات الزفاف؟ لا.. إذاً فلماذا التسرع؟ إنها نفسها ـ بودها أن تخبرني ـ ظلت مخطوبة في كوفناه لست سنوات إلى أن تزوجت زوجها الأول. ظلت ست سنوات، ولكنها تدرك جيداً لا فترة خطوبة في الوقت المعاصر ولا ست سنوات،

ولكن لماذا نفترض أن تقتصر فترة الخطوبة على سنة؟ لا، حسناً من المؤكد أنها تعتقد أنني لم أتمكن من توفير مبلغ كاف من المال من خلال عملي في روضة الأطفال. وهناك مصاريف معيشة، ومصاريف دراسة. عليّ أن أدرك، أكدت العمة جينيه بنبرة حادة، أن الصعوبات المادية في بداية الحياة المشتركة قد تدمر الحياة الزوجية. إنها تقول هذا الكلام استناداً إلى تجاربها وخبرتها في الحياة، وهي تعدني أنها يوماً ما ستقص عليّ حكاية مؤلمة. إنها طبيبة تسمح لنفسها أن تستخدم تعبيرات مكشوفة، إنه في غضون شهر.. شهرين.. نصف سنة.. ستزيح الحياة الجنسية باقي المشاكل ولكن ماذا بعد؟ إنني فتاة مثقفة والعمة تطلب مني أن أفكر تفكيراً منطقياً. لقد سمعت أن أسرتي تعيش الآن في أحد الكيبوتسات «أليس كذلك؟ أليس هذا صحيحاً؟ وهل حقاً المرحوم والدك خصص في وصيته ثلاثة آلاف ليرة ليوم زفافك؟ هذا خبر جيد جداً. أترين يا حنه كيف نسي ميخائيل أن يخبرنا بذلك في خطابه؟».

«وعلى العموم ميخائيلنا هذا لا يزال يحلّق فوق السحاب. نابغة في العلوم وطفلاً رضيعاً في أمور الحياة. وهكذا قررتم أن يتم الزفاف في مارس؟ فليكن في مارس، الكبار عليهم ألا يفرضوا آراءهم على الصغار، حياتكم أمامكم، وحياتنا أصبحت خلفنا، وكل جيل عليه أن يتعلم من أخطائه. أتمنى لكما حظاً سعيداً موفقاً دائماً وأبداً إذا حتجت إلى نصيحة أو مساعدة» عليّ بالفعل ألا أتأخر في التوجّه إلى العمة جينيه. لديها رصيد من التجارب والخبرة في الحياة غير متوافر لعشر نساء عاديات، والآن لنعد إلى الغرفة الكبيرة.

حظاً سعيداً يا ياحزقائيلاه حظاً سعيداً يا ميخاه بصحتكم، وسعادتكم».

في كيبوتس نوف ـ هاريم بالجليل استقبل أخي عمانوئيل خطيبي ميخائيل بالعناق الحار. وربت على كتفه كأنه وجد أخاً مفقوداً. وأخذ عمانوئيل الضيف في نزهة استغرقت عشرين دقيقة جعله يشاهد خلالها كل الكيبوتس.

هل كنت مع فصائل البالماخ؟ لا عليه، لا يعيب. إن الذين كانوا خارج البالماخ قاموا بأمور مهمة أيضاً.

من باب الاحترام عرض علينا عمانوئيل أن نعيش هنا في نوف ـ هاريم، وماذا في الأمر، ليس في الأمر غريب. هنا أيضاً بإمكان الشخص المثقف أن يكون مفيداً، وأن يجد كفايته في الحياة عن رضا واقتناع، وليس في القدس فقط. ولكن عمانوئيل أدرك بلمحة عين أن ميخائيل ليس قوي البنية كأسد مفترس، وليس في ذلك ما يعيب أيضاً.. إننا هنا لسنا فريقاً لكرة القدم.

«يستطيع ميخائيل أن يعمل في مزرعة الدجاج، أو حتى في إدارة الحسابات. يارينا، يارينا، اركضي وضعي زجاجة البراندي التي كسبناها في سحب عيد البوريم[1]. أسرعي! فلدينا الآن صهر رقيق مهذب، أنت

---

(١) عيد البوريم: أو عيد الفور أو عيد النصب. وكان الكتاب العرب يسمونه «عيد المسخرة» أو «عيد المساخر». والسبب في ذلك ما جرت به بعض تقاليد يهودية شعبية في هذا العيد من إسراف في شرب الخمر، ولبس الأقنعة والملابس التنكرية على طريقة المهرجان (الكرنفال)، وهذا العيد هو احتفال تذكاري متصل بملابسات ممهدة للعودة من السبي البابلي في القرن الخامس ق.م. بناء على وعد صدر من ملك الفرس إلى ممثلي الجالية اليهودية المقيمة عند الكلدانيين بالعراق بأنه إذا تم بمساعدتهم دخول العراق وتدمير الدولة الكلدانية سيعيدهم إلى فلسطين، ويبدأ هذا العيد من ليلة الثالث عشر من شهر مارس/ آذار ويكون يوم ١٣ آذار نفسه صوماً عند اليهود يسمى «صيام إستير». أما اليوم الرابع=

يا حنوتكا! لماذا أنت واجمة، وصامتة؟ إنك فتاة على وشك الزواج. لماذا تبدين وكأنك قد ترملت؟ وأنت يا ميخائيل الحبوب! هل علمت كيف سرحوا فصائل البالماخ؟ دع الأمور تجري في أعنتها! لا تبدأ في التحليل والنقاش.. أردت أن أسألك هل سمعت النكتة؟ طبعاً لم تسمعها، متأخرة قدسكم هذه، والآن اسمع!».

وأخيراً أمي:

بكت أمي أثناء حديثهما عن ميخائيل، وحكت له بعبرية ركيكة عن موت والدي، وضاعت كلماتها وسط الدموع. لها رجاء واحد. أن يسمح لها ميخائيل بأخذ مقاساته، بأخذ مقاساته؟ نعم بأخذ مقاساته، بودها أن تحيك له صديرياً أبيض، ستبذل قصارى جهدها لكي تنهيه قبل الزفاف، وهل لدية بدلة سوداء؟ ربما يود أن يرتدي في حفل الزفاف بدلة المرحوم يوسف زوجها! ستفك الخياطة، وتعيدها. بإمكانها أن تجعلها على مقاسه. الفروق ليست كبيرة. جسمه ليس ضخماً جداً، وليس نحيلاً جداً. إنها تلح في الرجاء.. لأسباب عاطفية. إذ في مقدورها تقديم أي هدية أخرى. وبلكنة روسية كررت أمي رجاءها لميخائيل عدة مرات كمن يغلظ الأيمان من قلبه «إن حنه فتاة رقيقة. رقيقة جداً. لديها أحزان كثيرة. عليك إدراك ذلك! وأيضاً لا أعرف كيف يقولون ذلك بالعبرية.. إنها رقيقة عليك أن تدرك ذلك!».

=عشر فهو العيد الذي يستمر طيلة هذا اليوم ويطلق عليه «يوم بوري» ثم يكون اليوم الذي يليه، وهو الخامس عشر من آذار، اليوم الصاخب، يوم الكرنفال، ويسمونه «بوريم شوشان» نسبة إلى مدينة «شوشان» أو «سوزة» الإيرانية. [المصدر السابق، ص٢٠٧، ٢١٨].

٧

قال أبي يوسف رحمه الله في مناسبات عديدة: «البسطاء ليس بمقدورهم الكذب المتواصل، وخداعهم المكشوف.. مثل لحاف قصير جداً حين يحاولون تغطية الأرجل تتعرى الرأس، وحين يحاولون تغطية الرأس تتعرى الأرجل، والناس يحاولون إيجاد أعذار ذكية لإخفاء شيء ما، وهم لا يشعرون بأن تلك الأعذار تكشف في ذات الوقت حقائق سيئة. ولكن من ناحية أخرى تدمر الحقائق العارية كل شيء، ولا تبني شيئاً، وماذا يتبقى للبسطاء من الناس؟ يبقى لنا فقط أن نتأمل كل ما يجري حولنا، وأن نصمت.. أن نتأمل وأن نصمت..، وهذا علينا أن نفعله هنا!».

قبل زفافنا بعشرة أيام استأجرنا شقة قديمة في حي ماكور ـ باروخ في الشمال الغربي من القدس. كان يعيش في هذا الحي خلال عام ١٩٥٠ إلى جانب السكان المتدينين كثير من موظفي الحكومة والوكالة اليهودية إلى جانب تجار أقمشة قطاعي بالقطعة، وقاطعي تذاكر لدور السينما أو موظفين في البنك الأنجلو ـ الفلسطيني. كان بالفعل حياً متداعياً آيلاً للسقوط.. أما القدس الحديثة فقد امتدت في الاتجاه الجنوبي، أو الجنوب الغربي. شقتنا كانت مظلمة نوعاً ما، وشبكة مواسيرها قديمة، ولكن السقف فيها كان عالياً وهذا ما أحببته في الشقة.

اتفقنا في ما بيننا على طلاء الجدران بألوان مبهجة، والإكثار من الأصص التي فيها نباتات زينة.. حتى ذلك الحين لم نكن ندري أن نباتات الزينة لا تعمر في القدس. قد يكون مرد ذلك إلى مياه المواسير التي تحتوي على الكثير من الصدأ والمواد الكيماوية. تجولنا في المدينة أثناء أوقات فراغنا لشراء المستلزمات الضرورية.. بعض الأثاث وأدوات المطبخ وقليل من الملابس. لبالغ دهشتي اكتشفت أن ميخائيل خبير في المفاصلة من دون المساس بكرامته. لم أره فاقداً أعصابه. كنت فخورة به. أقرب صديقاتي هاداساه[1] التي تزوجت حديثاً من شاب أخذ نجمه يصعد وهو يعمل في الاقتصاد، عبرت عن انطباعها عن ميخائيل بالكلمات التالية:

«فتى ذكي، ومتواضع. ربما ليس متألقاً لكنه رزين».

وقال أصدقاء لوالدي من مخضرمي القدس:

«إنه يترك انطباعاً حسناً».

كنت أمسك ذراعه بذراعي. أحاول جاهدة قراءة الانطباع الداخلي لدى كل من أقابله من معارفي عن ميخائيل، كان ميخائيل قليل الحديث. كان يصغي بعينيه، كان لطيفاً ومتحفظاً في حضور الغرباء. قال الناس:

«جيولوجيا.. يا للدهشة. إنه يبدو كطالب في كلية الآداب».

كنت آتي كل مساء لغرفة ميخائيل التي يستأجرها في حي المصرارة. هناك جمعنا مشترياتنا.

---

(١) هاداساه: اسم عبري قديم ومعناه شجرة الآس.

معظم ساعات المساء كنت أقضيها في تطريز بعض الورود على أغطية الفراش. وعلى الملابس المشتركة طرزت اسمنا المشترك غونين. أحب ميخائيل تطريزي. كنت أجيد التطريز. تعودت أن أستريح على الكرسي الفوتيه الذي اشتريناه لكي نضعه على شرفة شقتنا. أما ميخائيل فكان يجلس إلى مكتبه.. منهمكاً في تحضير أبحاثه عن مادة الجيومورفولوجيا[1]. أراد أن ينتهي من إعداد الأبحاث وتقديمها قبل يوم الزفاف. ذلك الذي كان قد قرره. رأيت وجهه على ضوء مصباح الطاولة مستطيلاً نحيلاً وغامقاً. وشعره حليقاً. بدا ميخائيل في عينيّ تلميذاً في مدرسة دينية داخلية، أو أحد فتيان ملجأ أيتام ديسكين الذين كنت أراهم في صباي يعبرون شارعنا إلى محطة السكة الحديد، كانوا حليقي الرؤوس، ويسيرون مثنى متشابكي الأيدي. مطيعين واجمين. في رضوخهم دفنت رائحة عنف مكبوت مرة أخرى عادت حلاقة ذقن ميخائيل لعادتها المملة. نمت شعيرات خشنة أسفل ذقنه.. فهل فقد موساه الجديد؟ لا. إنه اعترف لي بكذبه ثاني أمسية كنا فيها معاً. لم يشتر موسىً جديداً للحلاقة.. بل من أجل عيوني حلق ذقنه في تلك المرة بعناية.. لماذا إذاً كذب؟ لأنني قد أحرجته في المرة الأولى. لماذا عاد متقاعساً عن حلاقة ذقنه هذه الأيام ويحلقها مرة كل يومين على الأكثر؟ لأنه لم يعد يشعر بالإحراج معي. كم كان يكره الحلاقة! لو كان فناناً وليس جيولوجياً ربما كان سيطلق لحيته. حاولت أن أتخيل منظره بلحية طويلة ثم انفجرت ضاحكة بصوت عال.

---

(١) الجيومورفولوجيا: علم دراسة شكل الأرض وتضاريسها وتوزيع اليابسة والبحار على سطحها.

رمقني ميخائيل بنظرة مليئة بالذهول.

«ما الذي يضحكك هنا؟».

هل جرحت مشاعره؟

لا. لم أجرح مشاعره. إطلاقاً لا.

ولماذا ينظر إليّ هكذا؟

لأنه نجح في أن يجعلني أنفجر من الضحك. كم حاول جاهداً من قبل مرات ومرات أن يجعلني أضحك ولكنني لم أفعل. والآن ومن بدون قصد نجح. يا لفرحه.

عينا ميخائيل رماديتان. حين يبتسم ترتعد زوايا شفتيه. كان رمادياً، ومتحفظاً ميخائيلي. بمعدل كل ساعتين كنت أعد له ما يحبه من شاي بالليمون. لم نتجاذب أطراف الحديث تقريباً.

لم أكن أريد أن أتسبب في تأخير إتمام عمله. أحببت اسم جيومورفولوجيا. ذات مرة تسللت حافية خلسة لأقف وراء ظهره المنكب على الأوراق. لم يشعر بي ميخائيل. استطعت قراءة بعض الجمل من فوق كتفه. لميخائيل خط واضح ودائري تماماً كخط طالبة مرتبة في المرحلة الثانوية. لكن الكلمات التي قرأتها جعلتني أرتجف. استخراج واستغلال المناجم. قوى بركانية ضاغطة من الداخل، لافا متجمدة، بازلت. أنهار متجددة، وأنهار جافة. عمليات تكوينية بدأت قبل حوالى عشرة ملايين من السنين وما زالت لها نفس القوة والاندفاع. تآكل تدريجي وتآكل مفاجئ، وكسر جيولوجي هزات زلازل خفيفة لا يمكن تسجيلها إلا بأحدث الأجهزة وأدقها.

جفلت هذه المرة أيضاً وانتابني إحساس بالوجوم حين قرأت هذه

الكلمات التي هي برقية تلقيتها بالشفرة. مصيري متعلق بفحواها، وليس معي مفتاحها.

بعد ذلك عدت إلى الكرسي الفوتيه، واستغرقت في التطريز. دفع ميخائيل رأسه قائلاً: «لم أقابل امرأة مثلك في حياتي!».

وعلى الفور أسرع لكي يسبقني مضيفاً وهو يبتسم:

«كم هذا سخيف».

أود أن أسجل هنا أنه يوم زفافنا منعت ميخائيل عن جسدي.

قبل موت والدي بشهور قليلة ناداني إلى غرفته، وأغلق الباب، وكان المرض قد أنضب ماء الحياة من وجهه. خداه غاصا، وكانت بشرته صفراء يابسة. لم ينظر إليّ، بل إلى البساط المفرود بجانب أرجل الكرسي كأنه يقرأ من على البساط الكلمات التي سيقولها: حكى لي أبي عن وجود رجال أشرار يستغلون النساء بمعسول الكلام ثم يتركوهن للحسرات. في ذلك الوقت كنت في الثالثة عشرة من العمر. كنت أعرف ما حكاه أبي منذ زمن. من فتيات تمرحن، ومن أفواه فتيان أشقياء. لكن من فم أبي لم تكن الكلمات مصحوبة بتهريج.. بل خرجت في هدوء حزين.

أبي صاغ كلماته، كما لو كان وجود جنسين مختلفين هو سبب كل هذه الفوضى التي ترهق العالم بأعباء ثقيلة، وعلى الناس أن يسعوا قدر الطاقة للتقليل من نتائج الفوضى، وفي النهاية قال أبي إنني إذا تذكرته في الأيام العصيبة ربما أستطيع أن أمنع نفسي من اتخاذ قرار أندم عليه في ما بعد. لا أعتقد بأن هذا كان السبب الحقيقي وراء منعي لنفسي عن ميخائيل حتى ليلة الزفاف. لا أريد أن أكتب السبب الحقيقي.

على المرء أن يكون في منتهى الحذر حين يستخدم كلمة سبب. من قال هذا الكلام؟ إنه ميخائيل ذاته. حين ضم كتفي كان قوياً متماسكاً، وربما كان متمالكاً نفسه.

لم يغازلني بكلمات، وإنما أصابعه هي التي ناشدت.. لكنها لم تصر أبداً. كان يمرر أصابعه ببطء إلى أسفل ظهري ثم يرفع يده لينظر إلى أصابعه وإليّ كما لو كان يقارن بحذر بين شيئين. آه يا ميخائيلي.

ذات ليلة قبل أن أفارق ميخائيل إلى غرفتي (وكان قد بقي لي أقل من أسبوع للسكنى لدى عائلة ترنو فولر بحي أحقاه) قلت:

«يا ميخائيل ربما ستتعجب حين تسمع أنني قد أعرف عن الأنهار المتجددة طبيعياً، والأنهار اللاحقة أشياء ربما لا تعرفها أنت إذا بقيت طيباً، ولطيفاً سأخبرك بما أعرف يوماً ما». قلت ذلك ومسحت بيدي على شعره الحليق وأنا أقول: أيها القنفذ!!. ما الذي كنت أقصده؟ لا أعرف.

في إحدى الليالي السابقة لحفل الزفاف بيومين حلمت حلماً مزعجاً:

«كنت مع ميخائيل في مدينة أريحا نشتري بعض المستلزمات في شارع السوق بين صفوف من الأكواخ الطينية المنخفضة (سافرت مع أبي وعمانوئيل إلى أريحا عام ١٩٣٨ أثناء أيام عيد السكوت[1] (المظال)

---

(١) عيد السكوت ـ المظال ـ والأصل في هذا العيد أنه عيد زراعي كان يحتفل فيه بتخزين المحصولات الزراعية الغذائية للسنة كلها في هذا الفصل وهو فصل الخريف. فكانوا يكدسون مؤونتهم من التمر والتين الجاف والزيتون والزبيب والنبيذ ولذلك يسمونه=

ركبنا أوتوبيساً عربياً. كنت في الثامنة من العمر.. لم أنس. أنا من مواليد عيد السكوت).

أنا وميخائيل اشترينا حصيرة وبعض الشلتات الشرقية وكنبة مزخرفة، ميخائيل لم يرد مثل هذا الأثاث. إنما أنا اخترت، وهو يدفع بهدوء.

كان السوق في أريحا ضاجاً مزخرفاً ملوناً. أناس يصرخون بوحشية. كنت أمر بينهم هادئة مرتدية غونلة (تنورة) سبورت. كانت الشمس في السماء فظيعة ومفترسة تماماً كما رأيتها في لوحات فان غوغ. بعد ذلك توقفت عربة جيب عسكرية إلى جانبنا قفز من العربة ضابط إنكليزي قزم.. مهندم لمس كتف ميخائيل، وفجأة استدار ميخائيل وتخلص من قبضته.. رافساً كالثور. جرى كهمجي أثناء جريه أخذ يقلب منصات الباعة ومضى حتى ضاع وسط الزحام. بقيت وحدي. نسوة تلولون ظهر رجلان وأخذاني من ذراعيّ كانا مستترين في عباءتين. ظهرت عيونهما فقط.. تومض شراً. مسكتهما كانت شديدة، مؤلمة. سحباني عبر شوارع ملتوية إلى طرف المدينة. كان المكان شبيهاً بالأزقة المنحدرة الواقعة

=بالعبرية أيضاً «حج ها أسيف» أي عيد التخزين. ويبدأ هذا العيد في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين بالتقويم العبري ـ أي أكتوبر ـ ويكون الاحتفال به منذ غروب شمس الرابع عشر بحيث تكون هذه ليلة العيد، ومدته التقليدية تسعة أيام منها سبعة أيام هي عيد المظال ويومان آخران هما الثاني والعشرون والثالث والعشرون من هذا الشهر، ولهما لون آخر من الاحتفال. فالأول منهما يسمى الثامن الختامي لأنه يختم عيد المظال بأيامه السبعة، بل يختم كل الأعياد في الشهر الأول من السنة العبرية وهو شهر تشرين، وأما اليوم الثاني من هذين اليومين فإنه يفتح دورة مديدة من قراءة التوراة ولذلك يسمى عندهم عيد فرحة التوارة. [المصدر السابق، ص٢٠٣ ـ ٢٠٥].

خلف شارع الأحباش شرق القدس الجديدة. سحباني جراً عبر سلالم كثيرة إلى قبو يضيئه قنديل قذر. كان القبو معتماً، طرحاني أرضاً، شعرت بالرطوبة. كان الهواء عفناً. كان يتعالى من الخارج نباح كلاب مكتوم، متواصل، ومخبول.

فجأة أزاح التوأمان عباءتيهما الصحراويتين. كنا ثلاثتنا أبناء جيل واحد. بيتهم كان مواجهاً لبيتنا خلف أرض مهجورة.. بين القطمون وكيريات شموئيل. فناء بيتهم كان محاطاً بسياج من جميع جوانبه، والمبنى يحيط بالفناء. كان فناء داخلياً. تسلقت أسوار الفيلا كرمة عنب. كانت الجدران مبنية من أحجار مائلة للحمرة والتي كان يفضلها أثرياء العرب في الضواحي الجنوبية للقدس.

شعرت بالخوف من التوأمين. ضحكا لي. بيضاء ناصعة البياض بدت أسنانهما. لونهما داكن، وحركاتهما رشيقة. ذئبان رماديان قويان. صرخت: ميخائيل! لكن صوتي ضاع مني.

أصبحت خرساء. غمرني الظلام، هذا ظلام أراد أن يأتي ميخائيل لإنقاذي من بين أيديهم، فقط مع نهاية الألم واللذة. لو تذكر التوأمان أيام طفولتنا. إلا أنهما لم يعطياني أي تلميح.. في ما عدا ضحكاتهما. أخذا يثبان على أرضية القبو وثبات صغيرة وسريعة. كأنهما يتجمدان من شدة البرد. لكن الجو لم يكن بارداً. كانت قفزاتهما ناجمة عن طاقة زائدة.. كانا يغليان.. لم أستطع كبت ضحكاتي المتشنجة الكئيبة. كان عزيز أطول قليلاً من أخيه، ووجهه كان أغمق بقليل. دار حولي، وفتح باباً لم ألحظ وجوده من قبل. أشار بيده إلى الباب وانحنى كأنه غرسون. أصبحت طليقة. استطعت الخروج، كانت لحظة فظيعة كان في وسعي

الخروج ولم أخرج حينذاك، أطلق خليل آهة مكتومة ومرتعدة. أغلق الباب ثم أقفله بإحكام، وأخرج عزيز من ثنايا عباءته سكيناً كبيراً ذا بريق. كان نفس سكين تقطيع الخبز الذي اشتريته مع ميخائيل بالأمس.. من محل سوبر ماركت شفارتس بميدان صهيون. ومضت عيناه. جثا، وركع على أربع. اشتعلت عيناه غضباً. وتكدر بياضهما وصار أحمر بلون الدم. تراجعت إلى الخلف وأسندت ظهري إلى جدار القبو، كان جداراً قذراً. رطوبة لزجة عفنة اخترقت ملابسي ولامست جلدي، صرخت بكل ما تبقى لدي من قوة.

في الصباح جاءت إلى حجرتي صاحبة الشقة السيدة ترنو فولر.. لتقول إني كنت أصرخ في الليل في منامي. إذا صرخت الفتاة في منامها قبل الزفاف بيومين يكون يوماً شؤماً، وأن مصائب كثيرة ستحدث. نرى في أحلامنا ما علينا أن نفعله، وما هو محظور علينا أن نفعله. في أحلامنا ندفع جزاء أعمالنا. هكذا قالت السيدة ترنو فولر. لو كانت هي أمي كانت ستضطر أيضاً أن تقول هذا لي حتى لو أغضبني ذلك. لم تكن لتسمح لي أن أتزوج هكذا فجأة من شخص تقابلت معه صدفة في الشارع. حيث كان من الممكن أن أقابل صدفة شخصاً آخر مختلفاً تماماً، أو أن لا أقابل رجلاً على الإطلاق. إلى أين يقود هذا الطريق؟ إلى كوارث. الزواج عندكم أصبح مثل لعب يوم المسافر[١]. السيدة ترنو فولر نفسها تزوجت على يد وسيط. كان وكأنه ينفذ ما هو مكتوب لنا في السماء لأنه كان يعرف العائلتين جيداً، وتفحص بعناية معدن العروس، والعريس، في النهاية العائلة هي الأساس في تكوين شخصية الإنسان.

---

(١) يوم المسافر: وهو عيد أيضاً عند اليهود يلعبون فيه القمار.

الوالدان والأجداد، والأعمام والأخوال والإخوة. تماماً كالبئر وما تحويه من مياه. هذا المساء، وقبل أن أذهب للفراش ستعد لي السيدة ترنو فولر شاياً مخلوطاً بالأعشاب. إنه علاج فعال للنفوس المنزعجة. ولتكن الأحلام المزعجة من نصيب أعدائي، ومنغصاً قبل زفافهم. كل هذا يحدث للآنسة حنه لأن الزواج عندكم أصبح مثل زواج عبدة الأوثان الذين جاء ذكرهم في التوراة، عذراء تقابل رجلاً غريباً لا تعرف من أين جاء.. ترتب معه ترتيبات، وتحدد لنفسها يوم زفافها كما لو كان الناس يعيشون في هذا العالم بمفردهم. حين قالت السيدة ترنو فولر كلمة عذراء ابتسمت لي ابتسامة مرهفة. لكنني لم أرد.

٨

أنا وميخائيل تزوجنا في منتصف مارس/ آذار. أقمنا حفل الزفاف على سطح بناية الربانيين القديمة الواقعة بشارع يافا مقابل مكتبة ستياماتسكي لبيع الكتب الأجنبية. تحت سماء ملبدة بغيوم ذات ألوان رمادية فاتحة مختلطة بكتل رمادية قاتمة. ارتدى كل من ميخائيل وأبيه بدلتين سوداوين، ووضع كلٌ منهما منديلاً أبيض في جيب الجاكت العلوي. بَدَوَا متشابهين لدرجة أنني أخطأت التعرف إليهما مرتين.. ناديت ميخائيل زوجي باسم يحزقائيل. ميخائيل حطم الكأس الزجاج التقليدي بركلة قوية. جاء صوت الزجاج المكسور جافاً. بين الحضور ساد همس مكبوت. بكت العمة ليئه. كما أن أمي بكت. نسي أخي عمانوئيل إحضار غطاء لرأسه. لهذا وضع على خصلات شعره منديلاً ذات ألوان متقاطعة، وكان المنديل كله مربعاً. وشدتني رينا زوجة أخي بيد صارمة. كأنني على وشك أن يغمى عليّ فجأة. لم أنس شيئاً. في المساء أقمنا حفلاً صغيراً دعونا إليه الأصدقاء في إحدى قاعات المحاضرات بمبنى راتيسبون. حين زفافنا منذ عشر سنين كانت معظم أقسام الجامعة قد استقرت في أجنحة موجودة في أديرة مسيحية. أما مباني الجامعة التي كانت على جبل المشاهد (سكوبتس) فقد كان الطريق إليها مقطوعاً إثر الحرب (حرب عام ١٩٤٨).

قدامى المقدسيين اعتقدوا بأن هذا الانقطاع موقت، وأكثروا من التنبوءات والتوقعات السياسية. لم يكن الوضع مريحاً.

كانت القاعة التي أقمنا فيها حفل زفافنا بمبنى راتيسبون عالية جداً، وباردة. كان السقف أسود مسخماً.. كما أن علامات شخبطة كانت قد رسمت على السقف. بصعوبة استطعت تمييز مناظر مختلفة عن حياة المسيح. منذ الولادة المقدسة، وحتى الصلب.. تحولت بنظري عن السقف. ارتدت أمي فستاناً أسود، نفس الفستان الذي حاكته لنفسها إثر موت أبي يوسف غرينباؤم عام ١٩٣٤. والفرق أنها علقت على فستانها في هذه المرة دبوساً من النحاس.. في محاولة لإيجاد انطباع مختلف بين هذه المناسبة السعيدة وتلك المناسبة الحزينة. تألق العقد الثقيل على صدر أمي ملكاه في ضوء المصابيح القديمة. حضر الحفل حوالى ثلاثين أو أربعين طالباً، معظمهم من طلبة الجيولوجيا وبعضهم من طلبة السنة الأولى في قسم الأدب العبري. جاءت هاداساه أعز صديقاتي بصحبة زوجها الشاب. وقد أهدتني لوحة من رسم أبيل بان وهي بروفيل لامرأة عجوز. اشترك بعض الأصدقاء القدامى لعائلة أبي، وقدموا لي شيكاً نقدياً مشتركاً. جاء أخي عمانوئيل بسبعة من شباب الكيبوتس. كانت هديتهم مزهرية مذهبة. حاول عمانوئيل ورفاقه إضفاء روح المرح، إلا أن حضور الطلاب أحبط محاولاتهم. بعد ذلك قام اثنان من طلبة الجيولوجيا لقراءة حوار ثنائي طويل وممل مبني على التقابل التهكمي بين طبقات الأرض، والحب بين الزوجين. استخدم الطالبان تلميحات خارجة وتعبيرات تحتمل أكثر من معنى. كان هدفهما إدخال المرح إلى قلبينا.

أما ساره زلدين مربية الأطفال العجوز الشمطاء ذات التجاعيد فكانت هديتها طقم شاي، وعلى كل إناء فيه مطبوع زوج من العشاق بلباس أزرق ومحاط بإطار ذهبي. حضنت المربية أمي وقبلت إحداهما الأخرى.

تحدثنا باليدش. تحركت رأساهما من أعلى لأسفل بلا توقف. التفت عمات ميخائيل الأربع حول طاولة مليئة بالفطائر. وهن يتحدثن عني بإسهاب. لم يكلفن أنفسهن مشقة خفض أصواتهن. لم أعجبهن إطلاقاً. على امتداد سنوات حياته كان ميخا ولداً مهذباً ومسؤولاً. والآن يتورط في هذه الزيجة السريعة التي تفتح باباً لترويج إشاعات. العمة جينيه ظلت طوال ست سنوات مخطوبة. بقيت ست سنوات حتى وافقت على الزواج أخيراً من زوجها الأول. أما تفاصيل الإشاعات التي ستروج نتيجة لزواجنا المتسرع.. فقد ناقشتها العمات الأربع باللغة البولندية، أكثر أخي وأصدقاؤه من الكيبوتس في الشراب، أحدثوا ضجة شديدة. وبأصوات ضاجة غنوا أغنية «املأ لنا الكأس» عاكسوا الفتيات، وأطلقوا النكات حتى تحول الضحك إلى نوع من العويل المخنوق. طالبة شقراء من قسم الجيولوجيا اسمها ياردينا.. ترتدي فستاناً بكشكش فضي.. خلعت نعليها، وانطلقت بمفردها في رقص إسباني صاخب. ساعدها كل الضيوف بالتصفيق المتواتر. أخي عمانوئيل حطم تكريماً لها زجاجة من عصير البرتقال. بعد ذلك صعدت ياردينا على كرسي.. أمسكت بين أصابعها كأساً مليئة بالليكور وغنت أغنية شهيرة عن حب بائس..

أجدني مضطرة أن أكتب هذا أيضاً. في نهاية الحفل حاول زوجي ميخائيل تقبيلي من عرفي بقبلة مفاجئة.. فتقدم نحوي مسترقاً من

الخلف. ربما أدخل أصدقاؤه من الطلبة إلى رأسه هذه الفكرة. في هذه اللحظة كنت أحمل بين أصابعي كأساً مملوءة خمراً دسها أخي عمانوئيل بيدي. فزعت حين لمس ميخائيل جلدي بشفتيه، واندلق النبيذ على فستان زفافي الأبيض وعلى بدلة العمة جينيه البنية. هل هذه التفاصيل مهمة؟

منذ ذلك الصباح الذي تحدثت معي فيه ربة المنزل الذي كنت أقطنه السيدة ترنو فولر بعد أن صرخت في حلمي ليلاً مثل هذه الرموز لم تتركني لحالي مثل أبي. أبي كان رجلاً مصغياً مَرّ بالحياة وكأنها درس متواصل يتعلم فيه ويخزن التجارب إلى العالم الآخر...

٩

بعد أسبوع تقدم مني أستاذي في الجامعة لتهنئتي. كنا في ردهة بناية تيرا ـ سانتا أثناء الاستراحة التي تفصل بين محاضرته الأسبوعية عن أبراهام مابو.

وصلتني أنباء سعيدة. سمعت أن السيدة أسست بيتاً لها في إسرائيل. أتمنى للسيدة أن يكون بيتها بيتاً يهودياً وإنسانياً حقاً. بهذه التهنئة يكون الأستاذ قد جمع كل التمنيات الطيبة الأخرى. وماذا يعمل العريس المحظوظ؟ في الجيولوجيا؟ هناك دلالة في مثل هذا التزاوج فكل من الأدب والجيولوجيا يبحثان في الأعماق لاستخراج الكنوز المختفية. وهل ستستمر السيدة في دراستها؟ حسناً هذا الأمر يسعده حقاً سعادة غامرة لأن تلاميذه أعزاء عليه كأبنائه.

اشترى زوجي رفاً كبيراً للكتب. كتبه لا تزال قليلة العدد. عشرون أو ثلاثون مجلداً، سيزداد عددها على امتداد السنين. بودّه لو أن في بيته جداراً كاملاً مغطى بالكتب. أما الآن فالرف ما زال فارغاً تقريباً. أحضرت من روضة أطفال سارة زلدين بعض أدوات الزينة.. صنعتها بيدي. ولعب أطفال مصنوعة من أسلاك وخيوط الرافيا الملونة غطيت بها الرفوف الخالية بعد من الكتب.

تعطل سخان المياه.. حاول ميخائيل إصلاحه بنفسه. حكى لي أنه

في صباه كان يقوم بإصلاح الحنفيات المعطلة بنفسه.. في بيت والديه، وفي شقق عماته.. إلا أنه لم ينجح هذه المرة.. بل ربما زاد العطل سوءاً. استدعينا سباكاً (سمكرياً). شاب جميل وسيم الطلعة من اليهود الشرقيين. بيسر ومن دون صعوبة أصلح السخان. خجل ميخائيل من فشله.. وقف صامتاً كطفل موبخ. استمتعت بارتباكه. قال السباك: «أيها الزوج اللطيف الشاب لن آخذ منكما الكثير».

في الليالي الأولى لم أستطع الخلود إلى النوم إلا بالحبوب المنومة. حين بلغت الثامنة من العمر انتقل عمانوئيل أخي لينام في حجرة بمفرده، ومنذ ذلك الحين وأنا أنام بمفردي دائماً. استغربت كثيراً كيف يغلق ميخائيل عينيه ويروح في نوم عميق. لم أره وهو نائم حتى ليلة زفافنا. تعود أن يمد عليه البطانية من أخمص قدمه حتى أعلى رأسه.. فلا يظهر منه شيء. أحياناً كنت أضطر أن أؤكد لنفسي أن هذا الهسيس المتواصل ليس سوى صوت أنفاسه، وليس هناك في العالم رجل أقرب إلي منه. على السرير المزدوج المستعمل الذي كنا قد اشتريناه بثمن بخس من أصحاب الشقة الذين سبقونا. أتقلب في نومي حتى مطلع الفجر. كان سريراً كثير النقوش فيه حفر ذو لون بني براق. وواسعاً إلى درجة زائدة على اللازم. مثل معظم قطع الأثاث القديمة، وواسعة إلى درجة أني أخطأت الاعتقاد ذات مرة بأن ميخائيل قد أفاق من نومه وخرج من دون إحداث أي صوت، لكن الحقيقة هو أنه كان في الركن البعيد يتغطى بالكامل وتماماً كالواقع الملموس كانا يجيئان لي مع الفجر يجيئان جميلين وقاسيين. صامتين بلون أسمر، وحركات رشيقة. أنا لم أرغب في أن يكون لي زوج قط. ولكن لا أستحق مثل هذا الكرب ولماذا يخيب أملي هكذا؟ حين كنت طفلة اعتقدت بأنني سأتزوج من

شاب مثقف يعد نفسه لأن يكون مشهوراً عالمياً. على أطراف أصابعي أتسلل إلى غرفة مكتبه ذات الأثاث غير المرتب.. أضع كوب الشاي على واحد من المجلدات العلمية الضخمة المكتوبة باللغة الألمانية، والمبعثرة على مكتبه، أفرغ منفضة سجائره، وظلف النوافذ أغلقها بهدوء. ومن دون أن يشعر بي أتسلل خارجة على أطراف أصابعي.. لو أن زوجي انقض عليّ كرجل اشتد به الظمأ، كنت سأخجل من نفسي، ولو جاءني ميخائيل كأنه يتحسس أداة قابلة للكسر أو كالقابض بين أصابعه على أنبوبة اختبار بالمعمل فماذا يزعجني. في الليل تذكرت معطفه الخشن والدافئ الذي ارتداه عندما حل الليل في طريقنا معاً من طيرات ـ ياعر إلى المحطة على طريق القدس، والملعقة التي داعبتها أصابعه في كافيتيريا تيراه ـ سانتا. تذكرت ذلك كله في الليالي الأولى.

اهتزّ في يدي فنجان القهوة عندما سألت زوجي صبيحة أحد الأيام وعيناي مثبتتان على إحدى البلاطات المشروخة.. إن كنت زوجة جيدة؟ فكر لحظة وقال كأنه يجيب عن سؤال علمي إنه لا يستطيع أن يحكم لأنه لم يعرف نساء أخريات. أجابني ميخائيل بصراحة، ولكن لماذا استمرت يداي في الارتجاف؟ وسقطت مني القهوة على مفرش الطاولة الجديد؟!

كل صباح كنت أقلي بيضتين، وأعد قهوة لكلينا، أما ميخائيل فكان يقوم بتقطيع الخبز إلى شرائح.

أحببت أن ألف حول وسطي مئزر أزرق ثم أعيد صف وترتيب أدوات مطبخي. مرت الأيام هادئة. يخرج ميخائيل في الثامنة لدراسته وبيده حقيبة جديدة اشتراها له والده يحزقائيل بمناسبة زفافنا. كنت أودعه

على ناصية الشارع ثم أتوجه إلى روضة الأطفال سارة زلدين. وقد اشتريت لنفسي فستاناً ربيعياً جديداً. كان فستاناً غير رسمي ورياضي، وقد طبعوا عليه أزهاراً صفراً. لكن الربيع تأخر واستمر الشتاء، كان شتاء طويلاً وقاسياً ذلك الذي شهدته القدس في عام ١٩٥٠.

بفضل الحبوب المنومة كنت أحلم طوال النهار. كانت سارة زلدين العجوز ترمقني بنظرات خبيثة من خلال نظارتها ذات الإطار المذهب ربما ترسم في خيالها ليالي حمراً متوحشة. أردت أن أصحح لها الخطأ إلا أنني لم أعرف أي الكلمات أستخدم. ليالينا كانت هادئة. تخيلت أنني أشعر ببعض الألم في ظهري. علامات حمل كاذب مشوش، وغير واضح. كأن شيئاً ما جاداً لم يحدث في الواقع، وأن ما يحدث ليس سوى مقدمة، بروفة، استعداد، كأني أعد نفسي لمهمة معقّدة عليَّ القيام بها في القريب العاجل. يبدو أن حدثاً كبيراً سيحدث في حياتي قريباً. سأكتب هنا الآن أمراً غريباً يتعلق ببيرتز سمولنسكين:

كان البروفيسور قد أنهى سلسلة محاضراته حول أبراهام مابو. وانتقل إلى كتاب «التائه في دروب الحياة». حكى لنا البروفيسور تفصيلات كثيرة عن رحلات الرجل سمولنسكين، وعن إحباطاته النفسية. في تلك السنوات كان النقاد لا يزالون يعتقدون بأن الكاتب لا بد وأن يكون مرتبطاً بكتاباته. لا زلت أتذكر لحظات انتابني فيها إحساس قوي ومدفون إني أعرف الرجل سمولنسكين شخصياً. ربما ذكرتني صورة وجهه المطبوعة على غلاف كتابه بوجه أعرفه. لكنني أعتقد بأن هذا هو السبب الحقيقي وراء ذلك الإحساس الذي انتابني. تخيلت أنني حين كنت طفلة سمعت منه أموراً تتعلق بحياتي وأنني سألتقي به مرة

أخرى عما قريب. وأنني مضطرة لأن أعصر ذهني لصياغة الأسئلة السليمة.. لكي أعرف ماذا أسأل بيريز سمولنسكين. وفي الحقيقة كل ما كان عليَّ أن أفعله هو تأثير تشارلز ديكنز على قصص سمولنسكين. تعودت أن أجلس كل يوم بعد الظهر إلى طاولة معينة بمكتبة تيرا ـ سانتا وأنا أطالع في نسخة إنكليزية قديمة كتاب دايفيد كوبرفيلد. كوبرفيلد الطفل اليتيم عند ديكنز يشبه تماماً يوسف الطفل اليتيم في مدينة «مدمينه» في قصة بيرتز سمولنسكين. قاسى كلاهما، وذاقا أنواعاً شتى من العذاب. وصادف كلاهما على طريق الحياة أناساً غلاظ القلوب قساة من كل شرائح المجتمع. أشفق كلا الكاتبين على الأيتام، ولم يعرفا الشفقة على المجتمع. كنت أجلس مستغرقة الذهن تماماً لمدة ساعتين، أو ثلاث أقرأ عن المعاناة والقسوة.. كأن هذه الأشياء ديناصورات انتهى عصرها، ولم يعد لها وجود. كأن هذه المعاناة والظلم والقسوة خرافات انتهت في عصور غابرة. عصور لم تكن لتهتم بالقواعد الأخلاقية، وأنني أعرف هذه الأشياء من قبيل الثقافة العامة. في تلك السنين كان هناك أمين مكتبة يعمل في قبو مبنى تيرا ـ سانتا، كان رجلاً عجوزاً قصير القامة يضع على رأسه قبعة. كان يعرف اسم عائلتي قبل الزواج وبعده. ومن المؤكد أنه فارق الحياة حالياً. كنت أشعر بسعادة عندما كان يقول لي:

«هل تدركين أن السيدة حنه غرينباؤم غونين. عندما تختصر الأحرف الأولى من اسمها سيكون حجج[1]، وإنني أدعو الله أن يجعل أيام السيدة كلها أعياداً».

---

(١) حجج: بمعنى عيد في اللغة العبرية، وكلمة حج بالعبرية معناها عيد.

انتهى شهر مارس/ آذار وانقضى نصف شهر أبريل/ نيسان شهدت القدس شتاءً طويلاً وقاسياً عام ١٩٥٠.

مع الغروب كنت أقف في النافذة أنتظر عودة زوجي. أتنفس على الزجاج حتى يتكوّن عليه بخار. ثم أرسم عليه بأصابعي قلباً بسهم يخترقه، ويدين متشابكتين وحروف «ح. ج»، «م ـ ج»، «ح. م». وأحياناً أشكالاً أخرى. وعندما يظهر شبح ميخائيل في نهاية الشارع كنت أسرع في مسح السطور كلها بكف يدي. من على بعد كان ميخائيل يخطئ الظن في أنني ألوح له بيدي.. فكان يلوح بيده هو الآخر، وعندما يدخل البيت تكون كف يدي لا تزال رطبة وباردة على أثر مسحي لزجاج النافذة، وقد أحب ميخائيل أن يقول:

«يدان دافئتان وقلب بارد، يدان باردتان وقلب دافئ».

وصلنا طَرْد من كيبوتس نوف ـ هاريم يحوي سترتين حاكتهما لنا ملكاه أمي. سترة بيضاء لميخائيل ولي سترة ـ كنزة ـ من الصوف الأزرق الرمادي كلون عينيه الهادئتين.

١٠

هاجم الجبال ربيع مفاجئ ذات يوم سبت سماؤه زرقاء. ذهبنا في نزهة مشياً على الأقدام من القدس إلى طيرات ـ ياعر. غادرنا المنزل في السابعة صباحاً، ومشينا إلى طريق قرية «ليفتا»[١]. كانت أصابعنا متشابكة. كان صباحاً مشرقاً بسماء صافية زرقاء. التقت قمم الجبال مع السماء الصافية الزرقاء كأنها خطوط رسمتها فرشاة رسام، دقيقة. واختبأت في شقوق الصخور نباتات بخور مريم[٢] (الزفزفيا)، تألقت شقائق النعمان على المنحدرات الجبلية. وكانت الأرض رطبة ندية. لا تزال بعض مياه الأمطار في فجوات الصخور. أشجار الصنوبر نظيفة بعد أن غسلتها الأمطار. من بعيد ظهرت شجرة سرو وحيدة. كأنها تتنفس في وجد وهي واقفة على أطلال القرية العربية المهجورة كولونيا. توقف ميخائيل في عدة أماكن ليريني التركيبات الجيولوجية، وليشرح لي أسماءها. هل أعرف أن بحراً قديماً غطى هذه الجبال قبل مئات الآلاف من السنين؟ «في نهاية العالم سيغطي البحر القدس مرة أخرى» قلت ذلك بإصرار. ضحك ميخائيل وتساءل:

---

(١) ليفتا: اسم قرية عربية عند مدخل القدس الشمالي.

(٢) بخور مريم: نبات عشبي جميل الزهر.

«هل تعيش حنه هي الأخرى مع الأنبياء؟».

كان مرحاً ويقظاً. من مرة إلى أخرى كان يحمل حجراً، ويتحدث إليه بلهجة جادة كما لو كان يوبخه. على سطح جبل القسطل جاء طائر ضخم ربما نسر أو عقاب، وأخذ يدور فوق رؤوسنا. «لم نمت بعد» قلت وأنا مبتهجة. كانت الصخور، الأرض النقار، لا تزال زلقة. انزلقت عن عمد لأذكره بدرجات مبنى تيرا ـ سانتا.

حكيت لميخائيل كذلك عما قالته لي السيدة ترنو فولر قبل الزفاف بيومين من أننا في زواجنا كنا كعبدة الأوثان الذين جاء ذكرهم في التوراة. أو كسحب يوم المسافر. عذراء ترى شاباً لم تعرفه من قبل. بل بالصدفة قابلته، وكان بإمكانها أن تقابل شخصاً آخر مختلفاً تماماً بالصدفة أيضاً.

وبعد ذلك قطفت زهرة من نبات بخور مريم (الزفزفيا)، ووضعتها في فتحة زر قميصه. هو ضم كف يدي. يدي كانت باردة وأصابعه دافئة. «عندي مثل سخيف» قال ميخائيل ضاحكاً. لم أنس شيئاً. أن ننسى معناه أن نموت. وأنا لا أريد أن أموت.

ليئوراه صديقة زوجي كان لديها عمل يوم السبت[١] لم تستطع أن تتفرّغ لنا. إنها أرادت أن تطمئن على سعادتنا.. ثم عادت للمطبخ. تناولنا وجبة الغداء في حجرة الطعام، وبعد الظهر استلقينا على النجيل.

---

(١) يوم السبت: وهو العيد الأسبوعي عند اليهود ومدته من غروب الشمس يوم الجمعة إلى غروب الشمس يوم السبت وأهم شعائره الكف عن أي عمل حيث جاء الأمر بذلك صريحاً في الوصايا العشر.

رأس زوجي على ركبتي. أوشكت أن أخبر ميخائيل عن الشيء المؤلم. عن التوأمين: أَلَمَّ بي خوف داخلي ولم أحك شيئاً.

ذهبنا بعد ذلك للتنزه عند عين أكفا ـ بيلا. بالقرب منا، وعلى حافة الحرش الصغير جلس فتيان وفتيات أتوا إلى هنا على دراجاتهم من القدس. كان أحدهم يصلح ثقباً في إطار دراجته الذي انفجر في الطريق. وصلت مسامعنا مقاطع من أحاديثهم.

«الكذب ليس له رِجلان» قال الصبي صاحب الإطار المثقوب في دراجته. «بالأمس كذبت على أبي وقلت له إنني ذاهب إلى الجدناع[1]، ولكني ذهبت لمشاهدة فيلم شمشون ودليلة في دار سينما صهيون، وهل تتخيلون من كان الجالس خلفي بالضبط؟ إنه أبي بشحمه ولحمه». سمعنا أيضاً فتاة تقول لصديقتها إن أختها أستير تزوجت رجلاً من أجل أمواله.. أما هي نفسها فستتزوج عن حب، فالحياة ليست لعبة. أجابتها صديقتها بأنها من جانبها لا تعارض قليلاً من الحب الحر. كيف يمكننا التأكد ونحن في العشرين أن الحب يستطيع الصمود حتى الثلاثين. مدربها في حركة «هاشوميرها تسعير»[2]، قال في أحد أحاديثه إن الحب بين الناس في العصر الحديث.. يجب أن يكون أمرا بَسيطاً وواضحاً. بسيطاً كشرب كوب من الماء. حقاً هي لا تعتقد بأنه من الضروري التصرف باستهتار وطيش. كل شيء يجب أن يكون له حدود. وليس مثل

---

(١) الجدناع: وهي اختصار لألفاظ عبرية معناها (كتائب الشباب) وهي وحدات تضم الشباب قبل سن التجنيد في الجيش لإعطائهم تدريباً عسكرياً مسبقاً.

(٢) هاشومير هاتسعير: ومعناها باللغة العبرية الحارس الصغير، وهي منظمة عالمية للشباب الطليعي، وقد أسسها حزب مابام اليساري.

رفقة التي تُغيّر رجلاً كل أسبوع، ولكن لا تصير مثل داليا التي إذا اقترب بها رجل يسألها فقط عن الوقت يحمر وجهها خجلاً ثم يتلون، وتهرب كأن كل الرجال يحاولون اغتصابها. الحياة طريق يجب أن نعبره في حذر من دون تطرف. لأن من يعيش بلا حساب يموت صغيراً. كما جاء في إحدى روايات إستيفان زفايغ. عدنا إلى القدس في أول أوتوبيس في مساء يوم السبت. هبت ذلك المساء رياح شمالية غربية قوية، وامتلأت السماء بالغيوم. الربيع الذي أشرق في الصباح سرعان ما تبين أنه ربيع زائف. ولا يزال جو القدس شتاءً. لذلك ألغينا البرنامج الذي كنا قد وضعناه لهذا المساء في الذهاب إلى دار سينما صهيون لمشاهدة فيلم «شمشون ودليلة»، وبدلاً من ذلك ذهبنا إلى النوم مبكرين. أخذ ميخائيل يقرأ الملحق بجريدة نهاية الأسبوع.. أما أنا فطالعت في كتاب «دفن حمار» بقلم بيرتز سمولنسكين، وذلك تحضيراً لمحاضرات الغد. كانت شقتنا هادئة جداً وظلف نوافذها مغلقة. مصباح الليل الذي بجانب الفراش ألقى ظلالاً لم أرغب في النظر إليها. سمعت صوت تنقيط الحنفية في المطبخ. استوعبت تواتر سقوطها. وفي وقت متأخر مرّت بشارعنا مجموعة من الأولاد في طريق عودتهم من نادي الشباب الدينيين. بمرورهم بالقرب من منزلنا سمعتهم ينشدون:

«البنات كلهن من عمل الشيطان الرجيم».

«في ما عدا واحدة أكره كل الحريم».

وتصايحت الفتيات بأصوات رقيقة.

أبعد ميخائيل جريدته وسأل: «هل يستطيع أن يزعجني؟» بوده أن يقول شيئاً ما. «لو كانت لدينا أموال كان بإمكاننا أن نشتري مذياعاً.

وقتها نستطيع الاستماع إلى الكونسرت ـ حفلة موسيقية ـ ونحن في البيت. لكن بسبب الديون لن نستطيع شراء المذياع هذا العام. ربما تدفع العجوز المقترة سارة زلدين لك راتباً أعلى الشهر القادم».

«على فكرة، السباك الذي أصلح ماسورة المياه الساخنة كان بحق رائعاً. لكنها عادت إلى سيرتها الأولى».

أطفأ ميخائيل نور المصباح الجانبي، وقد جنحت يده في الظلام. لتحسس يدي. لم تتعود عيناه بعد على ذلك الضوء الباهت الذي يتسرت من خلف النافذة. ولهذا خبط ذراعه أسفل ذقني الأمر الذي جعلني أطلق أنة ألم. ميخائيل طلب أن أسامحه. ربت على شعري. كنت متعبة، ومشتتة الذهن. ألصق خده بخدي. أمضينا اليوم في نزهة طويلة وجميلة، لهذا لم يكن لديه الوقت لحلاقة ذقنه. شعرت بوخز نبتات شعره في جلدي. وهنا لا زلت أتذكر لحظة سيئة كنت فيها مثل عروس في نكتة فاضحة: عروس من الجيل السابق لم تكن تعرف لماذا يلتصق بها العريس أثناء النوم. أليس السرير الذي يتسع لاثنين كافياً. كانت تلك لحظة مخزية.

في الليل حلمت عن السيدة ترنو فولر. كنا في مدينة بالسهل. ربما كانت حولون. ربما في شقة والد زوجي. أعدت السيدة ترنو فولر شاياً بالأعشاب مذاقه كان مراً ومقيتاً. تقيأت، واتسخ فستان زفافي الأبيض. ضحكت السيدة ترنو فولر بصوت أجش. تباهت بأنها قد حذرتني. حذرتني من قبل وأنا لم أكترث بكل التلميحات. انقض طائر شرير بمخالبه الخطافية الحادة. لمست المخالب عيني استيقظت مذهولة. حركت ميخائيل في ذارعه. ميخائيل قام غاضباً من نومه، وتمتم بكلمات

مفادها أنني قد خرجت من عقلي، وأن أتركه فهو مضطر لأن ينال قسطاً من النوم.. ففي انتظاره يوم صعب غداً. أخذت قرصاً منوماً. وبعد ساعة أخذت قرصاً ثانياً، وأخيراً نمت مهمومة.. وكأني قد أغمي عليّ أثناء الليل وفي الصباح كانت درجة حرارتي مرتفعة قليلاً. لم أذهب للعمل.. تشاجرت مع ميخائيل عند الظهر استخدمت ألفاظاً مهينة. إلا أن ميخائيل كبح جماح غضبه وسكت. تصالحنا قبل حلول المساء. وضع كلٌ منا اللوم على نفسه بالبدء في الشجار. جاءت لزيارتنا صديقتي هاداساه مع زوجها. زوجها يعمل في الاقتصاد. دار جدال حول سياسة التقشف. في رأي زوج هاداساه أن الحكومة تعمل وفقاً لافتراضات سخيفة. كما لو أن دولة إسرائيل بأكملها ليست سوى حركة شبيبة واحدة.. حركة كبيرة. قالت هاداساه إن مقاولي السياسة يعملون لصالحهم، ولصالح عائلاتهم فقط. وضربت مثالاً على ذلك حادثة رشوة شهيرة.. تناقلتها الألسن في القدس. فكر ميخائيل قليلاً ثم أبدى ملاحظاته بحذر وقال: الخطأ هو أن نطالب في حياتنا بمطالب كبيرة، وقتها لم أستطع أن أفهم هل يقول ذلك لمصلحة الحكومة؟ أم معرباً عن موافقته مع الضيوف؟ سألته عن قصده. ابتسم ميخائيل كأنني لم أطلب منه أي إجابة غير ابتسامته. قمت، وخرجت إلى المطبخ لإعداد القهوة والشاي والكعك. استطعت أن أسمع عبر الأبواب المفتوحة كلمات صديقتي هاداساه. امتدحتني أمام زوجي، وحكت له أنني كنت أفضل تلميذة في الصف. وأكثرهن سعة في الأفق. بعد ذلك تحول الحديث حول الجامعة العبرية. جامعة حديثة العهد إلى هذا الحد، ومع ذلك يديرونها بأكثر الطرق أصولية.

١١

في شهر يونيو/ حزيران أي بعد زواجنا بثلاثة شهور حبلت. لم يشعر ميخائيل بسعادة حين أخبرته عن حبلي. عاد ليسألني مرتين إذا كنت متأكدة من الأمر. قرأ ذات مرة قبل الزواج في كتاب للدكتور ساتمون بأن الخطأ في التشخيص حول هذا الأمر سهل وخصوصاً في المرة الأولى للحبل، ولذلك فلربما اختلطت الأمور عليّ. عندما قال ذلك قمت وخرجت إلى الحجرة الثانية. استمر واقفاً في مكانه أمام المرآة يحلق المكان الحساس الذي بين شفته السفلى، وذقنه. ربما أخطأت عندما اخترت التحدث إليه في الوقت الذي وقف فيه ليحلق ذقنه.

في صباح اليوم التالي جاءت العمة جينيه من تل أبيب، وهي طبيبة أطفال. اتصل بها ميخائيل هاتفياً هذا الصباح وتركت كل ما في يدها وسافرت فوراً. تحدثت العمة جينيه معي بقسوة، اتهمتني بانعدام المسؤولية، وبأنني أدمر كل مجهودات ميخائيل في التقدم وإحراز نجاح في الحياة، ألم أدرك بعد أن تقدم ميخائيل هو مصيري. ومتى يحدث الحبل؟ تماماً قبل موعد امتحانه النهائي في الجامعة.

«كأنك طفلة رضيعة. تماماً كطفلة رضيعة» قالت العمة جينيه. رفضت العمة البقاء للمبيت عندنا. تركت كل شيء، وأسرعت كالحمقاء

إلى القدس. وهي نادمة على مجيئها. إنها نادمة على أشياء كثيرة. ولكن الأمر كله ليس سوى عملية بسيطة. تستغرق عشرين دقيقة. إنها أمر بسيط، وسهل. كعملية استئصال اللوزتين من حلق طفل. لكن العالم مليء بالنساء المعقدات اللواتي يصعب عليهن فهم حتى أبسط الأمور. «وأنت يا ميخائيل تجلس وأنت صامت كلوح خشب. كأن الأمر لا يعنيك». أحياناً يبدو لها أن لا معنى لتضحيات الجيل القديم بنفسه من أجل الجيل الجديد. ستحتفظ بهدوئها الآن ولن تقول كل ما في جعبتها. سلام عليكما.

خطفت العمة جينيه قبعتها البنية، وخرجت. ظل ميخائيل صامتاً، فاغراً فاه قليلاً. كطفل استمع لتوه إلى قصة رعب، أما أنا فدخلت المطبخ. أغلقت الباب ورائي، وأخذت أبكي، وقفت أبرش الجزر إلى جانب المطبقية. رششت على الجزر سكراً وخلطته ببعض عصير الليمون وبكيت. لو كان زوجي قد دق على الباب، لم أكن لأجيب إلا أنني شبه متأكدة أن ميخائيل لم يدق الباب.

بعد عام من زواجنا جاء ابننا يائير في مارس/ آذار من عام ١٩٥١ بعد حبل سيئ.

مع بداية حبلي في شهور الصيف ضاعت مني بطاقتنا التموينية في الشارع. إذ من دونها لم يكن ممكناً شراء الحاجيات الضرورية من الغذاء. وعلى عدة أسابيع ظهرت على جسمي أعراض نقص الفيتامينات. رفض ميخائيل شراء حتى ذرة ملح من السوق السوداء. ورث هذا المبدأ من أبيه يحزقائيل. نوع من الولاء المخلص، والمتفاني لقوانين دولتنا. حتى بعد أن استخرجنا بطاقتي تموين جديدتين استمرت معاناتي من

مضايقات مختلفة. ذات مرة أصابني دوار ووقعت في فناء روضة أطفال سارة زلدين. قرر الطبيب أنه يجب ألاّ أستمر في العمل. كان ذلك قراراً صعباً لأن وضعنا المالي كان في منتهى الصعوبة. أمر الطبيب بإعطائي حقنة خلاصة الكبد ومحلول الكالسيوم، لازمني الصداع طوال الوقت. أحسست بأن في رأسي بالقرب من صدغي اليمين شظية من معدن بارد. تزايدت الأحلام، وأصبحت مصدر عذاب. كنت أستيقظ من نومي وأنا أصرخ. أعلم ميخائيل عائلته في خطاب بأنني اضطررت للتوقف عن العمل. وعن العذاب النفسي الذي يلاحقني. بفضل جهود زوج هاداساه أعز صديقاتي حصل ميخائيل على قرض متواضع من صندوق إعانة الطلبة. وصل خطاب مسجل من العمة جينيه في نهاية أغسطس/ آب لم تكلف خاطرها بكتابة حتى سطر واحد.. بل وجدنا شيكاً فقط في داخل الظرف بمبلغ ثلاثماية ليرة. قال ميخائيل:

إذا كانت كرامتي تضطرني لإعادة النقود فهو مستعد للتوقف عن الدراسة والبحث عن عمل. القرار قراري في أن أعيد للعمة نقودها. قلت له إنني لا أحب كلمة كرامة، وأنني قررت قبول المبلغ شاكرة. في هذه الحالة طلب مني ميخائيل ألا أنسى أنه من جانبه مستعد للتخلي عن الدراسة، والبحث عن عمل. «سأتذكر ذلك يا ميخائيل، إنك تعرفني... أنا لا أنسى». توقفت عن حضور المحاضرات في الجامعة. لن أعود مرة أخرى لدراسة الأدب العبري. دونت في دفتر ملاحظات محاضراتي بأن قدراً كبيراً من اليتم يسود معظم أعمال شعراء عصر النهضة التنويري العبري. ما مصدر هذا اليتم وما طبيعته؟ من أين لي أن أعرف؟

أعمال البيت أيضاً أهملتها. قضيت معظم ساعات الصباح جالسة

بمفردي في شرفتنا الصغيرة التي أطلت على فناء خلفي مهجور. كنت أستريح على الكرسي الفوتيه، ألقي بفتات الخبز للقطط. أحببت النظر إلى أطفال الجيران، وهم يلعبون في الفناء، كان المرحوم أبي يردد أحياناً بعض الألفاظ: انظر واسكت! كنت أنظر وأصمت، لكن في ما وراء الصمت والنظر اللذين قصدهما أبي.

ما هو المغزى الذي يجده أطفال الفناء في منافساتهم التي تجعل الأنفاس تلهث. اللعبة متعبة، والانتصار لا معنى له: ما الذي يتوقعه المنتصر؟ يأتي الليل ويعود الشتاء.. تسقط الأمطار، فتمحو كل شيء. ستهب على القدس رياح قوية. ربما ستقع حرب. تتوالى لعبة الاستغماية (الغميضة) على نحو سخيف. أراهم جميعاً من شرفتي. من ذا الذي بإمكانه أن يستتر أو أن يتوارى حقاً؟ من ذا الذي في نيته أن يفعل ذلك؟

كم هي غريبة هذه الحماسة. استريحوا أيها الأطفال المتعبون والمعذبون! الشتاء ما زال بعيداً. لكنه ينظم قواه من الآن، والمسافات في الزمن خادعة.

كنت أستلقي في الفراش منهكة القوى وكأنني قمت بأعمال مضنية.. حتى الصحيفة لم يكن بمقدوري قراءتها. ميخائيل كان يخرج في الثامنة صباحاً، ويعود في السادسة مساءً. صيفاً كان. لم أستطع أن أنفث بخاراً على زجاج النافذة.. لأرسم أشكالاً عليها.. لكي تخفف العبء عن كاهلي. عاد ميخائيل إلى سيرته الأولى. أصبح يتناول وجبة الغداء مع زملائه الطلبة غير المتزوجين في مطعم الطلبة الواقع بنهاية شارع مانيلا.

كان ديسمبر/ كانون الأول هو شهر حبلي السادس. دخل ميخائيل امتحان البكالوريوس. نجح بمجموع جيد. لم أهتم بفرحه. فليفرح بنفسه

كما يشاء، وليتركني أنا لحال سبيلي. في شهر أكتوبر/ تشرين الأول كان زوجي قد بدأ يتلقى محاضرات لنيل درجة الماجستير ـ في المساء ولدى عودته منهكاً يتطوع بالذهاب إلى البقال، أو إلى بائع الخضار أو إلى الصيدلية. اضطر ذات مرة أن يتخلى بسببي عن حضور تجربة معملية مهمة حين طلبت الذهاب إلى عيادة صندوق المرضى ليتسلم نتائج فحصي الطبي. ذلك المساء كسر ميخائيل جدار الصمت الذي أحاط نفسه به. حاول أن يشرح لي أن حياته هو الآخر ليست سهلة، ويجب ألا أتصور أنه يلعق الشهد طوال الأيام كما يقولون.

«أنا لا أظن ذلك أيضاً يا ميخائيل».

إذاً فلماذا أعامله، وكأنه مذنب؟

وهل أنا أعامله كمذنب؟ عليه أن يدرك أنه ليس بمقدوري أن أكون رومانسية في هذه الفترة.. فحتى فستان للحبل ليس لديَّ. لا زلت كل يوم أرتدي ملابسي العادية، وهي لم تعد مريحة ومناسبة.. كيف يكون بمقدوري أن أبدو جميلة ورائعة؟

لا لم يطلب مني. ليس الجمال هو الشيء الذي افتقده فيَّ. إنه يطلب مني ويلح عليَّ في الرجاء أن أسدي له معروفاً. ألا أكون جامدة وهستيرية.

الواقع أنه أثناء حبلي ساد بيننا نوع من العلاقة الباردة. كنا كمسافرين جمعت الأقدار بينهما على مقعد مشترك في رحلة طويلة بالقطار. كل منا مجبر على أن يبدي اعتباراً للآخر ويعامله بما تقتضي اللباقة، والأخلاق الحميدة. لا فرض لرأي أحدنا على الآخر، ولا تدخل في شؤونه. لا ينبش أحدنا وأن يكون كل منا مهذباً ومتحفظاً مع الآخر. ربما أيضاً كان

يقوم أحدنا بالترفيه عن الآخر بين الفينة والأخرى بأحاديث ودية، لا تتطلب بذل أي جهد، ومن دون أية مبالغات حتى إبداء التعاطف قد يحدث في فترات معينة.

وراء نوافذ القطار بدت مناظر عابثة، ومسطحة. صحراء صفراء. وشجيرات منخفضة، لو طلبت منه إغلاق النافذة.. لأسعده ذلك.

كان ذلك توازناً شتائياً حذراً، ومجهداً. تماماً كهبوط درجات سلم زلق من المطر. بودي أن أستريح، وأن أستريح.

إنني اعترف بأنني غالباً ما أخللت هذا التوازن، ولولا يد ميخائيل الثابتة كنت سأنزلق ساقطة. بعجرفة جلست صامتة ليالي بطولها كأني وحيدة في البيت. لو سألني ميخائيل عن صحتي كنت أجيبه: «وماذا يهمك؟».

لو استاء ولم يسأل عن صحتي صبيحة اليوم التالي كنت أتهمه بأنه لم يسأل عن صحتي لكونه غير مهتم. مرة أو مرتان في بداية الشتاء أخجلت زوجي ببكائي، ووصفت ميخائيل بأنه شرير.. كما اتهمته بانغلاق الذهن، واللامبالاة. فنَّدَ ميخائيل التهمتين بكلمات مهدئة. وبصوت منخفض موزون كان صبوراً وحذراً في حديثه إليّ. تحدث بطريقة موزونة علمياً كأنه هو الذي اتهمني وأنا جديرة بالمصالحة. عاندت كطفلة متمردة. كرهته حتى انقبض حلقي ثم تقيأت لإخراجه من هدوئه.

هادئ. ومتزن كان ميخائيل حين مسح الأرضية. عصر الخرقة، ونشف الحجرة مرتين. بعد ذلك سألني إذا كنت أشعر بتحسن. سخّن لي حليباً وأزاح القشدة التي كنت أكرهها بشكل خاص. اعتذر لأنه سبّب لي

غضباً، وأنا في هذه الحالة الخاصة. طلب مني أن أشرح ماذا أغضبني بالضبط حتى يتفادى خطأه في المستقبل. ثم نزل إلى الشارع لشراء صفيحة من الكيروسين. قبيحاً صار منظري في الأشهر الأخيرة من حبلي. لم أعد أجرؤ على النظر في المرآة. لأنه على بشرة وجهي ظهرت بقع سود. أيضاً كنت مجبرة على ارتداء جوارب مطاطية في رجلي لأن الأوردة انتفخت ربما صرت الآن أشبّه بالسيدة ترنو فولر أو بساره زلدين العجوز.

«هل أنا قبيحة في عينيك يا ميخائيل؟».

«أنت غالية عندي يا حنه!».

«إذا لم أكن قبيحة في عينيك فلماذا لا تضمني إليك؟».

«لأنك ستنفجرين في البكاء وتقولين بأني أنافق. لقد نسيت يا حنه ما طلبته مني في هذا الصباح. لقد طلبت ألا ألمسك، ولهذا لا ألمسك». حين لا يكون ميخائيل في البيت يعود بي الحنين لأيام كنت طفلة صغيرة. لأن أكون مريضة جداً.

١٢

كتب يحزقائيل العجوز خطاباً من السجع المقفى، إلى ميخائيل مهنئاً إياه بنجاحه في الامتحان النهائي. كلمة «نجاح في الامتحان» تأتي على قافية «خبر سار رنان»، وعلى قافية «يا لسعادة حنه الصغيرة» (في اللغة العبرية) بعد أن قرأ الخطاب على مسامعي كشف لي ميخائيل أنه كان يتمنى من أعماق قلبه أن يتلقى مني هدية رمزية، ولو صغيرة. ربما غليون جديد بمناسبة حصوله على البكالوريوس. حين قال ذلك كانت ابتسامته خجلة ومخجلة. هذه الكلمات أغضبتني.. كما أغضبتني ابتسامته. ألم أخبره مرات كثيرة.. أن في رأسي صداعاً فظيعاً.. كأنهم دفنوا بداخله شظية من المعدن البارد! لماذا يفكر في ذاته دائماً، ولا يهتم بي. ثلاث مرات تخلى ميخائيل بسببي عن الذهاب إلى رحلات علمية مهمة شارك فيها كل زملائه. رحلة لجبل المنارة التي ظهرت فيه رواسب الحديد الخام. وأخرى إلى الوهدة الكبيرة بصحراء النقب. وثالثة إلى معامل البوتاس في سدوم. في هذه الرحلات اشترك زملاؤه المتزوجون. لم أشكر ميخائيل لتنازله ولكن حدث أن علق بذاكرتي بيتان كنت نسيتهما من أغنية أطفال معروفة بطلها صبي اسمه ميخائيل:

الصبي ميخائيل ظلّ يرقص خمس سنين

خمس سنوات وفي السادسة قال وداعاً أيتها الحمامة البريئة.

انفجرت في الضحك، رفع إليّ ميخائيل عينين مليئتين بالدهشة المأسورة: لم يرني سعيدة على فترات متقاربة، بوده أن يعرف ما الأمر الذي أسعدني فجأة. أنظر إلى عينيه المليئتين بالدهشة، وأنفجر في ضحك مرتفع. وانغمس هو في التفكير الصامت، ومع نهاية ثلاث دقائق أسرَّ شيئاً ما في قلبه ثم بدأ يحكي نكتة سياسية سمعها اليوم في مطعم الطلبة. جاءت ملكاه أمي من مستوطنة نوف ـ هاريم بالجليل الأعلى.. لتظل معنا إلى أن أضع مولودي، ولتقوم بأعمال البيت. بعد موت أبي عام ١٩٤٣ انتقلت أمي للعيش في مستوطنة نوف ـ هاريم، ومنذ ذلك الحين لم يتح لها القيام بالأعمال المنزلية. كانت نشيطة، ومتحمسة جداً. بعد وجبة الغداء الأولى التي طهتها لنا فور وصولها قالت أمي لميخائيل: إنها تعرف أنه لا يحب الباذنجان، وها هي جعلته يأكل ثلاثة أطباق مختلفة من الباذنجان من دون أن يشعر. يمكن أن تحدث في الطهو معجزات. هل هو حقاً لم يشعر بطعم الباذنجان؟ ألم يشعر أبداً؟

اعترف ميخائيل بأدب: إطلاقاً إطلاقاً لم أميز الطعم.. يمكن أن تحدث في الطهو معجزات.

أثقلت أمي كاهل زوجي بمشاوير كثيرة. جعلت طعم حياته أكثر مرارة بإصرارها العنيد على مراعاة التقاليد، والعادات الصحية. عليه غسل اليدين. محظور وضع نقود معدنية على طاولة يأكل عليها الناس. علينا إنزال الشبكة السلكية من النوافذ لتنظيفها بشكل أساسي. ولكن بحق كم من الدهشة يسبب لها؟ لا ليس في الشرفة من فضلك. سيعود الغبار كله من جراء الريح ليتبعثر في الشقة بأكملها، ليس في الشرفة، ولكن تحت في الفناء. نعم هكذا الآن على ما يرام.

كانت تدرك أن ميخائيل تربى يتيماً من دون أم، ولهذا فهي ليست غاضبة عليه ومع ذلك من الصعب عليها أن تفهم كيف يكون متعلماً.. مثقفاً، وجامعياً وبعدها لا يدرك أن العالم مليء بالفيروسات. امتثل ميخائيل لأوامرها.. كطفل حسن التربية.. في ما يمكنه المساعدة، هل مسموح له.. ألا يزعج. نعم سينزل لشراء الحاجيات. بالطبع سيسأل بائع الخضار. حسناً سيحاول جاهداً أن يعود مبكراً من الجامعة وسيأخذ معه قائمة المشتريات. لا. لن ينسى. فقد دوّن الطلبات على ورقة. هو يوافق. سيتخلى عن رغبته في شراء المجلدات الأولى من دائرة المعارف العبرية الجديدة. لا داعي لذلك، يدرك جيداً أن علينا جميعاً الاقتصاد في الإنفاق إلى أقصى درجة.

في ساعات المساء يعمل ميخائيل في وظيفة جزئية ـ بعض الوقت ـ يساعد أمين مكتبة العلوم الطبيعية مقابل راتب ضئيل. أضايقه بأنه حتى في المساء لا أحظى برؤية وجه جلالته. تخلى زوجي حتى عن تدخين الغليون، لأن ملكاه أمي لا تتحمل رائحة التبغ المحروق. كما أنه مقتنع أيضاً بأن الدخان يضر بصحة الجنين.

وحين يجد أنه من الصعوبة عليه بمكان أن يتماسك من جراء عدم التدخين كان زوجي ينزل إلى الشارع ويقف تحت عمود النور يدخن غليونه لمدة ربع ساعة كأنه شاعر خرج يبحث عن الإلهام. ذات مرة وقفت في النافذة، وتطلعت إليه من بعيد. على ضوء مصباح الشارع، رأيت شعر رقبته القصير، ودوائر من الدخان دارت حوله كأنه شبح حضر لتوه من الموت.

تذكرت كلمات قالها لي ميخائيل منذ زمن طويل: القطط لا تخطئ

في حكمها على الآدميين. كلمة كاحل تروق له. كنت في عينيه مقدسية جميلة وباردة: وأنه شاب عادي في رأيه. قبل أن يلقاني لم تكن له صديقة واحدة دائمة. حين يهطل المطر ينفجر ضاحكاً في سره. تمثال الأسد الموجود بقمة مبنى جنرالي. تتورم العواطف وتصبح ورماً خبيثاً حين يشبع الناس، ولا يجدون ما يفعلونه. القدس مدينة تبعث الحزن.. لكن في كل ساعة وفي كل موسم تثير القدس حزناً مختلفاً. مضى زمن طويل منذ ذلك الحين. كل هذه الكلمات نسيها ميخائيل. فقط أنا أرفض أن أتنازل ولو عن ذرة واحدة لمخالب الزمن البارد. إنني أتساءل: ما هو السحر الذي يفعله الزمن في الكلمات السخيفة؟

يوجد في العالم نوع من التفاعلات الكيميائية وهي اللحن الداخلي لحياتي. لم يكن المدرب في حركة «هاشومير هاتسعير» صادقاً حين قال للفتاة التي كانت إلى جوارنا عند عين أكفا ـ بيلا إن الحب بين الناس في العصر الحديث سيتحول إلى أمر في منتهى البساطة. تماماً كشرب كوب من الماء، وصدق ميخائيل حين قال لي ذات ليلة، ونحن نسير بشارع جيئولا إن الرجل الذي سيتزوجني عليه أن يكون في منتهى القوة. في تلك اللحظة أحسست بأنه رغم وقوفه تحت عمود النور يدخن وكأنه طفل طردوه من البيت لأنه أغضبهم. ليس من حقه إلقاء لوم عذابه على كاهلي.. لأنني قريباً سأموت ولست مضطرة للاهتمام به. أطفأ ميخائيل غليونه وعاد إلى البيت. أسرعت إلى الاضطجاع على السرير مديرة وجهي ناحية الحائط. طلبت منه أمي أن يفتح لها علبة من الصفيح. أجابها ميخائيل أنه سيفعل ذلك بكل سرور. تعالى صوت سيارة إسعاف في شارع بعيد.

وفي ذات ليلة، وبعد أن أطفأنا الأنوار في صمت. همس لي ميخائيل أنه يبدو لي أحياناً أنني لم أعد أحبه. قال ذلك بهدوء وكأنه يتلو اسم محجر معروف.

قلت:

«يحزنني.. هذا كل ما هنالك».

أبدى ميخائيل تفهماً لظروفي الخاصة، صحتي متدهورة.. الأوضاع الصعبة، وربما استخدم ميخائيل في ذلك الحديث عبارات: علم النفس البدني. التفاعل بين الظواهر الجسدية، والظواهر النفسية. طوال الشتاء هبت ريح عاصفة على قمم أشجار الصنوبر بالقدس وحيث تسكن الريح لا يبقى أي أثر على الصنوبر. أنت غريب يا ميخائيل إنك تلازمني الفراش أثناء الليل، وأنت غريب.

١٣

في شهر مارس/ آذار من عام ١٩٥١ ولد ابننا يائير. الاسم يوسف. اسم أبي الحبيب أعطاه أخي عمانوئيل لابنه. أما ابني فقد كان له اسم مركب هو يائير زالمان غونين على اسم جد زوجي. أتى إلينا في القدس يحزقائيل غونين صبيحة يوم الولادة. أحضره ميخائيل لزيارتي في عنبر الولادة بمستشفى شعارى تسيدق[١]، كان مستشفى معتماً مظلماً.. كئيباً.. تم بناؤه في القرن الماضي. مقابل سريري تساقطت طبقة الجص من الحائط شظايا متناثرة. كنت أنظر فأرى أمامي على الحائط صوراً غريبة قد تكشفت حيث تشكلت سلسلة جبال شاهقة، أو مجموعة من النسوة الكئيبات تجمدن في تشنج هستيري. وقد كان يحزقائيل غونين معتماً، وكئيباً.. جلس إلى جانب سريري وقتاً طويلاً قابضاً على كف يد ميخائيل، وبمزيد من الملل أخذ يعدد لنا متاعبه. كيف وصل هذا الصباح من حولون للقدس، ومن محطة الأوتوبيس ضلّ الطريق إلى حي مئاه شعاريم بدلاً من الذهاب إلى حي ميكور باروخ. هناك في مئاه شعاريم وجد زوايا بين درجات ملتوية، وحبال الغسيل المتدلية ذكّرته بالأحياء الفقيرة في مدينة رادوم ببولندا، ليس بمقدورنا أن نتخيل.. قال

---

(١) شعارى تسيدق: ومعناها باللغة العبرية أبواب الرحمة.

يحزقائيل كم كان حزنه، اشتياقه لنا بالغاً، وكم كان أسفه شديداً، وهكذا وصل إلى مثاه شعاريم وسأل هكذا، وكذا، كذا. فأجابوا بكذا وكذا، وعاد وسأل فعادوا ليدلوه على الطريق الخطأ. لم يكن ليصدق أن الأولاد اليهود المتدينين قادرون على مثل هذه الألاعيب، أو ربما هناك سحر في أزقة القدس. وأخيراً نجح في الوصول إلى البيت منهكاً وقد خارت قواه. حتى هذا النجاح لم يكن إلا بمحض الصدفة، وأخيراً خير.. الصبر مفتاح الفرج كما يقول المثل. ليس هذا هو الأساس. المهم هو أن بودّه تقبيل جبيني ـ هكذا ـ ناقلاً لي أطيب أمانيه، وأماني العمات الأربع، وأن يعطيني مظروفاً مغلقاً فيه مبلغ ١٤٧ ليرة هي كل مدخراته. أما الزهور فقد نسي شراءها لي، وهو يتوسل أن نسمي حفيده زالمان. قال ذلك، وهو يلوح بقبعته البالية من أجل بعض الهواء على وجهه المتعب. ثم تنهد كأنه أزاح الهم عن قلبه. لماذا زالمان؟! بوده أن يشرح لي الأمر باختصار شديد. لديه عاطفة تجاه هذا الاسم، هل يزعجني بكلامه؟ وهكذا فهي العاطفة أن زالمان جانيتس كان والده. جد ميخائيل حبيبنا. زالمان جانيتس كان يهودياً فريداً. من واجبنا أن نحافظ على بقاء اسمه، كما تعود اليهود أن يقولوا. أعني كان مدرساً ومعلماً من الطراز الأول. مدرساً للعلوم الطبيعية في المعهد العبري للمعلمين بجردونو[١].

---

(١) جردونو: مدينة تقع في جمهورية ليتوانيا التي كانت خاضعة للاتحاج السوفياتي حتى آخر عام ١٩٩١، وكانت هذه الجمهورية تابعة لبولندا سابقاً، وكانت في جردونو أكبر جالية يهودية في ليتوانيا حيث كان للجالية اليهودية بالمدينة معبداً كنيساً ومقبرة خاصة بهم، وكان اليهود الذين يعيشون فيها يعملون بالحرف والتجارة والزراعة إلا أنهم طردوا من المدينة على إثر نوبة عارمة ضد اليهود شملت ليتوانيا كلها في عام ١٤٩٥، وصودرت ممتلكاتهم، لكن بعد ذلك سمح لهم بالعودة إلى المدينة والمطالبة بأملاكهم كلها في=

منه ورث ميخائيلنا العبقرية العلمية، وبهذا نصل إلى الأساس أنه ـ يحزقائيل ـ يطلب من صميم قلبه، لم يطلب منا شيئاً من قبل إطلاقاً، على فكرة متى يسمحون لنا بإلقاء نظرة على الرضيع؟ نعم لم يسبق له أن طلب منا أي طلب. دائماً أعطى وأعطى كل ما ملكت يداه. والآن هو يطلب من ولديه العزيزين.. هذا الطلب الكبير، الطلب الشجاع، أن نطلق على حفيده اسم زالمان.

قام يحزقائيل، وخرج إلى الردهة ليتسنى لنا التشاور في ما بيننا فهو عجوز ضيق الصدر. لم أعرف هل أصرخ أم أضحك. اقترح ميخائيل بحذر بالغ أن نسجل في شهادة الميلاد الاسم المزدوج يائير ـ زالمان يقترح لكنه لا يطالب ويبقى القرار النهائي بيدي، وإلى أن يكبر الولد.. يرى ميخائيل أنه من الأفضل ألا نكشف لأي شخص عن الاسم الثاني، حتى لا تتعقد حياة ولدنا. أنت حكيم يا ميخائيلي! كم كنت حكيماً! داعب زوجي خدي، وسأل ما هي الأشياء الإضافية التي عليه شراؤها، وإحضارها للبيت. بعد ذلك تركني وخرج إلى الردهة لكي يزف إلى أبيه البشرى. إنني أفترض أن زوجي امتدحني أمام والده. لأنني وافقت

=عام ١٥٠٣، في القرن السادس عشر أصبحت جردونو مركزاً للدراسات اليهودية، ومع نهاية القرن ظهرت في المدينة عدت مدارس يهودية تقوم بتدريس الدين اليهودي.. كما أن أول كتاب ظهر باللغة العبرية في ليتوانيا كله تم طبعه في جردونو عام ١٧٨٨ في المطبعة الملكية. انتقلت جردونو إلى السلطة الروسية مع ثلث الأراضي البولندية عام ١٧٩٥ ووصل عدد السكان اليهود في المدينة إلى ٤.٦٤٪ عام ١٩١٦ من إجمالي السكان ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى نقص عدد اليهود في المدينة لأن السلطات الروسية أجبرتهم على الانتقال إلى المناطق الروسية الداخلية، أو سمحت لهم بالهجرة إلى فلسطين. [الموسوعة اليهودية جودايكا. القدس، دار طباعة كيتر. المجلد السابع، ١٩٧١، ص٩٢٤].

بسهولة على أمر ترفضه أية امرأة أخرى في مكاني، وهكذا. لم أحضر حفل الختان. اكتشف الأطباء مضاعفات بسيطة، ولم يسمحوا لي بمغادرة الفراش. عند الظهر وصلت العمة جينيه إلى المستشفى. الدكتورة جينيه جانيتس ـ كريسبين. كريح مزمجرة أحدثت ضجيجاً في عنبر الولادة. اقتحمت حجرة الأطباء. تحدثت باللغتين الألمانية، والبولندية بصوت صارم، وهددت بنقلي إلى مستشفى بتل ـ أبيب في سيارة إسعاف خاصة.. حيث تعمل هناك نائبة لمدير قسم الأطفال. لديها ادعاء خطير ضد الطبيب الذي يعالجني. تتهمه بالإهمال أمام الأطباء والممرضات. يا للخجل، ويا للعار. تماماً كما يحدث في مستشفيات آسيا. فليسامحنا الرب.

لا أعرف ماذا طلبت العمة جينيه من الطبيب الذي عالجني. وعلام أثارت كل هذه الضجة، إذ إنها اقتربت من سريري للحظة قصيرة، قربت من خدي شفتيها وشاربها الدقيق. وطلبت مني ألا أقلق. وأنها ستتولى الأمر كله بنفسها. ولن تتردد عند الضرورة في إثارة فضيحة تجعلها تصل إلى أعلى المستويات. في رأيها أن ميخانا كسول جداً تماماً، مثل والده يحزقائيلاه. نفس الحاخام. حين قالت العمة جينيه هذه الكلمات الحادة وضعت كف يدها على بطانيتي البيضاء. فرأيت يداً رجالية قصيرة الأصابع، أصابع العمة جينيه كانت متقلصة بشدة كأنما تناضل لاسترجاع أنفاسها في الوقت الذي لمست فيه يداها ستائر فراشي.

لاقت العمة جينيه الأمرين أيام شبابها. إذ سمعت مقتطفات عن سيرتها من ميخائيل. في البداية كانت العمة متزوجة من طبيب أمراض النساء الدكتور ليبا فرويد. فرويد هذا ترك العمة جينيه عام ١٩٣٤ وهرب إلى القاهرة في أعقاب بطلة رياضية من تشيكوسلوفاكيا بعد ذلك وجدوه

منتحراً بشنق نفسه في إحدى غرف فندق شبرد بالقاهرة الذي كان أفخم فنادق الشرق على الإطلاق.

أثناء الحرب العالمية الثانية تزوجت العمة جينيه من ممثل مسرح اسمه ألبرت كيرسبن أصيب هذا الزواج بانهيار عصبي وعندما شفي من مرضه أصيب باللامبالاة، ولا يزال منذ عشر سنين نزيلاً في إحدى المصحات في نهاريا لا يفعل شيئاً سوى النوم والأكل والحملقة، والعمة جينيه هي التي تتكفل بنفقاته من مالها.

أتساءل في ما بيني وبين نفسي لماذا تبدو لنا متاعب الآخرين، وكأنها عذاب في مسرحية غنائية (أوبريت). هل لأنها متاعب الآخرين فقط وليست لنا بها علاقة! المرحوم أبي قال في مناسبات عديدة إنه ليس في مقدور حتى أقوى الأقوياء أن يختاروا ما يريدون، وقالت العمة جينيه لدى خروجها:

«سترين يا حنه هذا الدكتور سيظل يلعن اليوم الذي قابلني فيه. يا له من وغد. حين ننظر إلى هذا العالم نجده لا يزال مليئاً بالحماقة. صاحبتك السلامة يا حنه».

قلت:

«وأنت أيضاً أيتها العمة جينيه! أشكرك. لقد بذلت قصارى جهدك من أجلي».

قالت العمة:

«أي جهد؟! ما هو هذا الجهد؟! دعي هذا الهراء يا حنه! على الناس أن يحافظوا على آدميتهم! وألا يتحولوا إلى حيوانات برية، لا تأخذي غير أقراص الكالسيوم، وقولي لي بأنني قلت ذلك».

١٤

أثناء الليل، وفي قسم الولادة بمستشفى «شعارى تسيدق» بكت امرأة يهودية شرقية بصوت بائس. رئيسة الممرضات والطبيب المناوب ظلا يناشدانها السكوت والهدوء. ألحا عليها أن تحكي لهما أوجاعها حتى يتمكنا من تقديم المساعدة لها. إلا أن هذه المرأة الشرقية بكت بكاءً مرّاً ومستمراً وكأن العالم قد خلا من الكلمات والناس.

تحدثا إليها كأنهما يستجوبان امرأة عريقة في الإجرام. كانا تارة يستخدمان ألفاظاً نابية وتارة يستخدمان لين الحديث، بالتبادل أخذا يهددانها ثم يعودان فيعدانها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، لم تجبهما المرأة، ربما انتابتها نوبة من الكبرياء العنيد. على ضوء الأنوار الليلية الخافتة استطعت أن أتبين وجهها، لم تبد عليها علامات بكاءٍ، كان وجهها ناعماً خالياً من التجاعيد، لكن صوتها اخترق الآذان. ودموعها تساقطت ببطء.

مع انتصاف الليل اتفق الأطباء على رأي ما. أحضرت رئيس الممرضات إلى المرأة الباكية رضيعها على الرغم من أن الوقت لم يحن بعد طبقاً لجدول مواعيد إحضار الرضع لأمهاتهم. أخرجت المرأة من تحت بطانيتها يداً تشبه مخلب حيوان صغير لمست رأس الوليد ـ للحظة ـ ثم أعادتها بسرعة كأنها لمست جسماً ملتهباً. وضعوا الوليد في

سريرها. لم تتوقف المرأة عن البكاء.. حتى حين أخذوا منها الرضيع لم يحدث أي تغيير. أخيراً أمسكت رئيسة الممرضات وهي في منتهى الغضب الذراع النحيلة، وغرزت فيها حقنة، وأخذت المرأة تحرك رأسها لأعلى ولأسفل في بطء وهي مشدوهة كأنها تستغرب موقف هؤلاء المثقفين، وهم يحيطونها باهتمامهم من دون توقف وكيف أنهم لم يدركوا أن كل ما في العالم زائل.

استمر صوت العويل طوال الليل. أخذت أفقد منظر العنبر الداكن، وضوء المصباح المنهك. رأيت زلزالاً في القدس.

مرّ رجل عجوز بشارع تسقانيا، كان سميناً غامضاً. يحمل على ظهره كيساً كبيراً. ثم توقف عند مدخل شارع آموس مطلقاً صرخة مدوية. أصلح بوابير الكاز ـ أصلح بوابير الكاز ـ التي تعمل بالكيروسين. كانت الشوارع خالية من المارة. لم تهب أي نسمة هواء. والطيور اختفت. ثم تدافعت من الأفنية قطط مرفوعة الذنب. ظهورها هزيلة، ومقوسة، وهي تراوغ بعضها البعض، تسلقت جذوع الأشجار المصطفة على الرصيف، إلى أن اعتلت أغصانها العليا. هناك تسمرت أجسادها وأطلقت زئيراً غاضباً كأن كلباً يمر في حي كيرم ـ أبراهام. وضع الرجل العجوز كيسه في منتصف الشارع، وكانت الشوارع خالية من أية حركة لأن الجيش البريطاني فرض حظراً شاملاً للتجول. أخذ الرجل يحك رقبته بما ينم عن غضب، كان بيده مسمار صدئ أخذ يحفر به في إسفلت الطريق شقاً خطراً كأنه شبكة من السكك الحديد في فيلم تعليمي يعرض بالحركة السريعة. عضضت على قبضتي كيلا أصرخ من الخوف كان هناك صليل لحصباء تتساقط على رصيف تسقانيا في اتجاه

حي هابوخاريم ـ البوخاز، بيد أني حين لمست الحصباء بشرتي.. لم تؤلمني، كأنها حجارة من صوف. لكن الهواء زمجر عنيفاً بعصبية تماماً كقط يرتجف ويتسمر قليلاً قبل أن يقفز. وببطء تدحرجت الصخرة الكبيرة من فوق جبل المشاهد (سكوباس) أحدثت قطعاً في حي بيت إسرائيل الجديدة. كأنه بيوته من أحجار الدومينو (النرد) ثم تدحرجت في أول شارع النبي حزقيال، شعرت بأنه غير مسموح لصخرة ضخمة بالتدحرج على المنحدر بل عليها أن تتجه صوب السفح، وإن لم تفعل ذلك فإن ذلك لن يكون من العدل بمكان.

خفت أن ينتزع عقدي الجديد من صدري، ويضيع مني، وحينئذ أستحق القصاص، استدرت لكي أهرب لكن الرجل العجوز فرش كيسه بعرض الشارع ووقف عليه، ولم يعد ممكناً شدّ الكيس لأن الرجل كان ثقيلاً. التصقت إلى الجدار.. رغم إدراكي بأنني سأوسخ فستاني المفضل. واندفعت في اتجاهي الصخرة الكبيرة وغطتني وكأنها هي الأخرى من صوف ناعم هش، تداعت مبان، واختلط بعضها ببعض، وتساقطت في دوران بطيء.. كأنها أبطال مغاوير يقتلون في فخار على خشبة الأوبرا. لم تؤلمني الأنقاض.. بل دافئ محشو بريش النعام. كانت كأنها تقبلني قبلة رقيقة.. بريئة.. كأنها لم تصدر عن قلب مليء بالحقد. ومن بين الخرائب خرجت نسوة ممزقات الثياب. كانت السيدة ترنو فولر بينهن. رددن نواحاً شرقي النغمة مثل النائحات بالأجر اللاتي رأيتهن أثناء جنازة أبي يوسف في قاعة الجنازات بمقبرة مستشفى بيكور حوليم. تدافع خلق كثير. أطفال هزيلو الأجسام. وآخرون متدينون ذوو سوالف يرتدون معاطف سوداً. تدافعوا في صمت من اتجاهات أحفا، جيئولا، سنهادريه، بيت إسرائيل، ميئاه شعاريم وتل أرزه. هبطوا على الأنقاض.

أخذوا ينبشونها وينبشونها بخبث ودهاء. في حماسة محمومة، وضجيج. كان من الصعب النظر إليهم من دون أن يكون المرء بينهم، كنت بينهم، حلّق أحد الصبيان عالياً وهو يختفي في زي شرطي إلى شرفة تهتز معلّقة على قمة جدار بلا بيت، ضحك هذا الصبي من شدة السرور لرقادي على الطريق على هذا النحو. كان طفلاً قاسياً، وأنا مريضة، رأيت عربة مجنزرة خضراء اللون تابعة لجيش الانتداب البريطاني تسير ببطء، انطلق صوت بكلام عبري من مكبر للصوت موضوع على برج المجنزرة، كان ذلك صوتاً ذكراً، هادئاً، رخيماً، أحدث تياراً من السرور حتى أخمص القدمين. أعلن الصوت عن تعليمات لفرض حظر التجول. من يمسك يتعرض لإطلاق النار فوراً، ومن دون سابق إنذار.

التف حولي الأطباء لأنني كنت مريضة، وملقاة على الطريق لا أقوى على الوقوف. تحدث الأطباء باللغة البولندية وقالوا:

«هناك خطر انتشار أوبئة. اللغة البولندية كانت عبرية.. إلا أنها عبرية مختلفة. الشرطيات الاسكتلنديات انتظرن فرق الإمداد ـ وهن يرتدين قبعات بلون الدم ـ هذه الفرق كانت قادمة على متن المدمرتين الإنكليزيتين دراغوان وتايغرس. فجأة قفز الصبي الذي يرتدي زي شرطي من فوق الشرفة هبط ورأسه إلى أسفل في اتجاه الرصيف. هبط ببطء كما لو أن المندوب السامي البريطاني الجنرال كاننغهام قد ألغى الإجراءات القاسية المفروضة على الاستيطان العبري بفلسطين. هبط كقطعة من الثلج في الليل نحو الرصيف المتهدم.. هبط ولم أستطع الصراخ.

قبل الثانية ليلاً أيقظتني الممرضة المناوبة على عربة أطفال ذات

صرير.. أحضرت لي ابني لأرضعه، ظل الكابوس مسيطراً عليَّ وبكيت بكل قواي.. بكيت أكثر من المرأة الشرقية التي ما زالت تتنهد، وسط البكاء سألت الممرضة أن تشرح لي كيف ظل ابني على قيد الحياة، وكيف نجا من الكارثة.

١٥

الزمن والذاكرة يشفقان على الكلمات السخيفة، يعاملانها بحنان يغمرانها بضوء فجري عطوف. أنا أتشبث بالذاكرة، وبالكلمات تماماً كشخص يتشبث بذراعٍ عالٍ. مثلاً كلمات أغنية أطفال قديمة تحتفظ بها ذاكرتي، ولا تدعها تفلَت.

يا مهرجي الصغير.. هل معي سترقص أيها المهرج الرائع مع كل الناس ترقص..

بودي إبداء ملاحظة: تحتوي الجملة الثانية من الأغنية على جواب السؤال الذي في الجملة الأولى.. إلا أنها إجابة مخيبة للأمل. سمح لي الأطباء بمغادرة المستشفى بعد الوضع بعشرة أيام. لكنهم فرضوا عليَّ البقاء في الفراش والامتناع عن أي جهد. أبدى ميخائيل صبراً وكداً.

وفي الوقت الذي جيء بي إلى البيت مع رضيعي في سيارة أجرة مخصوصة من المستشفى نشب شجار مرير بين ملكاه أمي وبين العمة جينيه، مرة أخرى أخذت العمة جينيه إجازة ليوم واحد من عملها الطبي وأتت للقدس لترشدني وميخائيل، أرادت إقناعي بأن أتصرف بشكل رزين، أمرت العمة جينيه ميخائيل بأن يضع سرير الطفل إلى جانب الحائط الجنوبي من الغرفة حتى يتسنى فتح ظلف النافذة من دون أن تطال أشعة الشمس الرضيع، وأمي ملكاه أمرت ميخائيل أن يضع السرير

بجانب سريري. هي لن تتجادل مع الأطباء في أمور طبية. بالتأكيد لا ولكن بالإضافة إلى الجسم توجد للإنسان روح. قالت أمي: ولن تستطيع أن تفهم نفسية الأم إلا أم. الرضيع وأمه يجب أن يكونا قريبين من بعضها البعض. وأن يشعر بها، وتشعر به. البيت ليس كالمستشفى وهذه ليست أمور طبية، بل شعور وإحساس. قالت أمي هذه الكلمات بعبرية ركيكة للغاية. لم تلتفت العمة جينيه إلى أمي، وإنما إلى ميخائيل، وقالت له إن بإمكانها أن تتفهم مشاعر السيدة ملكاه ولكننا أناس واقعيون.

وهنا اندلع شجار مرير لكنه مهذب للغاية. إذ تنازلت إحدى المرأتين للأخرى، وأعلنتا أن الأمر كله في الحقيقة لا يستحق الشجار. لكن كلاً منهما رفضت قبول تنازل الأخرى. أما ميخائيل فقد وقف صامتاً في بزته (بدلته) الرمادية، وقد نام الرضيع على ذراعيه. أفصحت عينا ميخائيل عن توسل مكتوم للمرأتين بأن تأخذا الطفل منه، كان ميخائيل تماماً كشخص على وشك أن يعطس لولا إرادة منه قوية تحول دون ذلك. ابتسمت إليه. أخذت المرأتان إحداهما بيد الأخرى وتدافعتا في رفق، ونادت كل منهما الأخرى «بانى[1] ـ السيدة ـ جرينباوم» و«باني ـ السيدة الدكتورة». ثم دار بينهما نقاش بلغة بولندية غير مفهومة. تمتم ميخائيل: «لا ضرورة لذلك. لا ضرورة لذلك». لم يتجاسر ويشرح أياً من الافتراضين لا ضرورة له.

---

(١) باني: ومعناها السيدة باللغة اليديشية، وهي لغة خاصة باليهود في شرق أوروبا وهي عبارة عن خليط من العبرية والآرامية والألمانية وبعض الكلمات السلافية وتكتب بالخط العبري. نشأت في ألمانيا في القرن الثاني عشر وحملها اليهود معهم إلى بولندا، وروسيا حينما هاجروا إلى هناك في القرن الـ ١٥م.

وفي النهاية اقترحت العمة جينيه وكأن إشعاعاً داخلياً قد مسها فجأة بأن يقرر الوالدان بأنفسهما أين يضعان السرير. قال ميخائيل:

«حنه؟».

كنت متعبة. أخذت باقتراح العمة جينيه لأنها عندما جاءت في الصباح اشترت لي روباً منزلياً من القطن الأزرق، لم يكن بمقدوري أن أخدش مشاعرها ما دمت أرتدي الروب الجميل الذي اشترته لي، أشرقت العمة جينيه بالسعادة. لمست كتف ميخائيل كسيدة تتملّق شاباً قاد خيلها إلى النصر في السباق.

قالت أمي بصوت عذب:

«حسناً حسناً هذا بالضبط ما تريده حنه».

لكن في المساء، وبعد خروج العمة جينيه بوقت قصير قررت أمي أيضاً الرحيل، والعودة صباح اليوم التالي إلى مستوطنة نوف ـ هاريم. لم يعد بإمكانها المساعدة هنا وهي لا تريد أن تضايقنا، وهناك لدى عمانوئيل يحتاجون إليها كثيراً. سينتهي كل شيء على خير. حين كانت حنه طفلة رضيعة كانت الأمور أصعب من ذلك بكثير. كل شيء سيمر بسلام.

بعد أن غادرت المرأتان بيتنا، أدركت أن زوجي قد تعلم تسخين الحليب في زجاجة (قارورة) في طست مليء بالماء الساخن، وأيضاً إعطاءه لابنه. ورفع الطفل بين الفينة والأخرى حتى يتجشأ، ولا يضغط الهواء على بطنه. منعني الطبيب من إرضاعه من صدري بسبب مضاعفات جديدة ألمت بي. لم تكن هذه المضاعفات خطيرة أيضاً، آلام تجيء وتذهب، ونوع معروف من الانزعاج بين الإغفاءة والأخرى،

كما يفتح الرضيع جفونه لتظهر جزر من الزرقة الصافية. بدا هذا اللون، وكأنه لونه الداخلي، وأن فتحتي عينيه تكشفان فقط عن نقوش من الزرقة المتألقة المشعة المنتشرة تحت الجلد. حين نظرت إلى ابني تذكرت أنه ليس بإمكانه أن يرى حتى الآن أي شيء. هذه الفكرة سببت لي خوفاً. لم أشك في أن الطبيعة ستعيد هذه المرة المسيرة الثابتة من الأزل بنجاح، لا أعرف القوانين المتحكمة في الجسم. لم يعرف ميخائيل أن يعلمني الكثير بصفة عامة. قال ميخائيل، تسود قوانين ثابتة في الوجود. وهو ليس بيولوجياً، لكنه كأحد رجال العلوم الطبيعية لا يجد معنى لأسئلتي العنيدة حول السبب والمسبب، إن إصلاح السببية يثير دائماً تعقيدات وسوء فهم.

أعجبني زوجي حين كان يمدّ الحفاض الأبيض للطفل على سترته الرمادية، ويغسل يديه، وبعناية شديدة يرفع ابنه بحذر. «إنك دؤوب يا ميخائيل!». ضحكت في وهن. «لا داعي لأن تسخري مني!» أجاب ميخائيل بصوت موزون.

حين كنت طفلة أكثرت أمي ملكاه من ترديد أغنية لطيفة عن الطفل الطيب دافيد على مسامعي: ولداً طيباً كان دافيد. مرتباً ونظيفاً طول الزمان.

لا أتذكّر بقية الأغنية ولولا مرضي لخرجت إلى المدينة واشتريت غليوناً جديداً هدية لزوجي، أدوات غسل زاهية الألوان، إني أحلم. تعوّد ميخائيل أن يستيقظ في الخامسة صباحاً، يغلي الماء، ويغسل حفاضات الطفل، وفي وقت متأخر كنت أفتح عيني لأراه واقفاً فوق رأسي مثابراً وصامتاً. كان يناولني كوباً من الحليب الساخن ممزوجاً

بالعسل. كنت لا أزال نعسانة. أحياناً لم أكن أمد يدي لتناول الكوب من يده، لأنني كنت أتخيل أن ميخائيل يأتيني في المنام وليس الواقع.

مرت ليالٍ بطولها لم يغير ميخائيل فيها ملابسه، حتى مطلع الفجر كان يجلس إلى مكتبه يراجع دروسه، وهو يمضغ بين أسنانه فتحة الغليون المطفأ. لم أنس الصرير الذي يحدثه حين يمضغ، ربما غفا أيضاً لمدة نصف ساعة أو ساعة، ذراعه ممدودة على المكتب، ورأسه ساقط على ذراعه، لو حدث وبكى الطفل أثناء الليل كان زوجي ميخائيل يحمله من سريره الهزاز، ويمشي به في طول الحجرة وعرضها، من النافذة إلى الباب ذهاباً وإياباً، وهو يعيد على مسامع الطفل أشياء من دروسه كان على ميخائيل أن يحفظها عن ظهر قلب.

نائمة وغير نائمة كنت أسمع في الليالي الشعارات السرية:

ديفون. برميون. ترياس. ليتروسفيراه. سيدروسفيراه. مصطلحات جيولوجية - ذات مرة وفي أحد أحلامي امتدح أستاذي في الأدب التركيبات اللغوية التي يستخدمها الكاتب مندلي[(١)] موخير سفاريم،

---

(١) مندلي موخير سفاريم: ومعناها باللغة العبرية «مندلي بائع الكتب» وهو الاسم الذي اختاره لنفسه الأديب اليهودي شالوم أبراموفيتشو الذي يعتبر أبا الأدب اليهودي الحديث، وبصفة خاصة الأدب المكتوب بلغة اليديش، وهو من مواليد عام ١٨٣٥ في مينسك بروسيا وتوفي عام ١٩١٧ في أوديسا. كانت كتاباته تتميز بالسخرية، وقد عبر عن حياة المجتمع اليهودي بأوروبا في رواياته «الحصان الصغير» و«الطفيلي» و«الضريبة» و«فيشكة الأعرج» و«بنيامين الثالث». في السنوات الأخيرة كانت كتابات مندلي تتميز بالمزيد من العمق، ولم يتوقف عن التهكم على الحياة في مناطق الاستيطان اليهودي في روسيا. كانت كتاباته الأولى باللغة العبرية وقد اتسمت بالواقعية ثم تحول بعد ذلك إلى الكتاب باليديش ليخلق علاقة بينه وبين قرائه، ونظراً لأن مندلي كان من الدقة، كما أنه كان يتمكن من اليديشية=

وأثناء حديثه لفظ الأستاذ بعضاً من هذه العبارات، وقال أيضاً: هل تتكرم السيدة غرينباؤم وتوضح لنا باختصار معنى الازدواجية في الوضع الراهن؟ وكم ابتسم لي الأستاذ العجوز في الحلم كثيراً. كانت ابتسامته رقيقة وحنونة، ابتسامة تدليل وتلطيف. بحث كبير يكتبه ميخائيل في الليالي حول نوع من الخلاف القديم بين النظرية النبتونية[١]، وبين النظرية الأفلاطونية[٢] في مسألة تكوّن الكرة الأرضية، هذا الخلاف سبق زمنياً نظرية كان، ولا بلاس السديمية[٣]. وجدت سحراً في تعبير «النظرية السديمية». كيف تكونت الكرة الأرضية في الحقيقة يا ميخائيل؟ سألت زوجي. أجابني بابتسامة، وكأنني لم أطلب منه إجابة سوى ابتسامته، والحقيقة أني لم أطلب إجابة. كنت مستغرقة في داخلي. كنت مريضة.

في أيام صيف عام ١٩٥١ كشف لي ميخائيل عن أن حلماً يراوده بتوسيع بحثه، ونشره بعد مرور عدة سنوات كبحث صغير من إنتاجه، وتساءل هل أدرك مدى الفرحة التي ستغمر والده العجوز بسبب ذلك؟ حتى كلمة تشجيع واحدة لم أجدها لأقولها له. كنت منقبضة. متوقفة داخل نفسي كأني فقدت دبوساً من اللؤلؤ النادر في قاع البحر. كنت أضيع لساعات طويلة في شفق أخضر. آلام. كآبة. أحلام مزعجة ليلاً

=والعبرية معاً، وقد نجح في جعل اليديشية لغة قادرة على التعبير الأدبي اليهودي. [د. رشاد الشامي، لمحات من الأدب العبري الحديث، ص٦١، ٦٢].

(١) المدرسة النبوتية (البحرية) وترى أن الأرض كانت في الأصل بحراً.

(٢) المدرسة الأفلاطونية (الجوفية) وترى أن أصل الأرض يرجع إلى صخور جوفية تحجرت في باطن الأرض.

(٣) المدرسة السديمية: والتي ترى أن كل المجموعة الشمسية نشأت من سديم غازي.

ونهاراً. تقريباً لم ألحظ الدوائر الداكنة التي ظهرت تحت عيون ميخائيل. كان متعباً إلى درجة الموت. كان يقف ساعة أو ساعتين في الطابور بمحطة توزيع المواد الغذائية الإضافية للأمهات المرضعات. وهو يحمل بطاقة التموين. لم تصدر عنه أية شكوى. بل أخذ يطلق النكات بخجل كعادته، ويقول إنه هو الذي يحتاج للغذاء الإضافي في الواقع. فهو الذي يقوم بإرضاع الطفل.

١٦

بدأ يائير الصغير يفرز ملامح شبيهة بملامح أخي عمانوئيل، وجهه عريض وعفيّ، الأنف كبير. وعظام الخدين عالية. لم أكن سعيدة بهذا الشبه. كان يائير طفلاً نهماً قوي البنية. يبلغ رضعته بشوق بالغ، أثناء استغراقه في النوم تصدر عنه قرقرة تدل على الشبع. بشرته كانت وردية اللون، الجزر الزرقاء الصافية تحولت إلى عينين صغيرتين رماديتين فضوليتين. أحياناً تنتابه موجة غضب مكتوم فكان يضرب حواليه بقبضتيه المغلقتين. فكرت في نفسي أنه لو لم تكن هاتان القبضتان صغيرتين لكان الاقتراب منهما خطراً. في مثل هذه اللحظات كنت ألقب ابني باسم «الفأر الذي يزأر» على اسم فيلم كوميدي شهير. اختار له ميخائيل لقب «جرو الدبيه». في الشهر الثالث نبت لابننا شعر أكثر من الأطفال الآخرين.

أحياناً حين كان الطفل يبكي في الأوقات التي لم يكن ميخائيل موجوداً بالبيت، كنت أغادر فراشي حافية القدمين، أهز سريره بعنف، وبصوت غاضب أنادي على رضيعي باسم زالمان - يائير، يائير زالمان» كما لو أن ابني قد أخطأ في حقي.

في الشهور الأولى من حياة الطفل كنت غير مكترثة، تذكرت الزيارة البشعة التي قامت بها إلينا العمة جينيه في بداية الحبل. وللحظات

تتشوش ذاكرتي فأتخيل أنني أنا التي أردت التخلص من الجنين، وأن العمة جينيه هي التي فرضت عليَّ بالقوة ألا أفعل ذلك. شعرت أيضاً بأنني سأموت عما قريب، ولهذا فلا فضل لأي مخلوق عليّ، ولا حتى لهذا الصبي الصغير العفي المتورد. الشيطان. كان يائير شقياً. وأحياناً كثيرة كان يصرخ على ذراعي إلى أن يحمر وجهه، ويصير مثل وجه فلاح سكران في فيلم روسي، حين كان يأخذه ميخائيل من ذراعي، ويغني له هامساً كان يائير يتكرم بالهدوء. وأنا حقدت عليه. كأنه غريب أخجلني بنكرانه البشع للجميل.

لا زلت أتذكر. لم أنس. حين كان ميخائيل لا يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً بين النافذة والباب، حاملاً ابنه على ذراعيه، ويهمس في أذنيه بتعبيرات متكررة. كنت أنظر فجأة إلى كليهما. إلى ثلاثتنا، أي تعبير سوداوي كئيب أستطيع أن أكتبه. فأنا لا أعرف كلمة أخرى أكتبها هنا.

كنت مريضة حتى حين بشر د. أورباخ الطبيب بأن المضاعفات قد انتهت، يا لعظيم سروره، وأني حرة في أن أتصرف كامرأة سليمة في كل الأمور. حتى حينئذٍ كنت لا أزال مريضة ومع ذلك قررت إبعاد سرير ميخائيل عن الحجرة التي وضعنا بها سرير الطفل. أخذت على عاتقي أن أقوم من الآن فصاعداً برعاية ابني. ولينم زوجي في حجرة الضيوف حتى لا نظل نزعجه أثناء عمله، وحتى يتمكن من سد الفجوة التي حدثت في أبحاثه خلال الشهور الماضية.

في الثامنة مساء كنت أقوم بإرضاع الطفل وأضجعه لينام. أغلق علينا الباب من الداخل، وأتقلب بمفردي على الفراش المزدوج العريض

المعد للزوجين. أحياناً كان ميخائيل يدق الباب برفق في التاسعة والنصف أو في العاشرة، وإذا فتحت له كان يقول:

«رأيت ضوءا في شق الباب وفهمت أنك لست نائمة، ولهذا دققت الباب». أثناء حديثه كان ينظر إليّ بعينيه الرماديتين، وكأنه ابني البكر الذكي العاقل. وقد كنت أجيبه بجفوة وببرود: «إنني مريضة يا ميخائيل! إنك تعلم أني لست على ما يرام».

كان مطبقاً يده بقوة على غليونه المنطفئ حتى احمرت مفاصل أصابعه.

«قصدت فقط أن أسأل إذا... لم يكن أزعجك.. و... إذا كان هناك شيء ما أستطيع أن أساعد به، أو إذا كنت بحاجة إليّ؟ ليس الآن؟ إذاً فأنت تعلمين يا حنه أني في الحجرة الأخرى، وإذا احتجت إلى أية مساعدة.. فأنا لا أفعل في الوقت الراهن أي شيء مهم، وإنما أراجع للمرة الثالثة كتاب غولدسميث، و...».

قبل أيام عديدة قال لي ميخائيل غونين إن القطط لا تخطئ في حكمها على البشر، فهي لا تصادق إطلاقاً من ليس بقادر على حبها، وهكذا أستيقظ مع الفجر. مدينة نائية هي القدس، حتى ولو كنا نعيش فيها.. حتى ولو كنا من مواليدها. أستيقظ فأسمع ريحاً تعصف بأزقة حي ماكور ـ باروخ، أكواخ من الصفيح مقامة في الأفنية الخلفية، وعلى الشرفات القديمة. الريح تعصف بها أيضاً، ملابس مبتلة منشورة على حبال الغسيل بعرض الشارع، عمال النظافة يجرون صفائح القمامة على الأرصفة، واحد يلعن دائماً بصوت كالفحيح، في أحد الأفنية يصيح أحد الديكة في غضب، أصوات بعيدة تترامى من كل الجوانب، أي

همس متوتر يكمن في الأرجاء، مواء قطط محمومة جنباً، طلقة نارية وحيدة تدوي في نهاية الظلام إلى الشمال، هدير سيارة بعيدة، امرأة تنوح في شقة أخرى، نشيد أجراء بعيدة تدق من الشرق، ربما من كنائس القدس العتيقة، ريح جديدة تلاطم قمم الشجر، القدس مدينة الصنوبر، بين أشجار الصنوبر والرياح يسود ود متوتر. أشجار الصنوبر المعمِّرة في أحياء الطالبية والقطمون وبيت ـ هاكيرم، وفي ما وراء أحراش شنيلر السود.

الآن، وفي قرية عين كارم المنخفضة يحتشد ضباب أبيض في الصباح الباكر، كأنها رسل مملكة الألوان الأخرى، الأديرة محاطة بجدران عالية في قرية عين ـ كارم المنخفضة، حتى داخل هذه الأسوار تتهامس أشجار الصنوبر، أمور خطيرة تحاك مع ضوء الفجر الأعمى.. تحاك في السر، وكأني لا أسمع، كأني لست هنا. حفيف إطاري دراجة بائع الحليب، خطواته على الممر الناعم، سعاله المخنوق، نباح الكلاب في الأفنية، هناك منظر مروع في الخارج يظهر أمام الكلاب، ويختفي عن ناظري، ظلف نوافذ تئن، يعرفون أني مستيقظة وأرتجف، يتآمرون في الخفاء كأني لست موجودة، يقصدونني.

كل صباح بعد شراء الحاجيات، وترتيب البيت كنت آخذ يائير في عربته الصغيرة إلى نزهة قصيرة. صيف في القدس، سماء زرقاء هادئة، نتجه إلى سوق محانيه يهودا لشراء مقلاة، أو مصفاة جديدة بسعر رخيص، حين كنت طفلة أحببت منظر ظهور الحمالين العارية السمراء في سوق محانيه يهودا.

رائحة عرق أجسامهم كانت تروق لي. حتى الآن تثير لدي هذه

الروائح المنبعثة من سوق محانيه يهودا نوعاً من الراحة الداخلية، أحياناً أجلس على أحد مقاعد البلدية مقابل حائط المدرسة الدينية للبنين «تحكموني»[1]. عربة الطفل بقربي، وعيناي تتبعان الصبية وهم يتصارعون في فناء المدرسة في فترة الراحة بين درس وآخر، أحياناً كنا نبتعد في نزهتنا حتى حرش شنيلر، واستعداداً لرحلة كهذه كنت أجهز زجاجة من الشاي بالليمون، وبسكويت ورزمة (لفة) حياكة مع بساط رمادي وبعض اللعَب. في حرش شنيلر تعودنا أن نمضي ساعة أو ساعة وربعاً، إنه حرش صغير يقع على سفح منحدر كأنه مفروش بسجادة من إبر الصنوبر الجافة. منذ أن كنت طفلة صغيرة تعودت أن أطلق على هذا الحرج اسم الغابة.

أفرش البساط، أضع يائير بين المكعبات، أجلس على صخرة باردة برفقة ثلاث، أو أربع نسوة من ربات البيوت، كن نسوة ودودات، بمتعة خاطر تحكين لي عن حياتهن، وحياة أسرهن من دون أن تطلبن مني ولو حتى بالتلميح أن أكشف لهن أسراري مقابل أسرارهن. وحتى لا أبدو في نظرهم متعالية، ومستخفة بهن كنت أقارن معهن مزايا صنانير حياكة الصوف المختلفة، أقص عليهن عن القمصان الأنيقة المصنوعة من قماش خفيف، وتباع حالياً في محلات السوبر ماركت معيان ـ ستوب أو محلات شفارتس. إحدى هاته النسوة علمتني كيفية علاج

(١) تحكموني: يعود اسم هذه المدرسة إلى اسم الكتاب الذي ألفه يهودا الحريزي، ومعناه الحكيم، وقد استخدم فيه الحريزي أسلوب مقامات الحريري المكتوبة باللغة العربية، وكتاب تحكموني عبارة عن ٥٠ مقامة قلد فيها أسلوب الحريري، وهو في هذا الكتاب المتميز في أسلوبه وصناعته يلقي الضوء على الثقافة العبرية في تلك الفترة.

البرد لدى الطفل عن طريق استنشاق بخار المياه المغلية، أحياناً أحاول تسليتهن بنكتة سياسية جديدة قصها ميخائيل عن دوف يوسف وزير التقشف، أو عن قادم جديد قال لبن غوريون كذا وكذا، لكن حين ألتفت تظهر أمام عيني القرية العربية شعفاط راقدة خلف الحدود، جلاها ضوء أزرق، أسقفها من قرميد أحمر يبدو من بعيد، وعلى قمم الأشجار القريبة تشدو الطيور في الصباح أغنية لا أفهم لغتها.

سرعان ما أتعب فأعود للبيت أطعم ابني، أضعه في سريره، وألقي بنفسي على السرير وأنا أتنفس بصعوبة، في المطبخ ظهر نمل. ربما أيقن فجأة كم أنا ضعيفة، في منتصف مايو/ أيار سمحت لميخائيل بتدخين غليونه في الشقة خارج الغرفة التي أنام فيها مع الطفل. ماذا يحدث لنا لو مرض ميخائيل.. حتى ولو بوعكة خفيفة. فمنذ أن كان في الرابعة عشرة من عمره لم يصب بمرض ولو حتى مرة واحدة، هل يستطيع أن يأخذ عدة أيام إجازة؟ بعد أن يحصل على الماجستير بعد حوالى عام ونصف. يمكنه السماح لنفسه بنظام عمل أكثر يسراً، وحينئذاك يمكنني القيام بإجازة عائلية رائعة. هل هناك ما يمكنني أن أفرحه به.

أي ملابس أستطيع شراءها له كهدية؟ في الحقيقة لا يزال الأمل يراوده في شراء أجزاء الموسوعة العبرية الكبيرة ولهذا يعود سيراً على الأقدام من الجامعة، وليس في سيارة أجرة أربع مرات في الأسبوع، وبهذه الطريقة استطاع توفير ٢٥ ليرة.

في بداية يونيو/ حزيران أظهر الطفل دلائل على أنه أصبح بمقدوره تمييز أبيه. حين اقترب ميخائيل منه من جهة الباب قرقر من السعادة، ومرة أخرى حاول ميخائيل الاقتراب إليه من جهة النافذة، وعاد يائير

وابتهج، لم أحب منظر الطفل وهو في غمرة السعادة ـ أخبرت ميخائيل أني أخشى ألا يكون طفلنا من أذكى الأذكياء. فغر ميخائيل فاه من حيرة وبدأ يقول شيئاً ما.. ثم تردّد، وتخلى عن نيته في الحديث وصمت. بعد ذلك كتب لأبيه، ولعمته رسالة يخبرها فيها أن ابنه بدأ تمييزه. زوجي مقتنع بأنه سيصير صديقاً حميماً لابنه في المستقبل. قلت: «لا بد وأنك كنت صبياً مدللاً للغاية في طفولتك!».

١٧

انتهى العام الجامعي في شهر يوليو/ تموز. حظي ميخائيل بمنحة علمية من الدرجة الثانية تقديراً وتشجيعاً لمثابرته. في حديث خاص تحدث إليه أستاذه باحترام:

«شاب مجتهد ومثابر يتقدم في ثبات، لن تضيع جهوده هباء وفي النهاية سيصير معيداً (أستاذاً في الجامعة».

ذات ليلة دعا زوجي بعضاً من أصدقائه لشرب الأنخاب احتفالاً بنجاحه، خطط في سرية لحفل صغير.

نادراً ما يأتينا زوار، مرة كل ثلاثة أشهر تظهر إحدى العمات في زيارة تستمر نصف يوم، مربية الأطفال العجوز سارة زلدين تدخل عشر دقائق قبل حلول المساء لتقول أموراً معلومة حول الطفل.

زوج ليئواه صديقة ميخائيل من كيبوتس طيرات ـ ياعر جاء بصندوق تفاح، وذات مرة في منتصف الليل جاء عمانوئيل أخي صاخباً: «خذوا مني هذه الدجاجة القذرة! أسرعوا هل لا زلتم أحياء؟ ها قد أحضرت لكم طائراً حياً أيضاً، إلى اللقاء والسلام عليكم! هل سمعتم نكتة الطيارين الثلاثة؟ حسناً. قبلاتي للصبي.. سيارة الثشندر (الشاحنة) تنتظر في الخارج، وسيبدأون في إطلاق نفيرهم في أية لحظة». في أيام السبت

تجيء أحياناً أعز صديقاتي هاداساه مع زوجها أو من دونه حاولت إقناعي بضرورة عودتي للدراسة في الجامعة أيضاً، السيد قاديشمان العجوز الصديق القدسي للعمة ليئه تعوّد زيارة بيتنا من حين إلى آخر للاطمئنان علينا وليلعب الشطرنج مع ميخائيل.

مساء الحفل المفاجئ جاء إلى بيتنا طلاب، كانت بينهم شابة شقراء. بدت لي من النظرة الأولى فاتنة، ومن النظرة الثانية فظة، يبدو أنها التي رقصت في حفل زفافنا رقصاً إسبانياً صاخباً، نادتني «يا حلوتي» كما نادت ميخائيل «يا عبقري». سكب زوجي ميخائيل النبيذ ووزع البسكويت ثم اختار أن يصعد على الطاولة، وأن يقلد بسخرية أصوات الأساتذة. ضحك زملاؤه قليلاً على سبيل المجاملة، ياردينا الشقراء هي الوحيدة التي ضحكت من القلب وصرخت: «ياميخا ياميخا أنت عظيم».

خجلت من زوجي لأنه لم يكن لبقاً، ابتهاجه كان مصطنعاً، حتى حين حكى أموراً مضحكة لم أستطع الضحك. لأنه صاغها بطريقة محاضر يملي حقائق، بعد ساعتين انصرف الضيوف.

جمع زوجي الأواني المتسخة، وأخذها إلى المطبخ، بعد ذلك أفرغ منافض السجائر، كنس الغرفة وِوضع مئزراً حول وسطه، وعاد إلى حوض المطبخ. حين مر في الردهة توقف برهة، ونظر لي كتلميذ موبخ. اقترح علي أن أذهب لأنام، ووعد بالحفاظ على الهدوء. لاعتقاده بأنني متعبة من الضجة الكبيرة. إنه أخطأ. الآن يرى كم هو مخطئ. كان من المفروض ألا يدعو غرباء. قال ميخائيل:

«لأن أعصابي ما زالت متوترة، وينال مني التعب بسرعة»، هو يلوم

نفسه لأنه لم يفكر في ذلك من قبل. وبالمناسبة تلك الفتاة ياردينا بدت في نظره مزعجة جداً. هل أسامحه على ما حدث هذا المساء؟ حين طلب مني ميخائيل الصفح بسبب الحفل الصغير الذي أقامه.. تذكرت كم كنت ضائعة ليلة عودتنا من الرحلة الأولى إلى طيرات ـ ياعر، وكيف وقفنا بين صفي أشجار السرو الداكنة، وكيف غسلني المطر البارد بسياطه اللاسعة، وكيف فك ميخائيل فجأة أزرار معطفه الخشن، وضمني إلى حضنه.

الآن وقف منحنياً على الحوض كأنه مكسور الرقبة، حركاته بدت متعبة، غسل الأواني بمياه ساخنة ثم عاد ونظفها بمياه باردة، تسللت على أطرافي وجئته حافية من الخلف. قبلته على قفاه قصير الشعر، قبلت كتفه أيضاً، وأمسكت بيدي يده الصلبة ذات الشعر الغزير. غمرتني السعادة لأن ظهره لمس صدري. فنحن منذ بداية الحبل كنا مبتعدين. كانت يد ميخائيل مبتلة من غسيل الأواني وعلت إحدى أصابعه ضمادة قذرة. ربما جرح، أو لسعة نار، ولم يكلف خاطره بإخباري.. حتى الضمادة كانت مبتلة. أدار نحوي وجهاً ناحلاً طويلاً، كان هزيلاً أكثر مما كان عليه في اليوم الذي قابلته فيه للمرة الأولى بمبنى تيراه ـ سانتا. رأيت أن كل جسمه نحيل للغاية. برزت عظام خديه. تجعيدة خفيفة بدأت تظهر بجانب أنفه من جهة اليمين. لمست خديه.. لم يصب برجفة، كأنه انتظر ذلك طوال الأيام الماضية، كأنه أدرك من البداية أن في هذه الأمسية، بالذات في هذه الأمسية، سيحدث تغير.

حاكوا لحنه الصغيرة فستاناً جديداً ليوم السبت. أبيض كالثلج. وفصّلوا لها حذاءين جميلين من جلد أصلي، وبإيشارب رائع من الحرير

لفوا ضفائر شعرها. لأن حنه كانت ذات ضفائر فاتحة اللون. خرجت حنه إلى الشارع، وإذا بها ترى بائع فحم عجوز ينوء بحمل كيسه الأسود، وقد كان يوم السبت قد اقترب على الأبواب، قفزت حنه لتساعده على حمل كيسه. لأن لحنه الصغيرة قلباً عاطفياً رقيقاً. وحساساً. وهنا تفحم فستانها، كما اتسخ نعلها الجلدي، انفجرت حنه في بكاء مرير.. لأنها طفلة طيبة نظيفة وأيضاً أنيقة، دائماً كانت حنه الصغيرة. استمع القمر الطيب في الأعالي لصوت بكائها، فأرسل شعاعه لكي يلمسها بحنان، وليحول كل بقعة متسخة إلى زهرة ذهبية، وكل لطخة فحم إلى كوكب ذهبي. فلا يوجد في العالم حزن لا يمكن تحويله إلى سعادة بالغة.

بعد أن وضعت الصبي لينام عدت إلى حجرة زوجي مرتدية قميص نوم طويل وشفاف وصل إلى كاحلي، وضع ميخائيل علامة بين صفحات الكتاب.. ثم أغلقه وأطفأ غليونه.. كما أطفأ مصباح المكتب.. بعد ذلك قام واحتضن خاصري ولم يتكلم.

بعد أن خمد ميخائيل، وروى ظمأه.. فتحت قلبي، وقلت ما رأيت أنه أكثر الكلام تلاؤماً:

«هلا أخبرتني الآن لماذا تروق في عينيك كلمة كاحل؟ تروق لي لأنها تروق لك كما قلت لي ذات مرة. ربما ليس متأخراً أن أخبرك أنك ما زلت رقيقاً ومهذباً. أنك نادر الوجود يا ميخائيل! ستكتب بحثاً رائعاً وأنا التي ستنسخ مسودته النهائية. بحثاً دقيقاً ستكتب يا ميخائيل! يائير وأنا سنكون فخورين بك للغاية.. كما سيسعد بك والدك أيضاً، وستكون أيامنا مختلفة. ستنفرج الأمور. إني أحبك. منذ أن كنا في كافيتيريا تيراه -

سانتا أحببتك. وربما لا يكون الأمر متأخراً لأن أخبرك أنني أريد أن أكون زوجتك. جداً. راح ميخائيل في النوم. هل لي أيضاً أن ألومه على ذلك؟! تحدثت إليه من أعماق أعماقي، وها هو متعب حتى الموت. جلس إلى مكتبه ليلة بعد ليلة حتى الثانية أو الثالثة صباحاً.. منكفئاً على الصفحات.. يلعق مقدمة غليونه المطفأ. من أجلي أخذ على عاتقه تصحيح أعمال طلاب السنة الأولى، وأيضاً يقوم بترجمة بعض المقالات العلمية من الإنكليزية إلى العبرية. من أجره الذي تقاضاه على ذلك اشترى لي فرناً (غاز) كهربائياً، ولياثير اشترى عربة طفل من النوع الغالي، وكانت ذات زنبركات وغطاء ملون، متعباً كان، صوتي كان من أعماق أعماقي ولذلك راح ميخائيل في النوم.

همست لزوجي الحاضر النائم بالأمر الأكثر حساسية في داخلي. عن أمر التوأمين حكيت في همس، وعن أمر الطفلة النحيلة التي كانت ملكة على التوأمين، لم أخف شيئاً، حتى الفجر بقيت أداعب في الظلام أصابع يده اليسرى.. على حين كان قد دفن رأسه في الوسادة، ولم يشعر وها أنا أعود لأنام إلى جانب زوجي ليلاً. في طرف الصباح كان ميخائيل كعادته نشيطاً وسريعاً، أخيراً ظهرت تحت طرف أنفه اليمين تجعيدة خفيفة لا يزال من الصعب تمييز هذه التجعيدة إلا بنظرة ثاقبة، لكن لو زادت وأصبحت عميقة هذه التجعيدات على وجهه سيصير ميخائيل أكثر فأكثر قريب الشبه بأبيه.

١٨

أستريح بعيداً عن الأحداث، هذا مكاني، أنا هنا وهكذا والأيام تمر متشابهة كسابقاتها وأنا لا أتغير، حتى الفستان الصيفي الذي اشتريته ذا الفاصل العالي جداً من الخاصرة، أنا ما زلت نفسي لم أتغير. لقد جهزوني في حيطة، ولفوني بغلاف رائع، مربوط بشريط أحمر، وعرضوني في الواجهة، اشتروا، وأزالوا الغلاف وبعد أن استخدموه ألقوه جانباً، الأيام متشابهة، خصوصاً حين يكون صيفاً في القدس.

كتبت الآن كذبة متعبة.. فعلى سبيل المثال ذات يوم في نهاية شهر يوليو/ تموز من عام ١٩٥٣. زرقاء سماؤه، مليء بالأصوات والمناظر، وبائع الخضار الوسيم في الصباح الباكر. بائع خضارنا الفارسي السيد إلياهو موشيح، وابنته ليفانا ذات الضفائر المجدولة. كان قد وعدنا السيد غوتمان صاحب محل بيع الأدوات الكهربائية في شارع دافيد يالين بإصلاح المكواة خلال يومين، وعاد وأكد أنه سيفي بوعده، وعرض مصباحاً أصفر يعمل على طرد الناموس من الشرفة في ساعات المساء.

في ذلك الوقت كان يائير يبلغ من العمر عامين وثلاثة أشهر، حين تدحرج على السلالم معتمداً على قبضتيه الصغيرتين. ظهرت بقع من الدماء على ركبتيه، ربطت الجرح من دون أن أنظر لوجه الطفل. في الليلة السابقة رأينا فيلماً إيطالياً جديداً بدار سينما أديسون، اسمه كان

«لصوص الدراجات»، على الغداء أعرب ميخائيل عن آراء إيجابية متحفظة. فقد اشترى من المدينة الصحيفة المسائية التي تحدثت عن كوريا الجنوبية، وعن عصابات المستللين في صحراء النقب، في زقاقنا اندلع شجار بين اثنتين من النسوة المتدينات، سيارة إسعاف أطلقت صفيرها من اتجاه شارع «راشي» وشارع «هاطوريم». تحدثت معي إحدى الجارات بمرارة عن أسعار السمك ونوعيته، وضع ميخائيل نظارة على عينيه لأنهما أصبحتا متعبتين، نظارات للقراءة فقط، اشتريت جيلاتي (بوظة) ليائير ولي من مقهى اللنبي بشارع الملك جورج، انسكب الجيلاتي (البوظة) على كم سترتي الزرقاء، لجيراننا من أسرة «كامنيتسر» فتى اسمه يورام. فتى حالم أشقر الشعر في حوالى الرابعة عشرة من عمره. كان يورام هذا شاعراً. أشعاره تحكي عن العزلة النفسية، أحضر بعض صفحات من أشعاره لكي يقرأها عليّ لأنه علم أني كنت في صباي طالبة أدرس الأدب، انتقدت أشعاره، صوته ارتجف، شفتاه ارتعشت، وعلى عينيه بدت ومضة خضراء. قصيدة جديدة أحضرها لي يورام. قصيدة كتبها في ذكرى الشاعرة راحيل. وقد قال في قصيدته إن الحياة بلا حب تشبه صحراء قاحلة، مسافر وحيد يبحث عن نبع مياه في الصحراء.. إلا أن السراب يخدعه. يقع المسافر مغشياً عليه، على ضفاف النبع الحقيقي.

ضحكت: «فتى متدين عضو في حركة بني عقيقة المتدينة وتكتب قصائد غرامية». للحظة خاطفة كانت لدى يورام القدرة على مشاركتي في ضحكي وأن يبتسم، إلا أنه عاد فأمسك بذراع الكرسي، وسحب لون أصابعه وكأنها أصابع فتاة. ضحك معي. ثم فجأة ترقرق الدمع في عينيه، أقفل يده ثم طوى، من دون نظام، الورقة التي كتب عليها

القصيدة، وفجأة استدار هارباً من شقتي، توقف إلى جانب الباب، وهمس:

«معذرة يا سيدة غونين! إلى اللقاء».

وأما الندم...!!؟؟

وفي المساء زارنا السيد ابراهام قاديشمان صديق العمة ليئه القديم، شرب معنا القهوة، وانتقد حكومة اليسار.

هل حقاً تتشابه الأيام، وتمر من دون أن تترك أثراً. لقد فرضت على نفسي القيام بواجب صعب عن كل يوم، وعن كل ساعة أدون فيها هذه الذكريات. لأن الأيام أيامي، هي ملكي، وأنا مستريحة، والأيام تمضي مسرعة، تماماً كالجبال التي تمضي إلى الخلف في نافذة القطار. على طريق القدس. بجانب القرية العربية بتير. أنا سأموت، ميخائيل سيموت، وبائع الخضار الفارسي إلياهو موشيح سيموت. ليفانا ابنته ستموت. يورام سيموت. قاديشمان سيموت. كل الجيران. كل السكان سيموتون. والقدس كلها ستموت وحينئذ سيمر هنا قطار غريب. مليء بغرباء.. سيكونون مثلنا أيضاً يطلون من نوافذ القطار لرؤية جبال غريبة، وهي تمضي إلى الخلف.. حتى ولو أردت قتل صرصور يسير على أرضية المطبخ لا أستطيع من دون أن أفكر في نفسي، وأيضاً أفكر في أمور دقيقة جداً عميقة عميقة داخل الجسد، أشياء دقيقة تخصني مثل القلب والأعصاب والرحم. هذه الأشياء ملكي، تخصني جداً، ومع ذلك إطلاقاً لن أتمكن من رؤيتها بعيني، أو من لمسها بأصابعي لأن الكل.. الكل بعيد في هذا العالم. لو استطعت احتلال القاطرة، وأن أتوج أميرة

على القطار وأن أتلاعب بالتوأمين المرنين كأنهما منبعثان من داخلي، وينتميان لي. يد يسرى، ويد يمنى.

أو حقاً سيظهر في النهاية في اليوم السابع عشر من شهر أغسطس/ آب عام ١٩٥٣ في الساعة السادسة صباحاً، وعلى مدخل بيتنا سائق سيارة أجرة من بخارى اسمه (عا٢)رحاميم رحميموف. قوي البنية، وتعلو وجهه ابتسامة.. يدق الباب، ويسأل برقة هل السيدة إيفون أوزلاي مستعدة للرحلة. سأكون مستعدة تماماً لأن أرحل معه إلى اللو، ثم أستقل طائرة تابعة لشركة أوليمبيك، وأسافر للسهوب الروسية البيضاء ليلاً. أركب مزلاجاً وأنا متدثرة بمعطف من جلد الدب. ظلال سائق المزلاج تبدو كثيفة.

وفي الفضاء الثلجي الرهيب تومض عيون ذئاب هزيلة.. شعاع القمر يتساقط على فروع الشجرة الوحيدة. لتتوقف أيها السائق. يتوقف لحظة. يدير وجهه نحوي حتى أراه. وجهه عبارة عن نقوش خشبية غير مصقولة تبدو على الضوء الأبيض الناعم، هناك كرات ثلجية ضئيلة متعلقة بطرف شاربه، الغواصة ناتيلوس ما زالت تحيا بعد أن أصلحوها، وما زالت على قيد الحياة تجتاز أعماق البحر ضخمة.. مضاءة لا صوت لها تحت المحيط الرمادي المليء بالتيارات المتقاطعة الدافئة في كهوف الأعماق أسفل سلسلة الصخور المرجانية قرب مجموعة جزر الأرخبيل، تنزلق أعمق فأعمق بقوة دفع هائلة، تعرف إلى أين هي ذاهبة، وتعرف لماذا لا تعرف الراحة كالصخرة وليست كامرأة منهكة، وعلى شواطئ خليج نيو فاوند لاند، أمام شفق القطب الشمالي تجوب المدمرة البريطانية دراغون المياه جيئة وذهاباً، ملاحوها لا يذوقون طعم النوم من شدة

خوفهم من موبي ديك، الحوت الأبيض النبيل. في سبتمبر/ أيلول ستبحر الغواصة دراغون من نيوفاوند لاند إلى نيو كاليدونيا حاملة معها إمدادات لمحطة قوات الإمداد هناك. لا تنسي أيتها المدمرة دراغون ميناء حيفا، وفلسطين، وحنه البعيدة.

على امتداد تلك السنين ظل الأمل يراود ميخائيل بتغيير شقتنا التي في حي ماكور ـ باروخ إلى شقة أخرى في حي راحافيا، أو في حي بيت هاكيرم. إذ إنه لا يحب السكن هنا. حتى عماته الأربع تتعجبن في حيرة من أمرهن لماذا يعيش ميخائيل بين المتدينين بدلاً من العيش في مناخ ثقافي متحضر، الباحث يحتاج إلى هدوء، تعتقد العمات، والسكان هنا مزعجون. أنا المتهمة عن عدم نجاحنا حتى اليوم في توفير أي مبلغ أولي (عربون) لشراء شقة جديدة.. رغم أن ميخائيل كان مهذباً لدرجة أنه لم يقل ذلك لعماته، في كل سنة، ومع قدوم الخريف، أصاب بنوبة شراء أدوات كهربائية ستارة (برداية) رمادية لامعة لتغطية جدار بأكمله. كثير من الملابس الجديدة. قبل الزواج كنت مقلة في شراء الملابس.. حين كنت طالبة جامعية تعودت أن أرتدي طوال الشتاء فستاناً صوفياً أزرق حاكته لي أمي، أو بنطلون قطيفة بني تعلوه سترة (كنزة) حمراء ضيقة. تلك الموضة بين فتيات الجامعة للفت الانتباه إليهن، وترك انطباع من الإهمال المرح. والآن يضيق صدري بالفساتين الجديدة بعد أسابيع معدودة من شرائها. نوبة شراء تجتاحني كل خريف. أنتقل محمومة ومتلهفة من محل لمحل. كأن الجائزة الحقيقية ما زالت تنتظرني، ولكن دائماً في مكان آخر.

ميخائيل تعجب مني. لماذا توقفت عن ارتداء الفستان ذي الخصر

العالي والذي كنت مسرورة جداً بشرائه منذ ستة أسابيع فقط، إنه يحبس دهشته، يحرك رأسه لأعلى ولأسفل، وكأنه يتلفظ بأفكار تجعل دمائي تغلي. ربما من جراء ذلك ذهبت للمدينة، وفي نيتي أن أصدمه بتبذيري. أحببته في رباطة جأشه، وبكتم غيظه. أردت انفجار غضبه.

والأحلام.

أشياء قاسية تتجه نحوي كل ليلة، في الفجر يتدرب التوأمان على استخدام القنابل اليدوية بين صخور صحراء يهودا في الجنوب الشرقي لمدينة أريحا. لا يستخدمون كلمات، أجسامهما متشابهة للغاية، رشاش على الكتف، بملابس الكوماندوس الثقيلة الملونة بالشحومات. وريد أزرق منتفخ ينبعث ويتلوى على جبهة خليل، وعزيز ينحني يندفع بجسمه، خليل يميل برأسه، عزيز يلف ويقذف القنبلة. بريق الانفجار الجاف. الجبال تعيد، وتعيد صدى الانفجار. البحر الميت يرقد شاحباً من خلفهم كبحيرة من الزيت المشتعل.

١٩

في القدس باعة جوالون طاعنون في السن، وهم لا يشبهون بائع الفحم الفقير في قصة فستان حنه الصغيرة.. فلا يشع من وجوههم نور داخلي بل كراهية باردة تغلفهم. باعة جوالون طاعنون في السن أصحاب حرف مذهولون يتجولون في المدينة، إنهم غرباء لسنوات عديدة، أعرف شكلهم وأصواتهم حتى حين كنت أرتجف منهم، سأكتب عنهم أيضاً ربما لا يعودون لتخويفي ليلاً. أحول فك رمز قوانينهم ودروبهم بأن أخمن مسبقاً في أي يوم سيأتي واحد منهم ليصرخ في أزقة حينا. فمن المؤكد أنهم أيضاً يخضعون لنظام ما، ولجدول زمني داخلي. صوته أجش ومقفر، وهو لا يحمل معه لا أدواتاً ولا ألواحاً زجاجية. كأنه يسلم مسبقاً بعدم وجود استجابة لنداءاته: روبابيكيا (خردة للبيع) كيس كبير على ظهره كاللص في إحدى قصص الأطفال المصورة «أصلح وابور بريموس». رجل غليظ بهيكل عظمي ضخم كصورة الحداد القديم. مراتب. فرش. فرش. مرا... من حلقه تخرج لفظة مراتب، وكأنها كلمة سر يقولها قواد لزبائنه. المجلخ يحمل معه عجلة خشبية يديرها بذراع متحرك بالضغط بالقدم. لا أسنان في فمه. أذناه طويلتان ويملأهما الشعر كالخفاش.

أصحاب حرف مسنون، وباعة جوالون غرباء.

على امتداد سنوات وسنوات يقطعون شوارع القدس ذهاباً وإياباً من دون أن يمسهم الزمن. كأن القدس قلعة أشباح شمالية، وهم الأرواح الشريرة تكمن انتظاراً.

ولدت في حي كريات ـ شموئيل على حدود حي قطمون في آخر أيام عيد السكوت (المظال) من عام ١٩٣٠. أحياناً أخطئ الظن في أن صحراء قاحلة تفصل بين بيت والدي وبيت زوجي.

لم أمر إطلاقاً في الشارع الذي ولدت فيه. في صباح يوم سبت خرجنا في نزهة.. ميخائيل، يائير وأنا، حتى نهاية حي الطالبية. رفضت أن أذهب أكثر من ذلك، ضربت الأرض برجلي كطفلة مدللة لا. لا. ضحك مني ابني وزوجي لكنهما تنازلا.

في حي ميئاه شعاريم وبيت إسرائيل، وفي سنهدريا، وفي كيرم أفراهام، وفي ذخارون موشيه (ذكرى موسى) وفي أجفا، وفي نحله شعفاه يعيش المتدينون اليهود، غربيون (أشكناز) بقبعات من الفرو، ويهود شرقيون بأرواب مخططة. نسوة عجائز تتجمدن في صمت فوق كراسٍ قصيرة، وكأن القدس ليست مدينة صغيرة، بل قطر متسع الأرجاء يمتد أمامهن، وعليهن أن يشحذن أعينهن حتى تصير كأعين الصقر ليستطعن مسح الأفق البعيد كل يوم وليلة.

لا نهاية للقدس، الطالبية قارة جنوبية منسية.. مختبئة بين قمم أشجار الصنوبر التي تتهامس في ما بينهما دائماً، ضباب ضارب إلى الزرقة يتصاعد من صحراء يهوديا التي تحد حي الطالبية من الشرق، الضباب يلامس البيوت الصغيرة في الطالبية، كما أنه يلامس حدائقها التي تغطيها أشجار الصنوبر.

بيت هاكيرم بلدة صغيرة منعزلة، ومختبئة في عزلة واسعة تلفحها رياح شديدة، والحقول الصخرية تمتد من كل اتجاه. حي بيت فالجان ليس إلا قلعة جبلية صغيرة منعزلة.. حيث ينبعث لحن كمان من خلف النوافذ المغلقة طوال اليوم. على حين تعوي الثعالب ليلاً من الجنوب، ويسود صمت في حي راحافيا، وفي شارع سعد ياجاؤون بعد الغروب، ومن نافذة مضاءة، يبدو مثقفاً أشيب الشعر يجلس إلى مكتبه. أصابعه تدق على مفاتيح آلة كاتبة. يكتب بلغة أجنبية، وكأن حي شعاري حيسيد لا يقع في نهاية هذا الشارع. حيث هناك نسوة حافيات تتجولن ليلاً بين ملابس الغسيل الملونة، والمنشورة في الهواء، وفيه أيضاً قطط ماكرة تهرب من فناء إلى آخر. هل يمكن لهذا الرجل الذي يدق على الآلة الكاتبة ذات الحروف الأجنبية ألا يشعر بكل ذلك، وكأن تحت شرفته لا يمتد وادي الصليب.. حرش قديم يرقى منحدراً يمتد حتى بيوت راحافيا المتطرفة كأنها تنوي أن تغلق هذه البيوت، وتخنقها بقمم أشجارها الكثيفة المتشابكة، مشاعل صغيرة تضيء بين الفترة والأخرى في الوادي، وتخنقها بقمم أشجارها الكثيفة المتشابكة، مشاعل صغيرة تضيء بين الفترة والأخرى في الوادي، أغان مكتومة ومستمرة تنبعث من الغابة لتصل إلى زجاج النافذة. مع الظلام تندفع قنافذ (أزعر) أشقياء وأسنانها بيض من أطراف المدينة لتصل إلى حي راحافيا. بهدف تحطيم مصابيح الشوارع بأحجار صغيرة وحادة. الشوارع لا تزال هادئة شوارع: راداك، ورمبام، ورمباني، الحريزي[1]،

---

(١) الحريزي: يهودا الحريزي، من مواليد الأندلس في النصف الثاني من القرن الثاني عشر.=

أفرنفال، ابن عذرا[1]، ابن جبيرول[2]، سعديا

=عاش في نهاية ذلك القرن في عدد من مدن بروفانس ثم سافر حوالى عام ١٢١٥ إلى دول الشرق وعاش في مصر وفلسطين وسوريا، والعراق وتوفي عام ١٢٣٥.
كان يهودا الحريزى متمكناً من اللغتين العربية والعبرية وكان كل ما يكتبه العرب ينقله إلى لغة عبرية بليغة، لذلك ذهب إلى بروفانس الغنية ليعمل هناك بمهنة الترجمة بحسب طلب الأغنياء هناك. ومن أوائل الأعمال التي قام بترجمتها إلى العبرية من العربية كتاب مقامات الحريري، وكانت هذه الترجمة بمثابة طوق أدبي كتبت بأسلوب رائع. كما ترجم جزءاً من تفسير موسى بن ميمون للمشنا. بعد ذلك رأى الحريزي أنه يجب أن يضع كتاب مقامات عبرية. وتبلورت في مخيلته صورة كتاب «تحكموني» وفي الجيترا ـ أي المخطوطات الأثرية لليهود في القاهرة ـ توجد بقايا أشعار، ومقامات وضعها باللغة العربية أثناء سفره إلى الشرق. كما اشتهر يهودا الحريزي بمقامات «إيتيل» التي هي ترجمة لمقامات الحريزي، وكتاب تحكموني الذي يحتوي على مقامات عبرية خالصة تتناول موضوعات تاريخية، وأدبية وغيرها، وتبرز من خلالها قدرته على امتلاك اللغة العبرية، ووضعها في الشكل الأدبي والبلاغي الذي يريده. وبالإضافة إلى هذين المؤلفين توجد عدة قصائد دينية وعلمانية وقصيدة تعليمية.

(١) موسى بن يعقوب بن عذرا: يعرف أيضاً باسم: أبو هارون موسى بن عذرا، ولد في غرناطة حوالى سنة ١٠٥٥، ومات في إسبانيا المسيحية في ما بين ١١٣٥، ١١٤٠م. درس عذرا في اليسانة على أيدي إسحاق بن غياث، وكان على صلة بالمثقفين اليهود والعرب في عصره، فقد كان يجيد العربية ووقف على كنوز أدبها واستخدامها في كتابات أدبية. كما وضع موسى بن عذرا مؤلفاً يعتمد على الجناس بالعبرية يعرف باسم «كتاب العملاق» وخصصه لأحد أصدقائه وهو الوزير إبراهيم بن مهاجر. وقدم موسى بن عذرا كتاباً فريداً من نوعه بالنسبة للأدب العبري كتبه بالعبرية وسماه «كتاب المحاضرة والمذاكرة» الذي ترجمه بن تسيل هليل إلى اللغة العبرية، ويحتوي هذا الكتاب على إجابات لثمانية أسئلة تتعلق بالأدب، وصناعة الشعر ومحسناته، وقد ألف هذا الكتاب وهو طاعن في السن. كما وضع كتاباً فلسفياً سماه «بالحديقة» (الحديقة في معاني المجاز والحقيقة) الذي تمت ترجمته إلى العبرية. بالإضافة إلى ذلك خلف موسى بن عذرا العديد من القصائد الدينية التي تدور معظمها حول طلب العفو والغفران.

(٢) ابن جبيرول: واسمه رابي شلومو ابن جبيرول وهو من كبار الشعراء والمفكرين اليهود=

جاؤون[1]. لكن الملاحين لا يزالون هادئين أيضاً فوق ظهر المدمرة البريطانية دراغون حين يندلع تمرد مشوش في باطنها، في أطراف شوارع القدس تبدو مع الغسق جبال شاهقة تنتظر حلول الظلام لكي تتساقط على المدينة المنطوية على نفسها.

في تل أرزه بشمال القدس تعيش امرأة عجوز تلعب البيانو. تتدرب بلا توقف وبلا تعب، كأنها تعد لحفلة موسيقية تعزف فيها بمفردها ألحاناً من سيمفونيات لشوبرت وشوبان، ويقف برج النبي صموئيل وحيداً على رأس جبل من الشمال. يقف بلا حراك وراء خط الحدود، ينظر طوال الليل والنهار إلى عازفة البيانو العجوز الجالسة باستغراق تام على البيانو، وظهرها إلى النافذة المفتوحة. في الليل، يبتسم البرج بسخرية، يبتسم وهو عال ورفيع يبتسم ساخراً، وكأنه يهمس لنفسه «شوبان وشوبرت»!

في أحد أيام أغسطس/ آب خرجت مع ميخائيل في نزهة طويلة،

=في العصر الأندلسي أي في القرن الحادي عشر الميلادي. له كتاب في النحو العبري يسمى كتاب اللمع أشار فيه إلى اختلافات الرسم أو القراءة في عصره بين مخطوطات متنوعة من الكتاب المقدس اليهودي، وقد توفي ابن جبيرول في أوساط القرن الحادي عشر.

(١) سعديا الجاؤون: وله اسم آخر هو سعديا الفيومي، وهو من مواليد مدينة الفيوم بمصر عام ٨٨٢ وظل بها حتى عام ٩٠٥ ثم تركها إلى فلسطين حيث مكث فيها مدة من الزمن للدرس والتحصيل. وفي عام ٩٢٨ تم تعيينه رئيساً لجامعة سورا ببغداد، وهي جامعة كانت تقوم بتدريس العلوم الدينية. وقد ترك عدة مؤلفات أهمها كتاب في النحو ـ كتاب في المواريث يعد مرجعاً مهماً للباحثين بالإضافة إلى معجم لغوي مرتباً ترتيباً أبجدياً يعد الأول من نوعه.. كما وضع ترجمة عربية للتلمود مع شرحها شرحاً وافياً يشتمل على مناقشات حول مذهبي القرائيين والربانيين حاول فيها أن يهدم مذهب القرائيين.

ظل يائير في بيت أعز صديقاتي هاداساه الواقع بشارع بتسلائل. كان صيفاً بالقدس وفي شوارعها ضوء آخر، أقصد الوقت الذي بين الخامسة والنصف، والسادسة والنصف، ساعة الضوء الأخير.. كانت النسمة منعشة. في شارع بري حاداش كان هناك فناء مرصوف بالبلاط، مفصول عن الشارع بسياج مهدوم، من بين حجارة الرصف نمت شجرة قديمة، لا أعرف اسمها. في الشتاء كنت قد مررت هنا بمفردي، وظننت أن هذه الشجرة ميتة. الآن تنمو فروع رقيقة من جذعها، كان هذا النمو قوياً كأنه مخالب مسنونة. من شارع بري حاداش توجهنا يساراً إلى شارع «يوسف بن ماتياهو»، رجل ضخم أسمر يتدثر معطفاً، ويضع فوق رأسه قبعة رمادية. رمقني بنظرة حادة عبر واجهة محل الأسماك وكأنني مجنونة، أو كأن زوجي الحقيقي يرمقني بنظرة حانقة من خلف الزجاج المضيء لواجهة محل الأسماك. يتدثر بمعطف وكاسكيت رمادي.

أخرجت النسوة كل مفارش بيوتهن إلى الشرفات ستائر وألحفة وردية، فتاة نحيلة قامتها طويلة وقفت على إحدى الشرفات في شارع «هاشمونا» مشمرة الأكمام ورأسها ملفوف بإيشارب في غضب، وبمنفضة خشبية، أخذت تضرب على اللحاف لتنفيضه، ولم تلحظنا.

على أحد الجدران كانت كتابة حمراء غير واضحة من أيام منظمات العمل السري اليهودي.

«بالدم والنار سقطت يهودا، وبالدم والنار ستنهض يهودا».

هذه النظرة بعيدة عن قلبي. لكن نغم هذه الكلمات هز مشاعري. قمنا بنزهة كبيرة أنا وميخائيل ذاك المساء، عبر حي «هابور خاريم»، سلكنا شارع النبي «صموئيل» حتى بوابة «المندل ـ باوم»، ومن هنا سلكنا الطريق الملتوي الذي يمر بين البيوت «الهنغارية» إلى حي

«الأحباش»، إلى «المطراره»، وإلى آخر شارع «يافا» حتى ميدان «نوتردام». القدس مدينة متقدة. أحياء بأكملها كأنها معلقة في الهواء. لكن بنظرة أخرى تتكشف عن جلال مهيب لا يضاهى. القوة الطاغية في شعب الأزقة الملتوية، متاهة من المباني الموقتة، والأكواخ والسقائف ترقد في غضب مكتوم فوق المباني الحجرية، التي تقترب بألوانها أحياناً إلى الزرقة، وأحياناً إلى الحمرة، مزاريب صفيح صدئة. أنقاض جدران بلا بيت، صراع قوي، وصامت بين الحجر وبين النباتات العنيدة، مساحات من أكوام الزبالة والأشواك، العبث المتهور الصادر عن الأضواء، في اللحظة التي تمر فيها سحابة خفيفة بين ضوء الغسق وبين المدينة تكون قدساً أخرى.

والأسوار

في كل حي، وفي كل ضاحية يقوم مركز مخفي يحيطه سور عال، حصون معادية مقفولة في وجه الآتي والغادي، من ذا الذي بإمكانه أن يستوطن القدس؟ أتساءل أنا، حتى ولو عاش هنا مائة عام.. إنها مدينة الأفنية المغلقة، نفسها مخنوقة خلف جدران كئيبة.. تعلوها قطع زجاج مكسور حاد. لا قدس. بل فتات متساقط عمداً كي يضلل الأبرياء. قشور داخلها قشور. أما النواة فمحظورة، إنني أسجل هنا أنني من مواليد القدس. أما أن القدس مدينتي فهذه لا أستطيع أن أكتبها. فأنا لا أعرف بعد ما الذي يتربص لي في أعماق المسكوبية، أو وراء أسوار «شنيلر»، أو في داخل «الأديرة بعين كارم»، أو في منطقة «قصر المندوب السامي» على تلال النصيحة السيئة، إنها مدينة منطوية على نفسها. في شارع «ميلسندا»، وبعد أن أضيئت مصابيح الشارع. انقض على ميخائيل يهودي ضخم جميل الخلقة. أمسك بزر معطفه كأنه من معارفه القدامى، ووجه هذه الألفاظ إلى زوجي بهدوء:

«ويل لك يا معكر صفو إسرائيل.. إن شاء الله تموت!».

أخذ ميخائيل على حين غرة، وبهت لونه لأنه لم يكن خبيراً بمجانين القدس. عاد الرجل الغريب، وابتسم ابتسامة حانية جداً. وأضاف بهدوء:

«فليكن الموت من نصيب كل أعداء الرب.. آمين يا رب العالمين». ربما كانت نية ميخائيل أن يبدأ الحديث، ويشرح للغريب أنه أخطأ واستبدله بألد أعدائه، ولكن الرجل توجه إلى حذاء ميخائيل وأنهى الموضوع قائلاً:

«تفو عليك وعلى كل عائلتك إلى الأبد آمين آمين!».

قرى، وضواح تطوق القدس في دائرة محكمة كرجال فضوليين يلتفون حول امرأة جريحة ملقاة على الشارع: النبي صموئيل. شعفاط، الشيخ جراح، العيسوبة، أوغسته ـ فكتوريا، وادي الجوز. سيلوان صور ـ باهر. بيت صفافه. لو أطبقت هذه القرى والضواحي أصابعها لتحطمت المدينة، أمر لا يصدق، في هذه المدينة يتجول مثقفون كبار، وأساتذة أيضاً كل ليلة بأجسامهم الضئيلة لاستنشاق نسمة هواء. يتحسسون بعصيهم بلاط الأرصفة كأنهم متجولون عميان في سهوب، أو حقول التبغ، تقابلنا أنا وميخائيل مع اثنين منهم في «زقاق كونتس» خلف مبنى «سانسور». يسيران ممسكان بأذرع بعضهما كأن كلاً منهما يشجع أخاه في مشيته وهما بين كارهين وأعداء لهما. ابتسمت وألقيت عليهما السلام بصوت عالٍ ومرح. أسرعا برفع أيديهما، أحدهما لوح بقبعته أما الآخر فكان حليق الرأس، ولهذا لوح بحركة رمزية مشوشة.

٢٠

في الخريف تم تعيين ميخائيل أستاذاً معيداً في قسم الجيولوجيا. هذه المرة لم يدع أصدقاءه إلى حفل منزلي، وإنما احتفل بالمناسبة بأن أخذ إجازة ليومين، سافرنا مع ابننا إلى تل أبيب، ونزلنا ضيوفاً في بيت العمة ليئه، المدينة المنبسطة، وألوان الأوتوبيسات الزاهية، ومنظر البحر، ومذاق الريح المالحة، أشجار الزينة المفروشة بعناية على جانبي أرصفة الشوارع، وقممها المقصوصة بزوايا حادة. كل هذا أثار لديَّ نوعاً من الحنين الجارف، لا أعرف من أين، ولا أعرف إلى ماذا؟ كان هدوءاً. مع توقع غامض. زرنا حديقة الحيوانات، والتقينا بثلاثة أصدقاء لميخائيل من أيام الدراسة. رأينا عرضين مسرحيين على مسرح «هابيمه»، أبحرنا مع طفلنا في قارب استأجرناه من حي «هايركون» إلى اتجاه الطواحين السبع، ظلال أشجار الكافور، الكينا الضخمة تساقطت على الماء، وهي ترتجف. كانت ساعة غاية في الهدوء.

في ذلك الخريف عدت أيضاً للعمل خمس ساعات يومياً في روضة العجوز سارة زلدين، بدأنا في تسديد الأموال التي اقترضناها بعد زواجنا، كما سددنا جزءاً من ديون عمات ميخائيل. إلا أننا لم نتمكن من البدء في توفير ثمن شقة جديدة، لأنني في ليلة عيد الفصح خرجت واشتريت من دون استشارة ميخائيل كنبة حديثة الطراز، وثلاثة كراسٍ

ملائمة للكنبة من محل روزفيسكي، أغلقنا الشرفة بطوب بعد أن استطاع ميخائيل الحصول على ترخيص قانوني من سلطات البلدية، وقد أطلقنا على الشرفة المغلقة اسم حجرة العمل. فيها وضع ميخائيل مكتبه ونقل إليها أيضاً كتبه، اشتريت لميخائيل مجلدات الموسوعة العبرية كهدية بمناسبة عيد زواجنا الرابع، واشترى لي ميخائيل جهاز راديو من صنع محلي.

يجلس ميخائيل إلى مكتبه حتى وقت متأخر في الليالي. باب من زجاج يفصل بين حجرة العمل الجديدة وبين الحجرة التي أنام فيها.. عبر الزجاج يرسل مصباح القراءة ظلالاً على الحائط المقابل لسريري، أثناء الليل تختلط ظلال ميخائيل بالأحلام. لو صادف وفتح درجاً أو حرك كتاباً أو وضع نظارته أو أشعل غليونه، فإن كتلاً غامقة تتحرك على الحائط الذي قبالتي، تتساقط الظلال في صمت رهيب، وأحياناً تتشكل، أغمض عينيَّ بشدة، لكن الصور لا تتنازل حتى أعود لفتح عيني، وكأن الحجرة كلها تنقلب رأساً على عقب، ومع كل حركة يأتي بها زوجي ليلاً بجانب مكتبه.

أسفت لأن ميخائيل جيولوجي وليس مهندساً معمارياً، لو أنه سهر الليالي على مخططات المباني، والطرق، والتحصينات القوية أو ميناء حربي لترسو فيه المدمرة البريطانية دراغون.

يد ميخائيل رقيقة وواثقة.. كم هي واضحة ونقية الرسوم البيانية التي تخرج من تحت أنامله وهو يرسم خريطة جيولوجية على ورقة شفافة. يضم شفتيه أثناء العمل فتصبح كأنها خيط رقيق. يبدو لي أنه قائد عسكري، أو سياسي يتخذ قراراً مصيرياً ببرود. لو كان ميخائيل مهندساً

معمارياً ربما كان بمقدوري أن أتقبل هذه الظلال التي تتساقط على جداري ليلاً غريبة، ومرعبة في الليل، فكرة أن ميخائيل يبحث في أمور طبقات مظلمة في باطن الأرض، كأنه يثير في الليل عوالم لا تسامح.

أخيراً أقوم من سريري فأغلي شاياً مع النعناع كما تعلمت من السيدة ترنو فولر التي كانت ربة المنزل الذي كنت أقطنه قبل زواجي أو أضيء النور، وأقرأ في كتاب حتى منتصف الليل، أو حتى الواحدة صباحاً إلى الوقت الذي يتسلل فيه زوجي بهدوء ويرقد بجانبي، ويتمنى لي ليلة هادئة، ويقبل شفتي ثم يشد البطانية إلى أعلى رأسه. الكتب التي أقرأها في الليالي لا تدل على أنني كنت طالبة في كلية الآداب ذات يوم:

سومرست موهام، أو دافني دي موريه باللغة الإنكليزية، طبعات بأوراق ملونة. ستيفان زفايغ، رومان رولان. أصبح ذوقي عاطفياً. بكيت حين قراءتي «امرأة بلا حب» بقلم أندريه موروا بترجمة رخيصة. كتلميذة في الثانوي بكيت. لم أحقق توقعات أستاذي البروفيسور، ولم أحقق آماله يوم حياني بعد زواجي.

أثناء وقوفي إلى جانب حوض المطبخ أستطيع أن أرى عبر النافذة كل الفناء الخلفي. فناء بيتنا مهجور، ومهمل وهو مليء بالطين اللزج شتاء، وبالأشواك والغبار صيفاً، أوانٍ مستعملة تتناثر في الفناء، يورام كامنيتسر ابن الجيران، ورفاقه بنوا حصوناً وقلاعاً من الأحجار بقيت منها الأنقاض، هناك أيضاً حنفية مكسورة ملقاة في طرف الفناء، هناك سهوب روسية، هناك نيوفاوندلاند. هناك جزر الأرخبيل، وأنا منفية هنا، لكن أحياناً أفتح عيني وأرى الزمن. الزمن يشبه سيارة شرطة تجوب الزقاق ليلاً، ضوء أحمر يلمع بومضات سريعة جداً، وفي مقابله تتحرك

الإطارات محدثة هسيساً ناعماً. إنه تحرك حذر وبطيء، مهدد وجانح يطوف خلسة. أردت أن أعتقد في داخلي بأن الجماد لا بد وأنه يتبع إيقاعاً مختلفاً لأنه لا يفكر. مثلاً: على أحد فروع شجرة التين النامية في الفناء يُعلق طوال الأيام قدر صغير صدئ. ربما ألقى بهذا القدر أحد السكان الذين ماتوا منذ زمن من نافذة في أحد الأدوار العليا، وقد تعلق القدر بهذا الفرع أثناء وقوعه. حين جئنا لنسكن هنا كان هذا القدر موجوداً ويظهر من نافذة مطبخنا يعلوه الصدأ، ظل لمدة أربع أو خمس سنوات حتى رياح الشتاء العاتية لم تستطع الإطاحة به أرضاً. وهكذا وفي صباح عيد رأس السنة، وبينما أنا واقفة إلى جانب حوض المطبخ رأيت بأم عيني كيف سقط هذا القدر من الشجرة. لم تهب أي ريح، ولم يحرك الفروع قط أو طير. قوانين قوية لا أعرفها هي التي نضجت في هذه اللحظة. تآكل المعدن وسقط القدر أرضاً. بودي أن أكتب هذا على النحو التالي:

على امتداد تلك السنين رأيت هدوءاً شاملاً في شيء يتحكم به تيار داخلي غامض. كل تلك السنين.

٢١

معظم جيراننا من المتدينين كثيري الأولاد. بدأ يائير وهو في الرابعة من عمره يطرح أحياناً أسئلة لا أعرف لها إجابات.. فأحيله بأسئلته إلى أبيه. وميخائيل الذي يتحدث إليّ أحياناً كأني فتاة صغيرة ثائرة.. تعوّد أن يتحدث مع ابنه كأنهما ندان. تصلني أصوات حديثهما وأنا في المطبخ. إطلاقاً لا يقاطع أحد منهما حديث الآخر. علَّم ميخائيل ابنه يائير أن ينهي كلامه بكلمة: انتهيت. كما أن ميخائيل نفسه يستخدم هذا التعبير حين يصل إلى خاتمة إجابته. بهذه الطريقة اختار زوجي أن يُعَوِّد الطفل على ألا يقاطع أحد منهما كلام غيره. مثلاً قد يطرح يائير السؤال: لماذا يفكر كل شخص بطريقة مختلفة عن الآخرين؟ وعلى هذا يجيب ميخائيل: لأن الناس مختلفون. يعود يائير ويسأل: لماذا لا يوجد أي شخصين، أو طفلين لا فرق بينهما؟ في هذه يعترف ميخائيل بأنه لا يعرف. يتوقف الطفل لحظة، ويفكر ملياً.

وربما يقول أيضاً:

«أعتقد بأن أمي تعرف كل شيء لأنها لم تقل مرة إنها لا تعرف. بل تقول إنها تعرف، ولكن من الصعب عليها أن تشرح لي. أعتقد ما دمنا غير قادرين على الشرح فكيف من الممكن أن نقول إننا نعرف. أنهيت حديثي». ميخائيل ربما بابتسامة متحفظة يحاول أن يشرح لابنه الفرق بين

التفكير والكلام. حين أنصت لحديث كهذا من بعيد لا أستطيع إلا أن أتذكر المرحوم أبي يوسف الذي كان رجلاً منصتاً، وكان يقلّب في كل تعبير.. حتى ولو جاء من فم طفل.. يبحث عن رموز ودلائل لأي حقيقة قد تكون كامنة فيه.. ليستنير بها كل أيام حياته.

في الرابعة والخامسة من عمره كان يائير طفلاً قوياً وصامتاً، أحياناً ينتابه ميل قوي للعنف. ربما تكشف له الحذر الجبان لدى أطفال الجيران. حتى الأطفال الأكبر منه سناً عرف كيف يهددهم بفضل أخذهم فجأة على حين غرة. أحياناً يحدث أن يعود الطفل للبيت من الشارع مضروباً وعليه كدمات من أيدي أباء غرباء، بصورة عامة كان يرفض أن يفصح لنا عمن ضربه. حين كان ميخائيل يستجوبه كانت الإجابة في كثير من الأحيان:

«أستحق ما حدث لي لأنني الذي بدأت. أنا بدأت بالضرب وهم ردّوا عليّ، أنهيت حديثي».

«ولماذا بدأت...؟».

«أغاظوني».

«وكيف أغاظوك؟».

«بجميع الوسائل التي تبعث على الغضب».

«وما هي تلك الوسائل؟».

«لا يمكن أن أشرحها. الغضب لم تسببه كلماتهم.. بل أفعالهم».

«أية أفعال؟».

«أفعال!».

رأيت في ابني نوعاً من الكبرياء الغاضب. اهتمام بالغذاء، بالأغراض، بالأدوات الكهربائية. بالمنبه. وكثير من الصمت الطويل كأنه بلا توقف يقوم بعملية تفكير معقدة.

ميخائيل لم يرفع يده على الطفل في أي مرة.. لأنه يحافظ على مبدأ، ولأنه أيضاً هو تربى بالتفاهم، ولم يرفعوا عليه يداً أيام طفولته، هذا الأمر لا أستطيع أن أقوله عن نفسي. كنت أضرب يائير كل مرة تظهر عليه تلك الكبرياء الهائجة. من دون أن أنظر في عينيه الرماديتين الهادئتين كنت أضربه حتى نجحت (بعد أن كنت ألهث) في منع البكاء من حلقه. يستمر صمته زمناً طويلاً لدرجة تجعلني أرتعد، وعندما تنكسر عجرفته أخيراً كان يصوب إليّ نحيباً غريباً ساخراً. كأنه يتستر على ولد يبكي، وليس كولد يبكي. في الشقة التي تعلو شقتنا في الدور الثالث أمام باب عائلة كامنيتسر يعيش زوجان متقدمان في السن بلا أطفال. عائلة جليك. تاجر خردوات متدين، أما زوجته فتصاب بنوبات هستيرية. كنت أستيقظ على صوت عويل منخفض ومستمر كأنه بكاء جرو صغير. ويحدث أحياناً أن ينبعث صراخ أجش مع الفجر، وبعد برهة من العمق أسمع صرخة ثانية.. صرخة مكتومة كأنها من تحت الماء. بقميص نومي كنت أنتفض من الفراش، وأركض إلى حجرة الطفل، مرات، ومرات كنت أخطئ الظن بأن يائير يصرخ وأن مصيبة حدثت لابني. كرهت الليالي.

حي ماكور باروخ مبني من الحديد والحجر. درابزينات من الحديد على السلالم التي تتسلق من خارج جدران البيوت القديمة. أبواب من الحديد القذر محفور عليها سنة البناء وأسماء المتبرع ووالديه. أسيجة

متداعية كأنها ألصقت بأكوام الحجارة. ظلف صدئة معلقة على مفصلة واحدة وكأنها تهم بالسقوط إلى الشارع، وفي جوارنا على جدار الإسمنت المقشور حفرت بالأحمر العبارة التالية: بالدم والنار سقطت يهودا، وبالدم والنار تنهض يهودا. لم أحب الفكرة التي وراء هذا الشعار. بل أحب ترتيبها الداخلي. نوع من التوازن الخطر لا أستطيع أن أشرحه لكنه في الليل حاضر. حين تطبع مصابيح الشوارع ظلال القضبان على الجدران المقابلة، وكأن كل شيء صار مزدوجاً.

حين تعصف الريح ترتج أبنية التنك (الصفيح) التي ركّبها السكّان على شرفاتهم، وعلى أسطح منازلهم. هذه الأصوات تشترك في الكآبة المتكررة دائماً، في السر يطيران فوق البحيرة في آخر الليل. عاريان حتى خاصرتهما، خفيفان، أقدامهما حافية، يتسكعان في الخارج. قبضات تدق على شرائح التنك (الصاج) لأنه فرض عليها تخويف الكلاب حتى الجنون، في الفجر يختلط نباح الكلاب بالعويل المضطرب. التوأمان مندفعان في الخارج، أنا أشعر، أسمع حفيف أقدام عارية، إنهما يضحكان من غير صوت، كل منهما إلى الآخر، قدم هذا على كتف الآخر، ويتسلقان نحوي على شجرة التين المزروعة في الفناء، جاءتهما أوامر بأن ينزعا فرعاً من هذه الشجرة، ويلقوه على ظلف النافذة. لا بقوة وإنما برقة. ذات مرة سمعت خدش أظافر في الظلف، مرة أخرى اختارا أن يتبادلا كوز صنوبر. أرسلوهما لإيقاظي. هناك من يخطئ الظن بأني نائمة، حين كنت طفلة كانت لديّ القدرة على الحب، والآن قدرتي على الحب في طريقها للموت، لا أريد أن أموت.

على امتداد تلك السنين عدت وسألت نفسي أكثر من مرة أسئلة شبيهة بالأسئلة التي جالت بخاطري في طريق عودتنا مشياً في الليل من طيرات ياعر قبل زفافنا بثلاثة أسابيع، ما الذي وجدته في هذا الرجل، وماذا أعرف عنه. لو أن رجلاً آخر قد أخذ بمرفقها حين انزلقت قدماها على الدرج في مبنى تيرا ـ سانتا. هل هناك قوانين تعمل؟ ألا توجد إمكانية لسبر غورها ومعرفتها؟ أم أن السيدة زوجة ترنو فولر قد صدقت في كلماتها لي يومين قبل زفافنا. ما الذي في قلب زوجي؟ لا أحاول أن أخمن. أرى هدوءاً على وجهه كأن مبتغاه أصبح مضموناً، وهو ينتظر الآن غير مكترث، وقانع في انتظار الحافلة التي ستقلنا من الزيارة الممتعة لحديقة الحيوان إلى بيته لكي يأكل ثم يخلع ملابسه ثم يأوي إلى فراشه. في المدرسة الابتدائية تعودنا أن نكتب عن شعورنا في نهاية الرحلة: متعب لكن سعيد. هذا هو التعبير المرسوم على وجه ميخائيل معظم الأيام.

يستقل ميخائيل أوتوبيساً كل صباح في الذهاب لعمله بالجامعة. الحقيبة التي اشتراها له يحزقائيل والده يوم زفافنا قد أكل عليها الزمن وشرب، تمزقت لأنها كانت حقيقة من صنع سنوات التقشف، مصنوعة من جلد غير طبيعي، لم يسمح ميخائيل لي بشراء حقيبة جديدة له كهدية. إنه يتعلق بها، بأصابع دقيقة وقوية يحطم الزمن الجماد، الزمن هو الغالب، داخل حقيبته يحمل ميخائيل أوراق محاضراته التي رقّمها بأرقام لاتينية على خلاف المتداول، كما يوجد في داخل الحقيبة صيفاً أو شتاء شال من الصوف حاكته لي أمي ملكاه، وبعض الحبوب التي تساعد على تخفيف الصفراء، في الفترة الأخيرة يعاني ميخائيل من حرقة بسيطة خصوصاً قبل وجبة الغداء.

في الشتاء يخرج زوجي بمشمع أزرق فاتح يناسب لون عينيه. ويضع غطاء من البلاستيك فوق قبعته. أما في الصيف فيرتدي قميصاً واسعاً شبكياً وبلا رباط عنق. يظهر جسمه عبر القميص مليئاً بالشعر ونحيلاً. حتى الآن ما زال يصر على تقصير حلاقة شعره. شعره قصير جداً كأنه رياضي، أو ضابط في الجيش. هل راودت ميخائيل ذات مرة فكرة أن يكون رياضياً، أو ضابطاً في الجيش. كم قليل هذا القدر المسموح به للمرء أن يعرف عن الشخص الآخر حتى ولو كان هذا المرء شديد الإصغاء، حتى ولو كنا لا ننسى شيئاً.

لا نتحدث في ما بيننا كثيراً، في ساعات بعد ظهر يوم عادي يدور الحديث هكذا: أعطني من فضلك، هل تترك وتمسك لي، أسرعي. لا توسخ. أين يائير؟ الطعام جاهز. من فضلك أطفئ النور في الردهة. في المساء بعد نشرة الأخبار الساعة التاسعة نجلس مقابل بعضنا على الكراسي ذات المساند. نقشر، ونتناول بعض الفاكهة. خروتشوف سيسحق غومولكه وإيزنهاور لا يتحرك. هل فعلاً تنوي الحكومة أن تنفذ. ملك العراق دمية في يد ضباط شباب. الانتخابات القريبة لن تسفر عن تغيرات كبيرة.

بعد ذلك يجلس ميخائيل إلى جانب مكتبه، ويضع نظارة القراءة على عينيه. أنا أفتح المذياع بصوت منخفض، وأستمع إلى الموسيقى، ليس لحفلة موسيقية (كونسرت) وإنما لألحان راقصة قادمة من محطة أجنبية بعيدة، في الحادية عشرة أدخل فراشي لأنام. في أحد الجدران تختبئ ماسورة مياه. أصوات التدفق الداخلي. السعال. والرياح.

كل يوم ثلاثاء، ومع عودته من الجامعة تعوّد ميخائيل أن يمر بوسط

المدينة، وأن يشتري من وكالة كاهانا تذكرتين للسينما، في الثامنة مساء نرتدي ملابس الخروج، وفي الثامنة والربع نغادر الشقة، الفتى الشاحب يورام يعتني ببيائير أثناء نومه عندما أذهب وميخائيل للسينما، في المقابل أساعده في مذاكرته (دروسه) استعداداً لامتحانه في الأدب العبري، بفضله لا أنسى كل ما درسته أيام صباي، نجلس ونقرأ معاً مقالات «أحادها عام»[1] ونقارن بين الكاهن والنبي، بين الجسد والروح، بين العبودية والحرية، الأفكار التي صيغت بتجانس بين كل اثنين، يعجبني مثل هذا الترتيب.

ويعتقد يورام أيضاً بأن النبوءة والروح والحرية تدعونا لأن نتخلص من أغلال العبودية والجسد. حين أمتدح إحدى قصائده يخرج من عيني يورام وميض بخيط أخضر. قصائده مكتوبة بانفعال.

إنه يختار الكلمات، والتعبيرات التي لا تستعمل في الحياة اليومية. ذات مرة سألت يورام ما معنى تعبير «حب عذري» التي كتبها في إحدى قصائده. شرح يورام بأنه يوجد على ما يبدو حب لا يعتبر عيداً في حياة

---

(١) أحادها عام: وهو الاسم الذي اختاره لنفسه الأديب اليهودي أشير هيرش جينسبرغ (١٨٢٧ ـ ١٨٥٦) وهو كاتب ومفكر وأحد زعماء حركة إحياء صهيون، وهو من مواليد سكفيراه بمقاطعة كيف الروسية. وتلقى التعليم الأساسي اليهودي في بيت أبيه الذي كان تاجراً غنياً، وقد تخصص في الفلسفة وأدب حركة التنوير العبري (الهسكلاة) على يد أستاذ خصوصي. كما أنه تعلم بنفسه اللغات: الروسية والألمانية، والفرنسية والإنكليزية، واللاتينية. له العديد من الأعمال الأدبية التي تمتاز بأسلوبها الخاص والتي ما زالت محل اهتمام النقاد اليهود حتى العصر الحالي. وأحادها عام معناه أحد أفراد الشعب باللغة العبرية. [الموسوعة اليهودية جودايكا، المجلد الثاني، دار نشر كيتر، القدس، ١٩٧١، ص٤٤٠].

الإنسان. أعدت في نفسي جملة سمعتها من زوجي قبل زمن طويل عن حقيقة الشعور والإحساس كورم خبيث يتضخم حين يكون الناس شبعى وفي فراغ. قال يورام: سيدة غونين! وفجأة اختنق صوته، وجاء المقطع الأخير شبيهاً بصرخة، لأنه في عمر يورام من الصعب على الفتيان التحكم في أوتارهم الصوتية.

حين كان ميخائيل يدخل إلى غرفتي في الوقت الذي أجلس فيه مع يورام كان ينتاب الفتى نوع من التوتر الداخلي. يلوي ظهره، ويحملق في الأرض بطريقة معذبة كأنه سكب شيئاً ما على البساط أو قلب مزهرية فانكسرت. يورام كامنيتسر سينهي المدرسة الثانوية، وسيلتحق بالجامعة، سيكون مدرساً للتوراة وللغة العبرية في القدس. مع بداية كل عام سيرسل لنا بطاقة ملونة يتمنى لنا فيها عاماً سعيداً، ونحن سنرد عليه ببطاقة تحمل عبارة (وأنت بخير أيضاً). ويستمر الزمن في حضوره، إنه حضور عالٍ كثيف وشفاف، حضور لا يحب يورام، ولا يحبني ولا ينوي خيراً.

في أحد أيام خريف عام ١٩٥٤ عاد ميخائيل من عمله قبل المساء، وهو يحمل على ذراعيه قطاً صغيراً رمادي اللون يشوبه البياض، وجده في شارع دافيد يالين بجانب جدار المدرسة الدينية للبنات. أليس رائعاً! ميخائيل يطلب مني أن ألمس القط، ويطلب مني أن ألاحظ كيف يرفع يداً صغيرة غامضة لكي يهدد ويخيف، كأنه نمر أو فهد على الأقل.

أين كتاب يائير عن الحيوانات؟ أحضري من فضلك الكتاب يا ماما! حتى يتعلم يائير أن القط والنمر ولدا عمومة. في الوقت الذي أخذ فيه زوجي بيد ابني، ومسح بها على ظهر القط الصغير رأيت رجفة في

أطراف شفتي الطفل، وكأن القط شيء قابل للكسر أو كأن لمس ظهره خطر.

«انظري يا ماما! إنه ينظر إليّ مباشرة. ما الذي يريده مني؟».

«يريد أن يأكل يا بني، وأن ينام. اذهب يا يائير ورتب له مكاناً في شرفة المطبخ! لا يا غبي القطط لا تحتاج إلى بطانية (حرام)».

«لماذا؟».

«لأنها ليست كالبشر، هم مختلفون».

«لماذا هم مختلفون؟».

«لأنهم خلقوا هكذا.. لا أستطيع أن أشرح لك».

«بابا! لماذا لا تتغطى القطط ببطانية ـ حرام كالآدميين؟».

«لأن للقطط فرواً دافئاً، ولهذا فهي تشعر بالدفء بدون بطانية (حرام)».

طوال المساء لعب ميخائيل ويائير بالقط الصغير، ونادوه باسم «الصافي». كان قطاً عمره بضعة أسابيع قليلة. في تحركاته يلاحظ أحياناً عدم انسجام. من نوع يمس شغاف القلب ويدعو للشفقة. حاول أن يمسك فراشة كانت ترفرف تحت سقف المطبخ، كانت وثباته تثير الضحك لأنها كانت تفتقد أي تقدير للارتفاع والبعد، كان يقفز حوالى شبر وأثناء ذلك يقع ويغلق بقوة فكيه الصغيرتين، كأنه وصل بقفزته إلى الفراشة التي على السقف، انفجرنا بالضحك. على صوت ضحكاتنا وقف القط متجمداً، ورمقنا بمواء كان الهدف منه هو تخويفنا حتى الموت.

قال يائير:

«سيكبر الصافي وسيكون أقوى قط في الحارة. سنعلمه حراسة البيت والقبض على اللصوص والمتسللين. سيكون الصافي لنا بمثابة قط بوليسي».

قال ميخائيل:

«يجب إطعامه ومداعبته، وأي مخلوق لا يمكن أن يحيا من دون أن نحبه ولهذا سنحبه، وسيحبنا، ولكن لا داعي لتقبيله يا يائير ستغضب منك أمك».

أعطيته سلطانية من البلاستيك الأخضر ولبناً وجبناً، واضطر ميخائيل أن يغمس بالقوة رأس الصافي داخل الحليب.. لأن القط لم يعرف بعد أن يأكل من داخل السلطانية. الحيوان الصغير ارتعد، عطس، وهز رأسه المبتلة، نثر رشاشاً أبيض وفي النهاية دفع إلينا وجهاً مبتلاً مندحراً وذليلاً، لون الصافي لم يكن صافياً إنما رمادي اللون، قط عادي.

في الليل اكتشف القط فتحة ضيقة في نافذة المطبخ.. فتسلل من الشرفة إلى داخل الشقة، ووجد سريرنا، واختار أن يلتف عند قدمي، رغم أن ميخائيل هو الذي تبناه، وداعبه طوال المساء. كان قطاً ناكراً للجميل تجاهل من عطف عليه، واقترب ممن عامله ببرود. منذ عدة سنوات قال لي ميخائيل غونين: إطلاقاً لا يصادق القط الشخص غير المناسب، والآن أدركت أن هذا كان نوعاً من المجاز لا يمكن أن نأخذه على علاته، وأن ميخائيل قد أسمعني تلك الألفاظ لكي يبدو في نظري شاباً أصيلاً. التف القط «الصافي» حول قدمي، وهو يصدر شخيراً هادئاً يبعث على الهدوء، في الفجر خربش القط الباب، قمت وفتحت له.

خرج. إلا أنه عاد للمواء من وراء الباب طالباً العودة. دخل وعلى الفور دلف إلى باب الشرفة. تثاءب، تمطى، همهم، موى، ناح، توسل أن يخرج من هذا الباب. الصافي كان قطاً متعدد النزوات، أو ربما متردداً إلى حد بعيد. بمرور خمسة أيام خرج قطنا الجديد ولم يعد، طوال المساء. بحث عنه زوجي وابني في الزقاق وفي الشوارع المجاورة، وأيضاً إلى جانب جدار المدرسة الدينية للبنات، حيث وجده ميخائيل، في الأسبوع الماضي، يائير أعرب عن فكرة وهي أننا أسأنا إلى الصافي. أما ميخائيل فقد رأى أن القط الصغير قد عاد لأمه القطة، يدي لم تمتد على هذا القط، أكتب ذلك لأنهما شكّا في أن أكون أنا التي طردته، هل حقاً يعتقد ميخائيل بأني قادرة على دس السم للقط؟

وبهذا يكون قد أدرك جيداً أنه أخطأ حين عزم على تربية قط من دون أن يطلب موافقتي، وكأنه يعيش بمفرده في البيت. يريد ميخائيل أن أتفهم مقصده. فقد كان يهدف إلى إدخال السرور إلى قلب ابننا. فهو نفسه أيضاً تمنى أيام طفولته تربية قط لكن أباه لم يسمح له.

«لم أسئ للقط يا ميخائيل! ويجب أن تصدقني. كما أني لن أعارض لو وجدت قطاً آخر لتربيته. لم أمسسه بسوء».

«إذاً فمن المؤكد أنه صعد إلى السماء مع عاصفة قوية». ابتسم ميخائيل ابتسامة طويلة «ومن فضلك الأجدر ألا نعود للحديث عنه. فهذا يسبب حزناً للطفل. فقد ارتبط به ارتباطاً قوياً، ولكن لنترك ذلك جانباً، هل من الجدير بنا أن نتشاجر بسبب قط صغير؟».

«لا شجار، ولا شيء» قلت.

«لا شجار ولا قط». عاد ميخائيل إلى ابتسامته الطويلة.

٢٢

في تلك الفترة حديث تغيير لليالينا. بعد اهتمام هادئ ومتواصل تعلم ميخائيل أن يفرح جسمي، أصابعه أصبحت واثقة وخبيرة لا تهدأ حتى أضطر أنا لإطلاق أنّة واهنة.

بطريقة ذكية وصبورة ثابر ميخائيل على أن يستخلص مني هذه الأنّة. تعلم أن يغمس شفتيه في نقطة معينة من عنقي، وأن يعاملها بقوة، وأن يجعل يده الدافئة والقوية تتسلق أعلى ظهري حتى الرقبة.. حتى جذور شعري. ثم تعود في مسار آخر.

على الضوء الباهت المتسلل من مصابيح الشارع عبر ظلف النافذة رأى ميخائيل على وجهي تعبيراً ربما يمكن أن نسميه ألماً حاداً. كانت عيناي مغلقتين دائماً، لأن التركيز بجهد متواصل كان ضرورة، عرفت أن عيني ميخائيل غير مغلقتين، لأنه كان مركزاً وصافي الذهن. تعلمت لمسته أن تكون صافية وخبيرة. كل لمسة كانت أكثر رقة. لدى استيقاظي فجراً كنت أرغب فيه مرة أخرى، مناظر مرعبة جاءت من دون أن أرغب فيها، راهب بشعر كثيف جاء علي في غابة شنيلر أخذ يعض كتفي ويصرخ..

عامل مجنون من المصنع الجديد الذي بنوه غرب حي ماكور ـ

باروخ يخطفني، ويسرع في اتجاه التلال، وأنا محمولة على ذراعيه الملطختين بالزيت.

أما الأسمران فأيديهما طرية وقاسية. أرجلهما برونزية اللون: إنهما لا يضحكان، أو أن حرباً اندلعت في القدس، وأنا بقميص النوم الخفيف هربت من بيتي وركضت مشتتة الذهن في طريق ضيق معتم. كشافات قوية أضاءت فجأة طريق أشجار السرو. ضاع الطفل أو تاه. أناس غرباء ومتجهمون يبحثون عنه في الأودية، كشاف أثر، ضباط شرطة متطوعون متعبون من القرى المحيطة.. تعاطفهم باد في أعينهم.. لكن كم هم مشغولون! بأدب وحزم يشجعوننا على ألا نضيف إلى عذابهم وتحملهم، الآمال باقية، الجهود تتضاعف مع بزوغ الفجر، تهت في الأزقة المعتمة الواقعة خلف ممر الأحباش. صرخت يائير! يائير! شارع مليء بجثث قطط ميتة تتدحرج على أرصفته. من أحد الأفنية خرج البروفيسور الطاعن في السن الذي درست عليه الأدب العبري. كان يرتدي بدلة بالية ابتسم لي كرجل متعب جداً. قال بأدب: يبدو أن السيدة وحيدة أيضاً ولهذا فهو يسمح لنفسه بدعوتها. من هي تلك الفتاة الغريبة ذات الرداء الأخضر التي تحتضن خاصرة زوجي في أعلى الزقاق، كأنني لم أكن، كنت واضحة، قال زوجي: عاطفة سعيدة، عاطفة حزينة، ميناء عميق جداً سيبنونه على شاطئ أشدود.

كان الفصل خريفاً، الأشجار لم تكن ملتصقة جيداً بالأرض، تحرك مريع وبشع، ومن على شرفة عالية رأيت الكابتن نيمو، وجهه كان شاحباً، وعيناه تضمران شراً. ذقنه السوداء كانت محلوقة من زاوية حادة جداً. أدركت أنه بسببي تعرقل الإبحار، والزمن يتتابع ويتدفق. أنا خجلة يا كابتن. لا تسكت على خطأي. لا تسامحني.

ذات يوم كنت طفلة في السادسة، أو في السابعة جلست في محل أبي بشارع يافا، وإذا بالشاعر شاؤول تشرينحوفيسكي يدخل لشراء أباجورة (ضوء مكتب) هل هذه الفتاة الرائعة الحسن للبيع أيضاً؟ سأل الشاعر أبي ضاحكاً. وفجأة رفعني بذراعين قويتين، وشاربه الضخم الذهبي دغدغ خدي. رائحة قوية ودافئة تطايرت من جسمه، ضحكته كانت وقحة كأنه طفل طائش، نجح في إغاظة الكبار. بعد خروجه بدا أبي كالمصعوق من شدة الإثارة، لقد تحدث إلينا شاعرنا الكبير، وتصرف كأنه زبون عادي بسيط. من المؤكد أن الشاعر قصد شيئاً ما، قال أبي صوت متأمل... حين اختار أن يحمل حنه على ذراعيه، وأن يضحك ضحكة مجلجلة، لم أنس. في بداية شتاء عام ١٩٥٤ حلمت بالشاعر بمدينة دانزيغ وبمسيرة كبيرة.

بدأ ميخائيل جمع الطوابع. يجمعها من أجل الطفل طبقاً لأقواله، لكن حتى الآن لم يبد يائير أي اهتمام بالطوابع. أثناء العشاء أراني ميخائيل طابعاً نادراً من دانزيغ. كيف حصل على الطابع؟ هذا الصباح اشترى كتاباً مستعملاً من شارع سوليل ـ اسم الكتاب «رصد الزلازل في البحيرات العميقة» وبين صفحات الكتاب القديم وجد هذا الطابع النادر من دانزيغ. حاول ميخائيل أن يشرح لي القيمة الخاصة لطوابع الدول المندثرة. لاتفيا. لتوانيا. استونيا. دانزيغ الحرة. شيلزفيلد. هولستاين. بوهيميا. مورافيا. صربيا. كوريشيا. أحببت هذه الأسماء حين نطق بها ميخائيل.

لم يكن الطابع النادر بديع المنظر: ألوان باهتة، وصليب مقوس وفوقه شكل التاج، وربما أيضاً رمز غير واضح، وكتابة باللغة القوطية،

وهي لغة القوطيين الجرمانية الشرقية: دولة حرة! لم يكن على الطابع أي رمز لمنظر جميل. كيف استطعت أن أتخيل منظر المدينة واسعة الطرقات أو شاهقة المباني تنحدر على درجات منحدرة لكي تغمر أقدامها في مياه الخليج كحيفا، أم أنها أراض ممتدة منتشرة فوق سطح سهل مليء بالمستنقعات. مدينة أبراج تحيطها الغابات أو ربما مدينة بنوك وورش مبنية مربعات مربعات. الطابع لم يوضح ذلك سألت ميخائيل كيف تبدو مدينة دانزيغ؟ أجابني ميخائيل بابتسامة، وكأنني لم أطلب منه إجابة سوى ابتسامته، هذه المرة أعدت السؤال.

ولأنني سألته للمرة الثانية.. عليه أن يعترف أنه مندهش من سؤالي. لماذا لي أن أعرف كيف كانت تبدو مدينة دانزيغ؟ وكيف أتوقع أنا أنه يعرف ذلك؟ بعد تناول الطعام سيكون مستعداً أن يبحث من أجلي في الموسوعة العبرية الكبيرة. لا. لا يستطيع أن يفعل ذلك لأنهم لم يصلوا بعد لحرف الدال في هذه الموسوعة.

بالمناسبة لو كنت أود أن أسافر ذات يوم للفسحة خارج البلاد فإنه يقترح عليَّ أن أبدأ الاقتصاد في الإنفاق. ولا ألقي بفساتين جديدة في الزبالة بعد شرائها بأسابيع قليلة.. كما فعلت بالتنورة (الجونلة) الرمادية التي اشتريناها معاً في عيد المظال من محلات ماعيان ستوب. لم أستطع أن أعرف من ميخائيل شيئاً عن مدينة دانزيغ، بعد تناول العشاء وأثناء تجفيف الأطباق تحدثت إليه في سخرية أنه اختلق قصة أنه يجمع الطوابع من أجل الطفل، وأن الطفل لم يكن سوى مجرد عذر لإشباع رغبات صبيانية لديه هو، لكي يلعب بالطوابع كأنه طفل. أردت أن أهزم زوجي في نزاع. حتى هذه الرغبة منعها عني ميخائيل فهو ليس ممن

يتقبلون الهزيمة بسهولة. لم يقاطع سيل تحدياتي لأن الناس لا يجب أن يقاطعوا حديث الآخرين، واستمر في تجفيف الطبق الصيني الذي بيده، ووقف على أطراف أصابعه ليضع الطبق الناشف في مكانه بالمطبقية المعلقة فوق الحوض، ثم ـ ومن دون أن يدير رأسه ناحيتي ـ قال: لا جديد في ما قلت، فحتى المبتدئون في علم النفس بمقدورهم أن يدركوا أن البالغين والكبار يحبون بعض اللهو، وأنه يجمع الطوابع من أجل الطفل تماماً كما أقوم أنا بتقطيع الأشكال من أوراق المجلات للطفل، وهي لا تقع في دائرة اهتمامه. وبهذا سأل ميخائيل ماذا أجد عندما أتعلق بعاطفة هدفها السخرية. بعد أن انتهيت من غسل الأطباق جلس ميخائيل على الكرسي الفوتيه، واستمع إلى نشرة الأخبار. جلست قبالته صامتة. قشرنا الفاكهة، وقدم كل منا للآخر من هذه الفاكهة المقشورة. قال ميخائيل:

«فاتورة الكهرباء التي وصلت من شركة الكهرباء هذا الشهر مرتفعة جداً».

وفي الليل حلمت بمدينة دانزيغ، كنت أميرة. من قمة برج قلعتي مسحت منظر المدينة، جماهير من رعاياي تجمعوا أسفل البرج، بسطت يدي لتحيتهم. كانت تلك الحركة شبيهة بإيماءات التمثال البرونزي للعذراء على قمة مبنى تيرا ـ سانتا، رأيت أكداساً من الأسطح الداكنة، في الجنوب الشرقي عتمت السماء فوق الأحياء القديمة. تدافعت سحب سود من اتجاه الشمال، ستهب عاصفة من المنحدرات، بدت ظلال رافعات الميناء العملاقة؛ هذه كانت سقالات من الحديد الأسود ترتفع إلى السماء، ويعلوها نور الغسق، إشارات تحذير حمر كانت تومض في

أعلى السقالات، ضوء النهار أخذ يضيع في العتمة، سمعت صفارة سفينة مبحرة إلى الجنوب، استطعت أن أسمع هدير قطارات قادمة من ناحية الجنوب، لكن القطارات نفسها لم تظهر، رأيت حديقة فيها أيك متشابك الأغصان، في منتصف الحديقة بحيرة مستطيلة. وفي منتصف البحيرة جزيرة صغيرة مسطحة، عليها يقف تمثال الأميرة. أنا.

مياه الخليج كانت ملوثة بزيت أسود قذفت به السفن. ثم أضيئت أنوار الشوارع. ألقت المصابيح على مدينتي قطاعات من النور البارد. هذه الأنوار الساطعة خفت بريقها سبب الضباب، السحب، والدخان. وتجمعت في سماء الضواحي كأنها هالة من لون زمادي قاتم. من الميدان تعالت نحوي كثير من الصيحات صاخبة. أنا أميرة المدينة وقفت على قمة القلعة، وكنت مضطرة لأن أتحدث إلى جماهير الشعب الغفيرة المنتظرة في الميدان. كان عليَّ أن أخبرهم بأنني قد سامحتهم، وأنني أحبهم، ولكنني كنت مريضة بمرض خطير لمدة طويلة. لم أستطع الحديث. لا زلت مريضة. جاء ووقف على يساري الشاعر شاؤول الذي عينته وزيراً للبلاط. هو تحدث إلى الشعب واستخدم كلمات مهذبة بلغة لم أفهمها. هتف له الكثيرون. للحظة تخيلت أني أسمع عبر الهاتف همهمة خافتة، وغاضبة. الشاعر تلفظ بأربع كلمات مسموعة. إشارة أو قول مأثور بلغة أخرى. وعن الجماهير صدر ضحك جارف. امرأة صرخت. طفل تسلّق عموداً ولوى قسمات وجهه لإضحاك الناس. رجل مكبل بالأغلال تلفظ بجملة قبيحة. الهتاف الصاخب غطى كل شيء. بعد ذلك لف الشاعر على كتفي معطفاً دافئاً. بأطراف أصابعي لمست شعره الفضي الرائع. هذه الحركة أحدثت في الجماهير حماسة منقطعة النظير. ضوضاء قبيحة تحولت إلى زئير. أحب هو أم غيظ مكتوم؟ طائرة. مرت

في سماء المدينة. أمرتها أن تطلق أضواء حمراً، وخضراً. بدت الطائرة للحظة وكأنها تبرق بين النجوم. وتسحب وراءها النجوم الضعيفة. بعد ذلك احتشدت كتيبة عسكرية بميدان صهيون. أنشد الرجال لحناً مؤثراً لتحية الأميرة. بعربة تجرها أربعة خيول بيض رمادية تجولت في الشوارع. وبيد متعبة وزعت قبلات اليد على أبناء شعبي. في شارع جيئولا. في محانية يهودا في شارع أوزسيشكين، وفي شارع هاقيرن هاقييمت[1] اصطفت الرعايا بالآلاف. كل يد حملت رايات وأزهاراً. كان استعراضاً. نمت على أذرع حرسي الخاص. كانوا ضباطاً سمراً مؤدبين. تعبت. ألقى الرعايا لي أكاليل الأقحوان. الأقحوان هي زهرتي المفضلة. كان هناك عيد بجانب مبنى تيرا ـ سانتا. مد ميخائيل ذراعه، وساعدني على النزول من العربة. كالعادة كان هادئاً ورابط الجأش. أدركت الأميرة أن هذه لحظات حسم. راودها شعور بأن عليها الآن أن تكون ملكة. جاء أمين مكتبة قصير يرتدي قبعة سوداء. كانت تحركاته خاضعة. إنه يحزقائيل والد ميخائيل. صاحبة الجلالة، انحنى رئيس التشريفات بخنوع، هل تتكرم صاحبة الجلالة. من وراء الخنوع ساورني شك بوجود سخرية غامضة. لم أحب الضحكة الجافة التي أطلقتها العجوز سارة زلدين. ليس لديها تصريح بالوقوف على الدرج، وأن تضحك. كنت في قبو المكتبة. بالعتمة استطعت أن أتبين ملامح نساء ناحلات على الأرض، وأرجلهن منفرجة على أرضية موحلة في الممرات الضيقة التي بين رفوف الكتب. كانت الأرض رطبة، وكانت النسوة الناحلات

---

(١) هاقيرن هاقييمت: ومعناه باللغة العبرية الصندوق التأسيسي وهو صندوق التبرع اليهودي الإسرائيلي.

متشابهات في شعورهن المصبوغة وصدورهن الناهدة، ولم تبتسم أية واحدة منهن، ولم تعرب عن احترامها. بدت على وجوههن معاناة متحجرة. كن غلاظاً. تلمسنني ولا تلمسنني تلك النسوة الكارهات لي. أصابعهن كانت حادة، وتتوعدني. كن عاهرات من حي الميناء. سخرن بصوت مرتفع. شهقن. كن مخمورات. رائحة نتنة هبّت من أجسادهن. أنا أميرة دانزيغ. أردت أن أصرخ. لكن صوتي ضاع مني. كنت واحدة من هاته النسوة. هذه الفكرة تأرجحت في داخلي. كلهن أميرات دانزيغ. تذكرت أنه يجب أن أقابل الآن، على وجه السرعة، وفداً من مواطنين وتجار، للتحدث معهم في مسألة الامتيازات. لا أعرف ما هي هذه الامتيازات. أنا متعبة، أنا واحدة من هاته النسوة الغليظات. عبر الضباب من الأماكن البعيدة لحوض السفن. تعالى عويل من سفينة كأن مجزرة ترتكب هناك. كنت سجينة ومقيدة في قبو الكتب. سلموني لرعاع النسوة المثيرات للاشمئزاز، والراقدات على الأرض الرطبة. لم أنس أن هناك مدمرة إنكليزية تحمل اسم دراغون، وهي تعرفني، وهي ستميزني أنا فقط من بين هاته النسوة، وهي ستأتي لإنقاذ حياتي. لكن فقط في العصر الجليدي الجديد سيعود البحر إلى المدينة الحرة، وحتى ذلك الحين ستبقى بعيدة جداً المدمرة دراغون.. بعيدة جداً تخوض نهاراً وليلاً في مياه خليج موزامبيق. لن يكون بمقدور أية سفينة الوصول للمدينة التي اندثرت منذ زمن. كنت مفقودة.

٢٣

خصص زوجي ميخائيل غونين الإهداء لي على صدر مقالته التي نشرتها له مجلة علمية. اسم المقالة: «عوامل التعرية ـ الجرف في أودية صحراء بارن». هذا هو الموضوع الذي فرض على ميخائيل أن يبحثه في رسالته للدكتوراه ـ الإهداء طبع تحت العنوان بحروف مائلة لكنها واضحة.

إلى حنه الزوجة المتفهمة يود الكاتب أن يهدي هذا العمل. قرأت، وامتدحت، وهنأته على هذا العمل. راق لعيني إقلاله من الوِصف، واكتفاؤه بكتابة الأسماء، والأفعال. أيضاً حقيقة أن ميخائيل يمتنع عن استخدام الجمل الطويلة راقت لي. تمت صياغة فكرة في عدد من الجمل القصيرة الهادفة. أحب أسلوبه الجاف، والجاد. توقف ميخائيل عند كلمة جاف.. كمعظم البعيدين عن الأدب الذين يستخدمون الكلمات كأنهم يستخدمون المياه أو الهواء. أخطأ ميخائيل الاعتقاد بأنني كنت أنتقده. آسف، هكذا قال لي، فهو ليس بمقدوره تأليف قصائد، وإهداء قصيدة منها لي بدلاً من هذا البحث الجاف. الإنسان يعمل ما في استطاعته أن يعمل، وهو يعترف أن تلك كانت جملة سخيفة. أيعتقد ميخائيل أنني لست مدينة بالشكر على الإهداء، وهل يعتقد أنني لم أحب عمله؟ وبهذا فهو لا يرى مكاناً لاتهامي: بحثه موجه

للمتخصصين، ولرجال من أصحاب التخصصات القريبة. الجيولوجيا ليس تاريخاً. من الممكن أن يكون الإنسان مثقفاً من دون معرفة أسسها الأولية. أزعجتني هذه الكلمات من ميخائيل.. لأنني كنت أبحث عن طريقة في مشاركته سروره على نشر بحثه الأول، ومن دون قصد آلمت مشاعره.

هل يوافق ميخائيل على أن يشرح لي بكلمات بسيطة ما هي الجيومورفولوجيا. ميخائيل أشاح بيده في حركة تأملية وأخذ نظارته من على الطاولة.. تطلع فيها، ووجه لها واحدة من ابتساماته الغامضة.. ثم عاد ووضعها على الطاولة، وبهذا فهو مستعد لأن يشرح لي فقط، إذ لم أكن أسأله لمجرد إدخال السرور إلى قلبه، وإنما لأنني أود فعلاً أن أعرف.

لا. لا داعي لأن أتوقف عن الحياكة بالصنارة. يسره أن يجلس قبالتي ويشرح في الوقت الذي أحيك فيه. يسعده أن يراني مسترخية، وهادئة لا داعي لأن أنظر في وجهه.. هو متأكد من إصغائي له.. فنحن هنا لا يمتحن أحدنا الآخر. الجيومورفولوجيا هي مجال الالتقاء بين الجيولوجيا والجغرافيا. وهي علم يبحث مراحل تشكل التضاريس على سطح الكرة الأرضية. معظم الناس لديهم اعتقاد خاطئ مفاده أن الكرة الأرضية تشكلت قبل ملايين السنين دفعة واحدة، وتوقفت. في الحقيقة وجه الأرض في تغير مستمر. لو استخدمنا المصطلح المتعارف عليه «خلق» فبإمكاننا القول بأن عملية خلق الأرض مستمرة من دون توقف. حتى في الوقت الذي نجلس، ونتحدث فيه هنا. قوى مختلفة وأيضاً متضاربة تتفاعل لتشكيل وتغيير التضاريس الظاهرة أمام أعيننا، وأيضاً

التضاريس الداخلية التي لا نراها. منها قوى جيولوجية نابعة من الديناميكية للنواة المتقدة في جوف الكرة الأرضية. من عملية التبريد البطيء، وغير المنتظم للنواة الملتهبة، ومنها قوى جوية مثل الرياح والفيضانات، والتغيرات في درجة الحرارة، والبرودة التي تحدث بلا توقف وفقاً لقوانين دورية. وهناك قوانين طبيعية معروفة تؤثر إلى حد كبير على العوامل الجيومورفولوجية. بصفة عامة هذه الحقائق البسيطة تمر أحياناً حتى على بعض المتخصصين في هذا المجال. ربما بسبب أنها بسيطة فقط. القوانين الطبيعية واضحة للعيان إلى درجة أن الباحثين المدققين يميلون أحياناً إلى تجاهل وجودها. على سبيل المثال قوانين الجاذبية الأرضية، وقوانين الطاقة الشمسية. العديد من التغيرات المعقدة حاولت إعطاء تفسير دقيق لظواهر مصدرها قوانين بسيطة جداً. إلى جانب العوامل الجيولوجية، والطبيعية، والمناخية. فإن هناك اعتبارات أخرى في مجال الكيمياء.. على سبيل المثال عوامل الانصهار، والتحام الذرات النووية. من الممكن إذاً القول بأن الجيومورفولوجيا هي نقطة التقاء العديد من المسارات العلمية. على سبيل المثال سبقت في هذا المجال الأسطورة اليونانية القديمة التي حكمت بأن وجه الأرض يتشكل من خلال تصادم مستمر. هذا المبدأ يقبله العلم الحديث أيضاً، والذي لا يحاول إطلاقاً تفسير مصدر القوى المختلفة. كما هو معلوم نحن نقيد أنفسنا في نطاق أضيق بكثير مما حاولت الأسطورة القديمة سبر غوره «كيف»؟ وليس «لماذا»؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يشغلنا ـ لكن حتى العلماء المعاصرون يجدون صعوبة في مقاومة الإغراء، ويتورطون في محاولات إيجاد تفسير شامل. بصفة خاصة المدرسة السوفياتية بما يمكن أن نجد من منشوراتها تستخدم أحياناً في هذا المجال مفاهيم مقتبسة من

العلوم الإنسانية. هناك إغراء كبير يمكن لكل باحث في أن يقلع في بحور الاستعارات والتشبيهات، والمجاز، ويستسلم للوهم السائد بأن الاستعارة يمكن أن تحل محل التفسير العلمي. ميخائيل نفسه حرص على تجنب استخدام التعبيرات الرنانة التي تستخدمها مدارس معينة، وهو يقصد مثلاً ذلك الكلام الغامض الذي يحمل أكثر من معنى مثل: انجذاب، تنافر، تواتر، وما شابه ذلك. خط دقيق جداً يفصل بين البحث العلمي، وبين القصة الخرافية. دقيق للغاية أكثر مما يمكن أن نتصور، وهو، أي ميخائيل، يتجنّب عبور هذا الخط بكل ما لديه من قدرة. وربما لهذا السبب يعطي بحثه انطباعاً جافاً جداً. قلت:

«يا ميخائيل! بودي أن أزيل سوء فهم. فأنا استخدمت كلمة جافة بقصد المدح لا الذم».

ألمح ميخائيل إلى أن هذه الملاحظة تسعده جداً. على الرغم من أنه يجد صعوبة في التصديق أن كلانا يقصد نفس المعنى من كلمة جاف. فنحن شخصان مختلفان إلى حد بعيد. لو أردت في أحد الأيام أن أخصص له عدة ساعات فإنه سيسعده للغاية أن يستضيفني في مختبره. حتى يشرح بشكل أكثر تفصيلاً، وربما بشكل أقل جفافاً أيضاً. «غداً» قلت ذلك، وحين قلتها حاولت أن أختار إحدى أجمل ابتساماتي، أعرب ميخائيل عن بالغ سعادته.

في صبيحة اليوم التالي أخذنا يائير إلى روضة الأطفال، ووضعنا في يده كتاب اعتذار إلى المربية سارة زالدين: لسبب شخصي عاجل أخذت اليوم إجازة. ميخائيل وأنا غيرنا الأوتوبيس (الحافلة) مرتين ونحن في طريقنا إلى المعمل الجيولوجي. لدى وصولنا طلب ميخائيل من عاملة البوفيه أن تعد لنا فنجانين من القهوة، وتحضرهما إلى مكتبه:

«اليوم فنجانان بدلاً من فنجان واحد». قال ميخائيل بمرح، وأسرع للتوضيح: «يا ماتيلدا تعرفي على السيدة غونين.. إنها زوجتي». بعد ذلك صعدنا إلى مكتب ميخائيل في الدور الثالث، وكان عبارة عن غرفة صغيرة في الطرف المضاء في ردهة طويلة. كانت الغرفة مفصولة عن الردهة بجدار داخلي من الخشب الرقيق المفرى. بالإضافة إلى المكتب الذي عرف طريقه إلى هنا من أحد مكاتب حكومة الانتداب البريطاني. كان في الغرفة كرسيان من الخيزران المبروم، ورف كتب فارغ مزين بخرطوش قذيفة كبيرة مستخدمة هنا كمزهرية. تحت الزجاج الذي يغطي المكتب. أنا في الصورة التي أخذت يوم زفافنا، ويائير في لباس ميداني إلى جانب جروين من القطط البيض قصت صورتهما من مجلة ملونة.

جلس ميخائيل إلى المكتب ظهره إلى النافذة ماداً رجليه، وأسند مرفقيه إلى المكتب الذي أمامه. حاول أن يمزح بالتظاهر بأنه في موقف رسمي:

«تفضلي بالجلوس يا سيدتي! كيف أستطيع أن أخدم السيدة؟». في تلك اللحظة انفتح الباب. دخلت ماتيلدا، وبيدها صينية عليها فنجانان من القهوة. لربما سمعت ماتيلدا كلمات ميخائيل الأخيرة. من شدة الكسوف عاد زوجي وقال:

«من فضلك تعرفي على السيدة غونين زوجتي».

خرجت ماتيلدا، ميخائيل استأذن في تكريس حوالى خمس دقائق لأوراقه. ارتشفت قهوتي، وأنا أنظر إليه لأنني خمنت أنه يريدني أن أنظر إليه الآن. شعر بنظرتي: علامة رضا هادئة شعت من وجهه. كم بسيط هو واجبنا لإسعاد شخص آخر.

بعد خمس دقائق قام ميخائيل من مكانه، وقمت أنا أيضاً، اعتذر عن التأخير البسيط: كان عليه ترتيب مكتبه كما يقولون، والآن ننزل إلى المعمل، وهو يأمل في أن أجد اهتماماً في المعمل. بكل سرور سيجيب عن كل أسئلتي. زوجي كان واضحاً ومهذباً حين أرشدني إلى المختبر الجيولوجي. سألته أسئلة حتى يكون بمقدور ميخائيل أن يشرح، ويرضي غروره العلمي. عاد، وسأل: ألست متعبة. ألا تشعرين بضجر؟ هذه المرة كنت حذرة جداً في اختيار الألفاظ، وهكذا قلت: «لا يا ميخائيل! لم أتعب، ولم أشعر بملل.. بل أريد أن أرى المزيد، والمزيد. إنني سعيدة بسماع شروحتك. تستطيع، تستطيع أن تشرح أشياء معقدة بأسلوب واضح، ودقيق للغاية. كل كلماتك جديدة ومهمة بالنسبة لي».

حين قلت هذه الكلمات ضم ميخائيل للحظة يدي بين كفيه. كما فعل معي ذات مرة حين خروجنا من مقهى عطرة إلى الشارع المطير. على طريقة طلاب العلوم الإنسانية أخطأت دائماً الاعتقاد بأن العلوم الأكاديمية هي مجموعة علاقات تربط بين كلمات، ومصطلحات. الآن أدركت أن ميخائيل وزملاءه لا يشغلون أنفسهم بالصياغة فقط، وإنما يبحثون عن كنوز مختبئة في باطن الأرض: مصادر مياه. مخزون وقود. أملاح. معادن. مواد بناء صناعة، وحتى الأحجار الكريمة التي يصنعون منها حلى النساء.

لدى خروجنا من المعمل قلت:

«كان بودي إقناعك يا ميخائيل أنه حين قلت لك في البيت كلمة «جاف» كان قصدي الإعراب عن شعور إيجابي. لو دعوتني الآن للاستماع إلى محاضرتك فسأجلس في نهاية المدرج (القاعة) وسأكون

فخورة بك». أكثر من ذلك اشتقت للعودة إلى بيتنا حتى أستطيع تطييب خاطر ميخائيل. والمسح على شعره. فتشت في ذهني عن نوع من الثناء العاطر الذي يعيد ومضة السرور والخجل، والرضا المشع.

وجدت مقعداً خالياً في الصف ما قبل الأخير. وقف زوجي مكتئباً بمرفقيه على منصة المحاضرات. جسمه نحيف. كانت وقفته هادئة. بين الفينة والأخرى كان يستدير، ويشير بعصا صغيرة إلى أحد الرسوم التي رسمها على السبورة (اللوح) قبل بداية المحاضرة. رقيقة، ودقيقة خرجت خطوط الطباشير من تحت يده. فكرت في جسمه من تحت ملابسه. تلاميذ السنة الأولى جلسوا منكبين على محاضراتهم. وذات مرة رفع طالب يده، وسأل سؤالاً. للحظة خاطفة نظر ميخائيل إلى هذا الطالب، وكأنه يريد أن يستنتج لماذا يسأل قبل أن يتطرق إلى السؤال ذاته. وحين بدأ يجيب صاغ كلماته وكأنه يوجه السائل إلى أهم نقطة. كان هادئاً ومتحفظاً وهو يتردد قليلاً بين الجملة والأخرى. لم يبد لي كرجل مرتبك وإنما كرجل يطيل التدقيق مع نفسه من خلال إحساس بمسؤولية داخلية. تذكرت فجأة أستاذ الجيولوجيا العجوز في مبنى تيرا - سانتا. في شهر فبراير/ شباط قبل خمس سنوات. الفرق بينه وبين ميخائيل هو أنه، أي الأستاذ العجوز، استخدم عصا خفيفة للإشارة إلى صورة الفانوس السحري العلمية. بطيئاً ورخيماً كان صوته. أيضاً لزوجي صوت لذيذ. في الصباح الباكر حين يقف في الحمام يحلق ذقنه، ويعتقد بأني لا زلت نائمة يصدر أنغاماً منخفضة بينه وبين نفسه بشفتين مضمومتين. الآن وفي محاضرته إلى طلابه يختار ميخائيل كلمة معينة من داخل كل جملة. ويتلفظها بنغمة ناعمة، وطويلة، وكأنه يعطي إشارة دقيقة يخص بها أذكى طلابه. بعصاه.. بذراعه، وبملامحه كان الأستاذ

العجوز في مبنى تيرا ـ سانتا على ضوء الفانوس السحري الخافت يشبه الرسوم التوضيحية في الكتب التي أحببتها وأنا صبية. كُتب جول فيرن، أو كتاب موبي ديك. لا أعرف أن أنسى شيئاً. أين المصير، وكيف سأصير حين يمتزج ميخائيل وبقايا الأستاذ العجوز من مبنى تيرا ـ سانتا في النهاية؟

بعد المحاضرة تناولنا معاً وجبة الغداء في بوفيه الجامعة.

«تفضل بالتعرف إلى السيدة غونين!» قال ميخائيل بسرور لبعض معارفه عند لقائهم إياه. كان زوجي يشبه طفلاً يقدم والده الشهير لمدير المدرسة. شربنا القهوة، طلب ميخائيل من أجلي قهوة تركية.. أما هو فقد فضل قهوة بالحليب.

بعد ذلك أشعل غليونه. قال إنه لا يستطيع الظن بأنني قد وجدت لذة في محاضرته. لكن بوده أن يقول لي إنه كان منفعلاً.. على الرغم من أن أحداً من طلابه لم يعلم بحضور زوجة المحاضر. من شدة الانفعال يعترف ميخائيل بأنه في مرتين فَقَدَ خَيْطَ المحاضرة. لأن ذهنه انشغل، في حين كان ينظر إليّ. في تلك اللحظات أحس بالضيق لأنه ليس محاضراً في الأدب، أو في الشعر. من كل قلبه أراد أن يفرحني، ولا يبعث في نفسي الضجر بتلك الأمور الجافة. في هذه الفترة بدأ ميخائيل يكتب رسالته للدكتوراه. أمله هو أن يحظى أبوه العجوز بأن يخط على رسالته التي يرسلها إلينا أسبوعياً السيدة والدكتور م. غونين المحترمين. بالطبع كانت هذه عاطفة ساذجة مع أننا جميعاً نحمل في قلوبنا عواطف ساذجة. من جانب آخر هل من الممكن التسرع في تحضير رسالته للدكتوراه في موضوع معقد جداً فرض عليه أن يبحثه.

حين قال زوجي كلمات: «موضوع معقد» حل بوجهه نوع من التقلص السريع، واستطعت أن أدرك بطرفة عين إلى أين تنوي الانتشار في المستقبل تلك التجاعيد الدقيقة التي ظهرت في الفترة الأخيرة حول شفتيه.

٢٤

في صيف عام ١٩٥٥ سافرنا مع ابننا إلى حولون في إجازة لمدة أسبوع للاستجمام والاستحمام في البحر، أثناء الطريق، وفي الحافلة (الأوتوبيس) جلس على مقعد مجاور رجل مخيف، كان من مشوهي الحرب أو لاجئاً من أوروبا، وجهه كان مشوهاً، وإحدى عينيه مقلوعة، فظيعاً جداً كان فم الرجل.. كان مجرداً من الشفتين ولهذا انكشفت كل أسنانه وبدا وكأنه يضحك ملء شدقيه، وكأنه جمجمة فارغة. حين وقع نظر الرجل البائس على وجه ابننا أخفى يائير رأسه في حجري، وكأنما يحاول زيادة رعبه أخذ الصبي يختلس النظر بين الفينة والأخرى في اتجاه الملامح المحطمة، ارتجفت كفا الطفل واصفر وجهه من الخوف.

وجد الرجل الغريب لذة في هذه اللعبة.. فلم يدر وجهه بعيداً، ولم يرفع عينه الوحيدة عن ابننا، وكأنه ينوي أن يستخلص من ابننا كل ظلال الخوف. لوى الرجل كل قسمات وجهه، وعرى أسنانه تماماً حتى هلعت أنا الأخرى، كان الرجل قد كمن يرصد كل التفاتة من الصبي.. فيحاول تقليص عضلات وجهه في كل مرة يرفع فيها يائير عينيه، استجاب يائير لهذه اللعبة المروعة. للحظات كان يجلس يحملق في الغريب، وينتظر في صبر حتى يظهر الغريب تقويسة أخرى لعضلات وجهه. وحينئذٍ يعود الصبي يغمس كتفيه في حجري، ويرتجف بشدة.

ارتعش كل جسمه. استمرت اللعبة من دون صوت لأن يائير كان يتشنج بعضلاته، برئتيه ولكن ليس بصوته. لم يكن بمقدورنا أن نفعل شيئاً. الحافلة لم تكن بها أية مقاعد شاغرة. الرجل والصبي لم يسمحا لجسم ميخائيل أن يحول بينهما. رغم أن ميخائيل حاول أن يفعل ذلك. كانا يميلان ويختلسان النظر في ما بينهما من وراء ظهره، أو من بين ذراعيه.

حين تركنا الحافلة (الأوتوبيس) في المحطة المركزية بتل أبيب اقترب منا الغريب وقدم ليائير كعكة يابسة. كانت يده مغطاة بقفاز رغم أن اليوم كان صيفاً. أخذ يائير الكعكة، ودسها بهدوء داخل جيبه. لمس الرجل بإصبعه خد الصبي، وتحدث مرتين:

«يا له من طفل جميل. طفل جميل ورائع».

ارتجف يائير كأنه محموم، ولم يتلفظ ببنت شفة.

حين غيرنا الحافلة (الأوتوبيس) وصعدنا إلى حافلة خط حولون أخرج الصبي الكعكة اليابسة من جيبه. أمسكها أمامه، وهو مشدوه وقال جملة واحدة:

«الذي يريد أن يموت يأكل هذه».

«لا داعي لقبول هدايا من أناس غرباء» قلت له.

صمت يائير، حاول أن يقول شيئاً ما. تراجع. أخيراً صرّح بثبات:

«كان رجلاً شريراً للغاية. إنه إطلاقاً لم يكن يهودياً».

رأى ميخائيل ضرورة للتدخل:

«هذا الرجل على ما يبدو أصيب بجرح كبير وبالغ في الحرب، قد يكون في عداد الأبطال».

تمسك يائير برأيه في عناد:

«ليس بطلاً، إنه ليس يهودياً البتة. بل رجل شرير».

قاطعه ميخائيل بحدة:

«توقف عن الثرثرة يا يائير!».

قرب الصبي الكعكة اليابسة من فمه، ومرة أخرى ارتجف كل جسمه وتمتم:

«سأموت إن أكلت من هذه».

لن تموت أبداً، حاولت أن أقول هذه العبارة التي كنت قد قرأتها ذات مرة في قطعة أدبية لغرشون شوفمان[1]، لكن ميخائيل الذي لا يعرف المزاح والهزل سبقني وقال جملة متزنة:

«ستموت بعد مائة وعشرين سنة، والآن توقف من فضلك عن الهراء! أنهيت كلامي».

---

(١) غرشون شوفمان: ولد عام ١٨٨٠ في أوشا بروسيا البيضاء. تلقى في طفولته تعليماً دينياً ودرس في عدد من المعاهد الدينية العالية. وفي عام ١٩٠٢ اتجه إلى وارسو حيث قام بنشر عدد من قصصه التي لاقت رواجاً عظيماً. وقد خدم في الجيش الروسي في هومل لمدة ثلاث سنوات حيث تعرف هناك على عدد من الأدباء العبريين الشباب. وخلال فترة الحرب الروسية اليابانية عاش في غاليسيا حيث كتب عددا مَن القصص القصيرة، وعمل في التدريس، وقد التقى مع يوسف حاييم برنار في مدينة ليمبرغ وأصبح واحداً من أعز أصدقائه، وقد ساعده برنار على نشر مجموعته القصصية «زخات المطر». وفي عام ١٩١٤ نشر عدداً من قصصه في بعض الدوريات الأدبية العبرية في تلك الفترة، وخلال الفترة بين عامي ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ قام بنشر مجموعات قصصية متنوعة. وحينما استولى النازيون على النمسا سافر هو وأسرته إلى فلسطين. [د. رشاد الشامي، من: لمحات من الأدب العبري الحديث، ص٧٠].

أذعن يائير وظلت شفتاه مضمومتين لوقت طويل. أخيراً نطق بتردد، وكأنه انتهى من عملية فكرية معقدة جداً:

«حين نصل إلى الجد يحزقائيل لن آكل عنده أي شيء. أي شيء بالمرة».

مكثنا ستة أيام ضيوفاً في بيت الجد يحزقائيل. في كل صباح كنا نسافر مع ابننا للاستجمام على شاطئ بات ـ يام كانت أياماً هادئة. ترك يحزقائيل غونين وظيفته في قسم المياه بالبلدية، ومنذ بداية العام يعيش على دخل تقاعده المتواضع. لكنه لم يهمل مهماته في فرع حزب العمل. فلا يزال معتاداً على الخروج كل مساء إلى النادي، وحزمة المفاتيح في جيبه. يسجل في مفكرة مكتبية صغيرة: إرسال الستائر (البرادي) إلى الغسيل. شراء زجاجة عصير فاكهة للمحاضر. يجمع، ويرتب الفواتير طبقاً لتواريخها.

في ساعات الصباح يقوم يحزقائيل بدراسة معلومات أولية عن الجيولوجيا دراسة خاصة عن طريق المراسلة تديرها مؤسسة الثقافة الجماهيرية لكي يستطيع الدخول مع ابنه في مناقشة علمية بسيطة.

يشعر بأن لديه وقت فراغ وافر الآن. الإنسان لا يقول إطلاقاً أنني كبرت في السن، ولم أعد أصلح للتعليم. يحزقائيل يطلب منا أن نتصرف داخل بيته كأنه ليس موجوداً، إذا أكثرنا في التفكير بوجوده فإن ذلك سيفسد علينا إجازتنا. إذا راق لنا أن نقوم بتغيير قطع الأثاث في البيت، أو أن نترك فراشنا من دون ترتيب طوال اليوم.. فعلينا ألا نتردد في ذلك ولا نربط أنفسنا بمراعاة التقاليد. رغبته هي أن نتمتع براحة تامة. ما زلنا صغيرين في نظره. لو لم يسعدنا وجودنا معه فإن ذلك سيؤلمه

من الداخل. أعاد يحزقائيل هذه الجملة في مناسبات مختلفة. كان هناك نوع من الشكليات المتحفظة في كل كلام خرج من فمه. إما لأنه تعود نطق كلماته كخطيب في حشد صغير، أو لأنه كان يميل إلى اختيار كلمات وتعبيرات لا يستخدمها الناس عامة إلا في اللحظات المهمة. تذكرت التعريف الذي اقترحه عليَّ ميخائيل أثناء حديثنا في مقهى عطاره: أبوه يستخدم التعبيرات العبرية كأنها أوانٍ من الصيني الغالي سهل الكسر. الآن تحققت من أن ميخائيل نجح بالصدفة في صياغة ملاحظة حساسة جداً.

بين الجد والحفيد نشأت منذ اليوم الأول صداقة وطيدة. يستيقظان سراً في السادسة صباحاً من دون أن يوقظا أياً منا، أنا أو ميخائيل. يرتديان ملابسهما، ويتناولان إفطاراً سريعاً، ويخرجان للتجول بمفردهما في الشوارع الخالية. أحب يحزقائيل أن يأخذ حفيده للتعرف على خدمات البلدية: تفرع خطوط الكهرباء من محطة المحولات المركزية، دورة ضخ المياه، محطة المطافئ وضخ المياه وأجهزة الإنذار المتفرقة في أماكن مختلفة من المدينة. قسم الخدمات الصحية الذي يهتم بجمع القمامة. شبكة خطوط الحافلات (الأوتوبيسات) كان ذلك عالماً جديداً له منطقه المثير الخاص به. جديداً ومسلياً كان أيضاً اسم الطفل كما لفظه الجد:

«فليناديك أبواك بيائير كما يحلو لهما.. أما أنا فسأناديك بزالمان لأن زالمان هو اسمك الحقيقي».

لم يرفض الصبي الاسم الجديد.. لكن طبقاً لقواعد العدل المعروفة لديه بدأ هو الآخر ينادي العجوز بنفس الاسم: زالمان. في الثامنة

والنصف صباحاً كانا يعودان من جولتهما. يائير كان يعلن قدومهما قائلاً: «زالمان وزالمان عادا إلى البيت».

كنت أضحك حتى تغرروق عيناي، وكان ميخائيل يبتسم أيضاً. لدى استيقاظنا كنت وميخائيل نجد سلطة خضار معدّة على طاولة المطبخ. قهوة، خبز أبيض مقطع إلى شرائح ومدهون بالزبدة (زالمان أعد لكم بيديه وجبة الإفطار لأنه ولد حكيم).

كان يحزقائيل يشير إلى ذلك بحماسة، وحتى لا يشوه الحقائق كان يضيف: «وأنا فقط ساعدته بعدة نصائح».

بعد ذلك كان يحزقائيل يرافقنا نحن الثلاثة إلى محطة الحافلة (الأوتوبيس) ويحذرنا من شدة تيار البحر، أو من لفحة الشمس. مرة واحدة تجرأ وقال:

«كنت أود أن أنضم إليكم.. لكنني لا أرغب في أكون عبئاً عليكم».

في الظهيرة، وبعد عودتنا من البحر كان يحزقائيل يعد لنا وجبة غذاء نباتية: خضار. عجة. خبز محمص. فواكه. أما اللحوم فلم تظهر على مائدته بسبب مبدأ رفض يحزقائيل أن يشرحه لنا حتى لا يتعبنا بهذه الأمور. أثناء تناولنا الطعام كان يسعى جاهداً لتسليتنا بقصص غريبة ونوادر من فترة طفولة ميخائيل، مثل ما قاله ميخائيل ذات مرة، وهو صغير لموشيه شيرتوك الذي كان يزور المدرسة الابتدائية: وكيف اقترح موشيه شيرتوك نشر أقوال ميخائيل في جريدة ـ ملحق الأطفال بجريدة دافار.

كان يحزقائيل يقص على حفيده أيضاً أثناء تناول الطعام قصصاً عن عرب أشرار، وعرب أخيار، عن رجال الحراسة اليهود، وعن عصابات

المتسللين مجهولة الهوية. عن أولاد يهود من الأبطال، وعن ضباط إنكليز عاملوا بقسوة أولاد المهاجرين غير الشرعيين. كان يائير تلميذاً شديد الإصغاء والانتباه. لم تضع منه كلمة واحدة، ولم ينس تفصيلاً واحداً. كأنه قد جمع بين التوق إلى المعرفة التي يتمتع بها ميخائيل، وبين نزعتي الكئيبة في أن أتذكر كل شيء. كان من الممكن امتحان الطفل في كل ما سمعه من الجد «زالمان» خطوط الكهرباء المتصلة بمحطة ريدينغ، من هضبة تل ـ عريش أطلقت عصابة حسن سلامة نيرانها إلى داخل حولون. ماسورة المياه تضخ من النبع الموجود في رأس ـ العين. بيفين كان إنكليزياً شريراً. لكن وينغايت كان إنكليزياً طيباً.

أتحفنا الجد بهدايا بسيطة. اشترى لميخائيل خمسا مَن ياقات الرقبة في صندوق كرتون. اشترى لي كتاباً عن الشعر العبري في إسبانيا من تأليف البروفيسور شيرمان، ولحفيده اشترى سيارة مطافئ حمراء تتحرك بنزبرك، وبإمكانها أيضاً أن تطلق صفارة. هادئة كانت الأيام.

في الخارج بين مباني حي المساكن الشعبية للعمال زرعت أشجار زينة حول نجيل نظيف مزروع في مستطيلات، ومقصوص بعناية. الطيور صدحت طوال اليوم. المدينة كانت باهرة، ومغسولة بضوء الشمس. قبل الغروب هبت رياح من البحر فكان يحزقائيل يفتح كل الأبواب والظلف على آخرها، وحتى باب المطبخ كان يفتحه.

«نسيم عليل» يقول يحزقائيل: «نسيم البحر ينعش».

في العاشرة ليلاً، ولدى عودته من نادي الحزب كان العجوز ينحني على سرير الطفل، ويقبل حفيده النائم عدة مرات. بعد ذلك ينضم إلينا، ويجلس معنا في الشرفة فوق كراسي الشاطئ التي تطوى. منع نفسه من

الحديث معنا في شؤون حزب العمل لأنه افترض أننا لا نهتم بالأمور التي يهتم بها. لهذا اختار يحزقائيل أن ينقل مجرى الحديث إلى مواضيع بدت له قريبة من قلوبنا. لماذا يبعث في نفوسنا الضجر خلال عطلتنا القصيرة! كان يتحدث معي حول يوسف حاييم برنار[1] الذي مات ليس ببعيد عن هنا قبل أربعة وثلاثين عاماً، وفي رأي يحزقائيل كان برنار أديباً بارعاً، واشتراكياً عظيماً رغم أن أساتذة القدس يحطون من قدره الآن لأنه كان مناضلاً في سبيل آرائه، وليس غزير الإنتاج الأدبي. طلب مني يحزقائيل تصديقه في رأيه بأنه مع مرور الأيام سيكتشفون حتى في القدس عظمة برنار. لم أعارضه في أقواله هذه.

---

(١) يوسف حاييم برنار: ولد في عام ١٨٨١ في روسيا، وهاجر إلى فلسطين عام ١٩٠٨. وفي عام ١٩٢١ قتله أحد العرب الفلسطينيين، ويعتبر برنار أحد رواد الصهيونية العمالية، وقد تأثر بكتابات تولستوي، ودوستويفسكي. نشر في عام ١٩٠١ أول مجموعة قصصية له. أصدر في لندن مجلة عبرية تركت أثراً عميقاً على أنصار الهجرة الهيودية الثانية إلى فلسطين، وبعد ذهابه إلى فلسطين ساهم في تأسيس الهستدروت... كما كتب عدداً من القصص والروايات، والمسرحيات بالعبرية، وترجم بعض الأعمال الأدبية الروسية والألمانية إلى العبرية. هاجم في أعماله الأدبية الصفات التي يتسم بها يهود الدياسبورا (المنفى) وكان من أكبر المنادين بتصفية فكر الدياسبورا، والاندماج مع العرب سكان فلسطين. يعتبر برنار شخصية رئيسية بالنسبة لمدرسة متميزة في الأدب العبري الحديث، وهي المدرسة المتأثرة بأفكار يوسف بروتيفسكي والتي كانت تضم أدباء آخرين منهم شوفمان الذي أشرنا إليه سابقاً، وآموس عوز كاتب هذه الرواية. استعمل برنار في أدبه اللغة العبرية الحديثة، وطعّمها بكثير من المفردات والجمل اليديشية والألمانية والروسية والعربية. كما ابتدع بعض التعبيرات المحلية عن طريق إدخال كلمات تتعلق بالبيئة العربية الجديدة على اليهود الغربيين. كان متأثراً في مقالاته بوجهات نظر أحادها عام في القومية اليهودية، وقد كتب برنار مقالات نقدية. من كبار أدباء العبرية الحديثة.[المصدر السابق، ص٧٢].

صمتي أسعد يحزقائيل لأنه اعتبره دليلاً آخر على ذوقي الرفيع. تماماً كميخائيل يعتقد كلاهما بأنني أتمتع بروح شفافة، ولهذا يسمح يحزقائيل لنفسه بأن يعبر عن عاطفته، وأن يقول لي إنني غالية عنده تماماً كابنته.

مع ابنه كان يحزقائيل يتحدث حول طبيعة البلاد. ليس ببعيد ذلك اليوم الذي سيكتشفون فيه نفطاً في أرضنا. لا يساور يحزقائيل أدنى شك في ذلك. لا يزال يتذكر جيداً إلى الآن كيف شك الخبراء في الآية التوراتية التي تقول «أرض حجارتها من حديد، ومن جبالها يقطع النحاس». الموجودة بسفر التثنية[١]. وهالنا الآن جبل مناره كما يوجد تمناع. حديد ونحاس، وبلا أدنى شك سيكتشف البترول عما قريب. لأن اكتشافه مذكور بالتفصيل في ملاحق. «المشنا، والتنائيم، والأمورائيم»[٢]. كانوا يهوداً مخلصين، وعمليين لا مثيل لهم. كتبوا ما كتبوه من خلال المعرفة الأكيدة، وليس من خلال العاطفة. يعتقد يحزقائيل بأن ابنه ميخائيل ليس جيولوجياً ضيق الخيال. من المؤكد أن

---

(١) سفر التثنية: ويسمى كذلك سفر «تثنية الاشتراع» أي إعادة الشريعة وتكرارها على بني إسرائيل مرة ثانية عند خروجهم من سيناء، ووصولهم إلى سهول النقب، وجنوب الأردن في صحراء مؤاب، وهذا السفر يقع في أربعة وثلاثين إصحاحاً، وقد اشتمل على نسخ لبعض تعاليم الشريعة الأولى عند تثنيتها أو إضافة لأشياء لم تكن واردة من قبل، وهذا السفر هو آخر أسفار التوراة المنزلة على موسى. [د. حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي، ص١٥، ١٦].

(٢) المشنا والتنائم والأمورائيم: المشنا هي مجموعة من الشرائع اليهودية المروية على الألسنة، والتي كان اليهود، ولا يزالون، يعتبرونها مصدراً من مصادر التشريع يأتي في المقام الثاني بعد التوراة مباشرة، ويظنون بأنها ترتفع هي أيضاً إلى سيدنا موسى، ولذلك فإنهم يسمونها «التوراة الشفوية». التنائم: هم رواة المشنا. والأمورائيم: هم أحباء التلمود.

دوره مع الباحثين، والمكتشفين (كان يحزقائيل يشدّد في كلمة جيولوجي على المقطع الأوسط فقط: جيولوجي).

لكن بوده أن يصمت الآن لأن كلماته تتعبنا، ونحن إنما جئنا هنا للاستجمام، وهو ماذا يفعل بغبائه العجائزي؟! يتحدث معنا تماماً في أمور من مجال تخصصاتنا. كأنه لم يكفنا الجهد الذهني المتواصل الذي نبذله في القدس. لا ينفي أنه شخص يمل. تماماً ككل العجائز في العالم. والآن تعالوا ننام لنستيقظ في الصباح متفتحين، ومنتعشين. تصبحون على خير أيها الأولاد الأعزاء. ولا تلقوا بالاً لأقوال رجل عجوز يقضي معظم أيامه صامتاً.. لأنه يعيش وحيداً.

هادئة كانت الأيام.

بعد الظهر كنا نتنزّه كلنا في حديقة البلدية. نجتمع مع أصدقاء وجيران من الذين قبل سنوات عديدة تنبأوا بمستقبل باهر لميخائيل، والآن تسرهم المشاركة في تفوقه ذي السمعة الواسعة. ومن دواعي فخرهم أن يصافحوا يد زوجته، ويقرصون خد ابنه، ويحكون تفاصيل مسلية عن الأيام التي كان لا يزال ميخائيل فيها طفلاً رضيعاً. كان ميخائيل يشتري لي كل يوم الجريدة المسائية.. كما اشترى لي مجلات مصورة. كانت بشرتانا سمراوين من لفحة الشمس، ورائحة البحر تلتصق ببشرتينا. وكانت المدينة صغيرة ذات بيوت بيض.

«مدينة جديدة» قال يحزقائيل غونين لم تتجدد كسابق عهدها بل قامت من الرمال[1]. إلا أنها صارت جميلة ونظيفة، وأنا الذي لا زلت

(١) حولون: ومعناها باللغة العبرية مدينة الرمال.

أتذكر أيامها الأولى أبتهج بالعيش فيها كل يوم. رغم أنه ليس فيها كما هو معلوم حتى ولو ذرة مما يمكن أن يوجد في القدس مدينتكم.

في الليلة الأخيرة جاءت العمات الأربع من تل أبيب للجلوس معنا. أحضرن هدايا ليائير، وبأذرع قوية ضممن الطفل وقبلنه قبلات قوية. أربعتهن كن لذيذات هذه المرة. حتى العمة جينيه أراحتنا من بث شكواها.

فتحت العمة جينيه الحديث، وأعلنت باسم كل الحاضرين أن ميخائيل يخيب أمل العائلة، وعليك يا حنه أن تزهي فخاراً بنجاحه. لا تزال العمة ليئه تذكر كيف سخر زملاء ميخائيل منه بعد حرب ١٩٤٨ لأنه لم يشاركهم رأيهم، ويذهب معهم لأية مستوطنة (كيبوتز) في النقب. ولكنه أحسن صنعاً بالتوجه للقدس للدراسة في الجامعة، ولخدمة الشعب، والدولة معاً.. بعقله، ومواهبه، وليس بعضلاته كأي دابة عمل. والآن، ومع اقتراب مخيائيلنا من درجة الدكتوراه يأتي زملاؤه الذين سخروا منه في الماضي، ويطلبون منه مساعدتهم في خطواتهم الأولى بالجامعة. أضاع هؤلاء الأغبياء أفضل سنواتهم. بعد أن يئسوا، وضاقت بهم حياتهم بالمستوطنة في النقب. وميخائيلنا الذي كان رصيناً منذ البداية من حقه الآن أن يستأجر هؤلاء الأوغاد من زملائه لكي يحملوا له أثاثه من شقته القديمة إلى الشقة الجديدة، والتي تقريباً سيحصل عليها قريباً. حين قالت العمة ليئه مستوطنة في النقب لوت وجهها. أيضاً كلمة نقب خرجت من فمها وكأنها كلمة رجسة والجملة الأخيرة جرّت العمات الأربع إلى فاصل من الضحك الصاخب.

قال يحزقائيل:

«محظور استخفاف، أو ازدراء أي إنسان».

فكر ميخائيل قليلاً، ووافق على أقوال أبيه، وأضاف أنه يرى أن الثقافة لا تغير جلد الإنسان. هذا الرأي أسعد العمة جينيه، واستنتجت أن نجاح ميخائيل لم يجعل رأسه تدور، ولم يؤثر في تواضعه، والتواضع كنز لا يفنى في هذه الحياة، والعمة جينيه آمنت طوال سني حياتها بأن مهمة المرأة هي دعم زوجها في طريقه إلى النجاح. فقط لو حدث بالصدفة أن الزوج لم ينجح فعلى المرأة أن تختار الطريق الصعب المرير، وأن تخوض معارك الرجال في عالم الرجال. هكذا كان مصيرها هي، وهي سعيدة لأن ميخائيل لم يفرض هذا المصير على زوجته. أيضاً أنت يا عزيزتي يجب أن تكوني سعيدة لأنه في هذا العالم شعور يا حنه أكثر سعادة من جهود دؤوبة متواصلة تؤدي إلى نتائج، وفي انتظاركما نتائج أكيدة للغاية. إن العمة جينيه واثقة من ذلك منذ أيام صباها، وحتى الآن. المشاكل التي مرت بها لم تغير وجهة نظرها. بل جعلتها تتمسك بها أكثر.

في صبيحة يوم عودتنا للقدس أتى يحزقائيل بصنيع لا يمكن أن أنساه. صعد على سلم إلى سطح صندلة (متخت) عالية، وأنزل من هناك صندوقاً كبيراً. من داخل الصندوق أخرج بزة عسكرية من ملابس حرس الحدود النواخير، بالية، ومكرمشة (مجعلكة) كما وجد يحزقائيل في محفوظاته قبعة عسكرية خاصة بحرس الحدود كان اسمها كالباك. القبعة وضعها على رأس حفيده.. فغطت عيني الصبي تقريباً لأنها كانت كبيرة. الجد نفسه ارتدى البزة فوق البيجامة التي كان يرتديها. على امتداد الصباح، وحتى وقت رحيلنا أقام الجد والحفيد البيت ولم يقعداه

بضجيجهما في المعارك الوهمية والتدريبات. أطلق كلاهما النار على الآخر من عصا بيده، واتخذا من قطع الأثاث تحصينات لهما، عادا ونادى كل منهما الآخر باسم زالمان. بهجة عارمة أضاءت وجه يائير حين اكتشف لذة القوة، والسيطرة، والشاويش العجوز امتثل لكل أمر من منطلق إيمان داخلي. كان يحزقائيل عجوزاً مرحاً. صبيحة انتهاء زيارتنا الأخيرة لحولون، لوهلة بسيطة شعرت بأن هذه الصورة ليست جديدة، وأنني رأيتها منذ زمن بعيد، وكأنها نسخة باهتة من منظر كان أصله أكثر وضوحاً. لا أتذكر متى وأين. لفحني تيار بارد في ظهري. شعرت بحاجة ملحة لصياغة جملة ما. ربما أصرخ محذرة ابني وحماي من حريق أو من صعق كهربائي. لكن لعبهم لم يكن مرتبطاً بأي وجه من هذه المخاطر. أسرعت لإخبار ميخائيل أن بودي أن نقوم ونسافر فوراً. لكن في تلك اللحظة لم يكن بمقدوري أن أقول ذلك.. لأن كلاماً كهذا كان سيفسر على أنني حمقاء قليلة الحياء. ما هي القوة التي سببت لي هذه الكآبة. في ذلك الصباح عبرت سماء حولون طائرات حربية في عدة طلعات منخفضة لا أعتقد أن ذلك كان سبب اكتئابي، لا أعتقد بأن استخدام كلمة سبب هنا هي أنسب تعبير. محركات الطائرات هدرت. زجاج النوافذ اهتز، شعرت بأن ذلك لم يكن على أية حال المرة الأولى.

قبل رحيلنا قبلني يحزقائيل حماي على خدي. حين قبلني لحظت عينين مختلفتين. بدأ البؤبؤ الغائم في عينيه يغطي كل البياض كما أن وجهه كان رمادياً شاحباً. خدان يبدوان مترهلين ونضب منهما ماء الحياة. الشفتان اللتان لمستا جبهتي كانتا باردتين. وفي المقابل كانت يده حارة حين صافحني. دافئة إلى درجة مدهشة. كانت ضغطة يده قوية حتى إنها

كانت مروعة. كأن العجوز حاول أن يعطيني أصابعه كهدية لا يستعيدها ثانية. بعد عودتنا بأربعة أيام للقدس تذكرت ذلك كله باضطراب وذلك حين أتت قبل حلول المساء العمة جينيه لكي تخبرنا أن يحزقائيل قد سقط مغشياً عليه في موقف الأوتوبيس المواجه لبيته. حتى أمس فقط زارها يحزقائيل المسكين في منزلها. أسفت العمة، وكأنها تنفي أي شك قبيح. حتى أمس زار بيتها، ولم يجأر بأي شكوى من أي مرض.. بل على العكس تحدث معها عن دواء جديد لمرض شلل الأطفال توصلوا إلى ابتكاره حديثاً في أمريكا. لقد كان عادياً، عادياً تماماً. وفجأة في الصباح وأمام أعين عائلة الجيران غلوبرمان سقط على الأرض في محطة الأوتوبيس. «ميخا اليتيم». انتحبت العمة فجأة. حين انتحبت زمت شفتيها كشفتي طفلة عجوز أسيء إليها. ضمت بيديها رأس ميخائيل بقوة إلى صدرها الهزيل.. مسحت جبينه ثم توقفت:

«ميخا كيف يمكن أن إنساناً هكذا فجأة، وبلا أي سبب، يسقط على الرصيف كأنه حقيبة، أو طرد يسقط من يد حامله.. هكذا على الرصيف. هذا فظيع. لا معنى.. ولا طعم لهذا. هذا بشع. كأن يحزقائيلاه لم يكن في حقيقة الأمر سوى حقيبة، أو طرد. هكذا يسقط ويتكسر.. هذا.. أي نوع من الخيال يتحمل ذلك. ميخا وأي.. أي عار.. والإنسانان الفاضلان غلوبرمان جالسان هكذا أمام بيتهما في شرفتهما، ويتطلعان هكذا كأنها كوميديا، ويأتي أناس غرباء تماماً يرفعون، ويسحبون على جنب من اليدين والرجلين. حتى لا يسد الطريق، وبعد ذلك يذهبون ليلتقطوا قبعته، ونظارته من على الرصيف قبعته، ونظارته. والكتب التي تناثرت في عرض الطريق.. أنت تعلم إلى أين كان في نيته أن يذهب».
رفعت العمة صوتها في غضب حاد، وحانق، خرج ببساطة إلى المكتبة

لإعادة الكتب، ولم يفكر إطلاقاً حتى في ركوب هذه الحافلة (الأوتوبيس) وبالصدفة فقط سقط بالضبط في المحطة أمام عائلة غلوبرمان. إنسان هادئ ورقيق إلى هذا الحد ومتزن كهذا.. وفجأة كما يحدث في السيرك. إنني أقول لك كما يحدث في أي فيلم سينمائي. إنسان يسير في سلام في منتصف الطريق فيأتونه من الخلف، ويضربونه بعصا على رأسه، وهو ببساطة ينهار، ويسقط. كأن هذا الإنسان دمية من الأسمال البالية، أو أي شيء. بؤس، وشقاء كلها الحياة. إنني أقول لك يا ميخا: اتركا الطفل الآن مع الجيران، أو في أي مكان، وأسرعا لنعود إلى تل أبيب. هناك ليئهلاه بقيت لتعد الترتيبات الرسمية بيديها «العسراويتين». ألف ترتيب، وترتيب. الإنسان يموت ثم تأتي الترتيبات، والإجراءات، وكأنه مسافر إلى خارج البلاد. على الأقل أحضرا معاطف، أو أي شيء لنسافر. في نفس الوقت أركض أنا إلى الصيدلية لاستدعاء سيارة أجرة و... نعم يا ميخا أنا ألح في رجائي على الأقل جاكيت سوداء إذا لم يكن لديك بدلة سوداء، ولتسرعا من فضلكما! ميخا أي نكبة حلّت بنا أي نكبة أليمة يا ميخا! خرجت العمة جينيه. استطعت سماع وقع أقدامها المضطربة على السلالم، وعلى الممر المرصوف بالفناء تحت نافذتنا. أما أنا فقد ظللت واقفة في المكان الذي كنت أقف فيه لحظة دخول العمة. ممسكة بمكواة حامية، ومستندة إلى طاولة الكي، وميخائيل استدار وخرج مسرعاً إلى الشرفة كأنه ينوي أن يناديها: عمتي جينيه. عمتي جينيه.

بعد لحظة عاد ودخل وسحب الظلف والنوافذ وأغلقها بهدوء. توجه أيضاً لإغلاق باب المطبخ. بمروره على الردهة أصدر صوتاً مكتوماً. ربما انعكس وجهه أمامه فجأة في المرآة الموجودة قرب المشجب. فتح

خزانة الملابس. أخرج بدلته السوداء. نقل إليها حزام بنطلونه. «أبي مات» قال ميخائيل في همس ولم ينظر إليّ. كأني لم أكن هنا حين تحدثت معه عمته.

وضعت المكواة تحت الطاولة، وأخذت طاولة الكي إلى الحمام. ذهبت لغرفة يائير. أوقفت الصبي عن اللعب. كتبت مذكرة صغيرة، ووضعتها في يده، وأرسلته إلى بيت الجيران كامنيستر. الجد يحزقائيل مريض جداً. شرحت ليائير قبل خروجه، من السلالم وصلت إلى مسامعي هذه الكلمات كصدى عائد لأن يائير حرص على أن يخبر بانفعال كل الأطفال في البناية.

«جدي زالمان مريض جداً، وسيسافرون لإنقاذه بسرعة».

دس ميخائيل محفظته في جيبه الداخلي. زرر جاكتة بدلته السوداء التي كانت للمرحوم أبي، وأمي ملكاه أعادت حياكتها على مقاس ميخائيل. أخطأ ميخائيل مرتين في الأزرار. وضع قبعته على رأسه، أخذ خطأ حقيبته السوداء البالية ثم وضعها في مكانها بحركة غاضبة. «إني جاهز للسفر» جزء من الكلمات التي قالها ربما كانت لا لزوم لها. لكنها صادقة بالطبع. هذا ليس له أي معنى بهذه الصورة. أي علاقة ليست موجودة. يأخذون إنساناً عجوزاً ليس قوياً.. وليس سليماً إلى هذا الحد. وفجأة يسقطونه على الرصيف بوسط المدينة في وضح النهار كأنه مجرم خطير. هذا بشع جداً. أقول لك يا حنه هذا فظيع.. و... فظيع، وبشع.

حين تلفظ ميخائيل بكلمتي فظيع وبشع. بدأ جسمه يرتجف بقوة كطفل استيقظ من نومه في الشتاء ليلاً، وبدلاً من أن يجد وجه أمه رأى وجوهاً غريبة تحملق فيه.

٢٥

أثناء الأسبوع التالي للجنازة امتنع ميخائيل عن حلاقة ذقنه. لا أعتقد بأنه فعل ذلك احتراماً للتقاليد الدينية. كما أن ذلك لم يكن إرضاء لرغبة والده. يحزقائيل تعوّد أن يصف نفسه بأنه يمارس الإلحاد. ربما رأى ميخائيل نوعاً من الإهانة في أن يكون حليق الذقن أيام الحداد. أشياء تافهة تستطيع أن تشكل إهانة حتى في الأوقات التي يكتنفنا فيها الحزن. كره ميخائيل الحلاقة باستمرار. غطى وجهه شعر أسود غزير. وأعطاه ملامح ساخطة. في عيني كان ميخائيل جديداً في لحيته. أحياناً تخيلت أن جسمه أقوى مما عرفته. رقبته ضعيفة. حول شفتيه ظهرت تجاعيد تنم عن سخرية باردة لم تكن لدى ميخائيل. بدت في عينيه نظرة متعبة، كأنها بعد عمل جسماني مرهق. وكأن زوجي عامل ملطخ بالسخام في أحد المصانع الصغيرة.. في شارع أغريفاش قضى ميخائيل معظم ساعات النهار جالساً على كرسي فوتيه. يضع في قدميه خفاً بنياً مخططاً، ويرتدي روباً منزلياً رمادياً فاتحاً بمربعات رمادية غامقة. حين كنت أضع على ركبتيه الجريدة اليومية كان يثني ظهره ويقرأ. لو سقطت الجريدة على الأرض لم يكن يكلف نفسه عناء رفعها، لم أستطع أن أعرف ما إذا كان ميخائيل مشغول الذهن بكثرة التفكير أم أنه خالي الذهن على الإطلاق. ذات مرة طلب مني أن أسكب له كأساً من الكونياك. سكبت

وأعطيته إياه بناءً لطلبه. لكن وكأنه قد نسي. نظر إليّ مندهشاً ولم يلمس الشراب، ومرة أخرى بعد نشرة الأخبار أبدى ملاحظة قائلاً: «كم هو غريب؟». ولم يضف وأنا لم أسأل. الضوء الكهربائي أعطى ضوءاً أصفر. هادئاً للغاية كان ميخائيل أيام حداده على أبيه. كما كان بيتنا هادئاً أيضاً. تخيلت أحياناً أننا جميعاً نجلس في انتظار خبر ما. لو وجّه ميخائيل حديثاً لي أو لابنه في رقة. كأنني أنا التي تيتمت، كنت أشتاق إليه في الليالي جداً. كان الشعور أليماً. على امتداد كل سنوات زواجنا لم أشعر كم من الخزي يسبب هذا الاعتماد عليه. ذات ليلة وضع زوجي نظارته، ووقف مستنداً بكفيه إلى المكتب. كان رأسه منحنياً وظهره متعباً. حين دخلت حجرة مكتبه رأيت يحزقائيل غونين في زوجي. فزعت. بخلفية رأسه المحنية وبكتفيه الهزيلتين. بوقفته المتأرجحة. كأن ميخائيل تقمص شخصية والده. تذكرت يوم إكليلنا، والطقوس الدينية التي أجريت فوق سطح مكاتب الربانيين مقابل دكان سيتماتيسكي لبيع الكتب، وفي ذاك الوقت أيضاً كان ميخائيل يشبه أباه إلى حد بعيد.. لدرجة أني أخطأت التمييز بينهما مرتين. لم أنس.

في الصباح جلس ميخائيل في الشرفة. رافقت نظراته وثبات القطط في الفناء. كان هدوءاً لم أره في ميخائيل منذ عرفته. دائماً كان يسرع حتى لا تتراكم عليه الأعمال. دخل منزلنا جيران متدينون لتقديم العزاء. في أدب بارد استقبلهم ميخائيل. من وراء نظارته أخذ ينظر إلى عائلة كامنيستر أو إلى السيد جليك. وكأنه معلم مثابر ينظر إلى تلميذ لم يحقق المرجو منه. حتى جفت كلمات العزاء في حلوقهم.

دخلت السيدة سارة زلدين خطوات مترددة. جاءت تقترح أن يعيش

الطفل في بيتها حتى تنتهي أيام الحداد. ظهرت ابتسامة متجهمة على وجه ميخائيل «لماذا؟»، قال: «هل أنا الذي مت؟».

«فليسامحنا الرب! لا تقل ذلك!» بهتت الضيفة:

«فقط فكرت.. أنه ربما...».

«ربما ماذا؟» قاطعها ميخائيل بحدة باردة.

أخذت المربية العجوز بتلابيبها، وأسرعت بالرحيل، لدى خروجها طلبت عفونا، وكأنها سببت إهانة.

ظهر السيد قاديشمان مرتدياً بدلة من الصوف الأسود، وعلى وجهه جلال مهيب. أخبرنا بأنه حظي بمعرفة المرحوم معرفة سطحية بواسطة العمة ليئه، وأنه رغم الفوارق الحزبية التي كانت بين وجهات نظره وبين آراء المرحوم، كان يكن للمرحوم احتراماً عميقاً. في نظره كان المرحوم من الشرفاء في حزب العمل الذين ضللوهم، ولم يكن من الملونين أصحاب الوجوه. من المضللين لا الضالين. وأضاف السيد قاديشمان قائلاً:

«وآسفاه على الذين فقدناهم، ولن ننساهم».

«آسف فعلاً يا سيدي!» وافق ميخائيل بصوت بارد. أما أنا فكتمت ابتسامة. أيضاً وقف على بابنا زوج صديقة ميخائيل من مستوطنة طيرات ياعر. تأخر في الدخول من باب اللباقة. بوده الإعراب عن مشاعره الحزينة. طلب مني أن أنقل لميخائيل أنه جاء بالطبع للتعزية باسمه واسم ليثوراه. في الليلة الرابعة وفد إلى بيتنا أستاذ علم الجيولوجيا ومحاضران مساعدان جلسوا في حجرة الاستقبال على الأريكة ـ الكنبة أمام كرسي الفوتيه الذي جلس عليه ميخائيل. جلسوا بظهور مستقيمة، وركبهم

مضمومة.. وكأنهم وجدوا أنه من غير اللائق الاستناد إلى ظهر الأريكة (الكنبة)، أما أنا فقد جلست على كرسي بلا ظهر ولا ذراعين قرب الباب.

طلب مني ميخائيل أن أقدم قهوة للضيوف الثلاثة، وشاياً بلا ليمون له. لأن قرحة المعدة تؤلمه. بعد ذلك سأل ميخائيل عن نتائج الدراسة الميدانية التي جرت في ناحال عرجوت بصحراء النقب. حين بدأ أحد الشباب إجابته أدار ميخائيل وجهه فجأة تجاه النافذة في حركة قوية. كأن زنبركاً انفجر فيه. ارتعشت كتفاه. أنا بغت لأني تخيلت أن ميخائيل يضحك، ولا يستطيع كتمان ضحكته. أعاد وجهه. كان وجهه متعباً وخالياً من أي تعبير. اعتذر وطلب منهم أن يستمروا في حديثهم، وأن يحكوا له بالتفصيل. بوده أن يسمع كل شيء. الشاب الذي تحدث في البداية بدأ من النقطة التي انقطع فيها حديثه. رمقني ميخائيل بنظرة رمادية كأنه مندهش من مظهري ولم يكن قد لحظه حتى الآن. ريح ليلي جعل ظلف الباب تخبط في حائط البيت. ظلال قطع الأثاث. الخطوط المرتعشة التي تفصل بين الأجزاء المضيئة وبين الظلال.

قاطع الأستاذ أقوال مساعده وأشار بيقظة مكبوتة:

«خطوط المشروع العريضة التي أعددتها لنا في بداية الشهر لم تخيب ظننا يا غونين! الحقائق تؤيد فرضياتك. لهذا أحاسيسنا مزدوجة. إننا نأسف على نتائج التنقيب، ومع ذلك فنحن سعداء لدقة حذرك». بعد ذلك أضاف الأستاذ ملاحظة معقدة حول الاعتراف بالبحث العلمي. واعتماده على البحث النظري، وأكد أيضاً على أهمية الحدس الإبداعي لكلا النوعين من البحث.

أبدى ميخائيل ملاحظة بجفاء:

«قريباً سيحل الشتاء، وستطول الليالي. وستكون طويلة، وباردة».

نظر الشابان إلى بعضهما، وبعد ذلك ألقيا ببصرهما على الأستاذ. أومأ العجوز بحركة رأس واضحة وسريعة لكي يعبر عن فهمه للإشارة. قام من مكانه وقال في حزن: «إننا جميعاً نشاركك الحزن يا غونين! وكلنا ننتظر عودتك، حاول أن تتماسك، وأن تكون قوياً.. كن قوياً يا غونين!».

ودعنا الضيوف.. رافقهم ميخائيل إلى ردهة البيت. أسرع لمساعدة الأستاذ في ارتداء معطفه الثقيل. كان هناك عدم اتساق في حركات جسمه مما اضطر ميخائيل لطلب المعذرة بابتسامة باهتة. من بدء الأمسية وحتى تلك اللحظة كنت أذوب شوقاً إلى سحره. مما جعل ابتسامته الباهتة تؤلمني. أدبه نبع من تملق زائف، وليس من عاطفة. ذهب مع الضيوف حتى الباب. بعد خروجهم عاد إلى غرفة مكتبه. صمت، كان وجهه إلى النافذة المظلمة وظهره لي. ولم يدر كتفيه.

قال:

«كوباً آخر من الشاي يا حنه. ومن فضلك أطفئي الضوء العلوي!».

«حين طلب والدي منا أن ندعو الطفل باسمه اعتبرتيه موضة قديمة.. كان علينا أن نستجيب لطلبه، وأنا في العاشرة من عمري ألمت بي أوجاع حلق قاسية طوال الليل، وليلة إثر أخرى جلس أبي بجانب سريري. ظل يغير على جبهتي كمادات باردة، وهو يغني مرة تلو الأخرى أغنية الأطفال الوحيدة التي كان يعرفها. كان يغني بصوت عريض لا نغمة فيه. كانت الأغنية: حان وقت النوم، وكفاك حركة. الشمس غرقت في البحر. حان وقت الراحة. الكل حولنا نام».

«هل حكيت لك ذات مرة يا حنه أن العمة جينيه حاولت بكل قوتها أن تدفع أبي إلى أن يتزوج من امرأة أخرى؟ تقريباً في كل زيارة من زياراتها لبيتنا كانت تحضر معها إحدى معارفها أو صديقاتها. كن ممرضات مسنات قادمات حديثاً من بولندا. مطلقات نحيلات. النسوة هاته كن يلاطفنني بلهفة مصطنعة، بالضم والقبلات وحلوى ومصمصة شفايف. تصرف أبي وكأنه لا يفهم نيات العمة جينيه. كان مهذباً. كان يفتح الحديث عن قرارات المندوب السامي. وعلى سبيل المثال: أثناء الحمى التي أصابتني ارتفعت درجة حرارتي. تصبب العرق مني طوال الليل. كان الفراش كله مبللاً بالعرق. كل ساعتين كان أبي يغير الملاءات (الشراشف) في حذر. كان يحرص على ألا يهزني بعنف. لكن حركاته كانت فيها مبالغة دائماً. كنت أستيقظ وأبكي. في الفجر كان أبي يغسل كل الملاءات في الحمام، وكان يخرج في الظلام لنشر الملاءات المغسولة على الحبل في الفناء الخلفي للبلوك (المجمع السكني). شاياً بلا ليمون يا حنه لأن الحرقة في المعدة تضايقني جداً. حين انخفضت درجة الحرارة ذهب أبي واشترى لي، بسعر منخفض، لعبة الداما من محل جارنا غلوبرمان، حاول أن يخسر في كل مرة لعبنا فيها معاً.. ولكي يبعث السرور في نفسي كان يتنهد، ويمسك رأسه بيديه.. يبالغ في أسفه على هزائمه القاسية.

«يناديني بلقب عبقري صغير. عقل بروفيسور، عقل الجد زالمان. وذات مرة بدأ يقص عليّ تاريخ أسرة مندلسون في محاولة للتنكيت. قارن نفسه بمندلسون الذي كان والد مندلسون العظيم وابن مندلسون العظيم. تنبأ لي بمستقبل باهر. كان يسقيني كثيراً من أكواب الحليب المخلوط بالعسل والخالي من الدسم. حين كنت أعاند، وأرفض

الشراب كان أبي يبذل قصارى جهده لإقناعي بالترغيب أو بالرشوة.. كان يمتدح ذكائي الخارق وهكذا شفيت. إذ لم يكن صعباً عليك يا حنه أحضري لي الغليون من فضلك. لا. ليس هذا بل الغليون الإنكليزي. أصغر غليون في المجموعة. نعم هذا، شكراً لك. تماثلت للشفاء، وانتقلت عدواها اللعينة لأبي. مكث ثلاثة أسابيع في المستشفى الذي تعمل فيه العمة جينيه. تطوعت العمة ليثه للعناية بي أثناء مرضه. بعد شهرين كِشفوا لي عن أن أبي قد أنقذ من الموت بأعجوبة، أو بمعجزة سماوية. أبي نفسه أكثر من التنكيت حول هذا الموضوع. اقتبس مثلاً يقول: إن عظماء الأمة يموتون أولاً. وهو لحسن حظه ليس منهم وإنما من بسطاء الناس. وأنا أقسمت أمام صورة هيرتزل، التي كانت في الحجرة الكبيرة، أنه إذا مات أبي فجأة فسأجد لي أنا الآخر أية حيلة للموت أيضاً. ولن أذهب لمؤسسة أيتام، ولا للعمة ليثه في الأسبوع القادم يا حنه سنشتري ليائير قطاراً كهربائياً كبيراً، كالقطار الذي رآه يائير في شارع يافا في واجهة عرض محل الأحذية فريمان فيات بين. لأن يائير مغرم بالسيارات سأعطيه المنبه المعطل كهدية. سأعلمه كيف يركبه ويفكه. يبدو أن يائير سيصير مهندساً. هل انتبهت إلى أن الطفل مشدود بقوة إلى الميكانيكا، الزنبركات، والمحركات. هل سمعت عن طفل في الرابعة والنصف من عمره يمكن أن تشرحي له بتفاصيل عامة كيف يعمل جهاز الراديو؟ لا أظن نفسي رجلاً يتمتع بذكاء خارق أو بموهبة. أنت تعرفين! لست عبقرياً كما ظن أبي، أو كما قال إنه يظن. أنا لست من طبيعة خاصة يا حنه، لكن يائير عليك أن تحبيه بكل قوتك وستشعرين براحة إن أحببته بكل قوتك. لا لم أدع أنك تهملين الولد. لكن يبدو أنك لستِ متلهفة له يا حنه. يجب أن نكون معجبين به. يجب أن نعرف كيف

نتخلى أحياناً عن الشعور بالنسبة. أقصد أن أطلب منك أن تبدئي وبهذا لا أعرف بأي كلمات يمكن شرح عاطفة كهذه. فلنترك الخوض في هذا! ذات مرة قبل عدة سنوات حين جلسنا أنت وأنا في مقهى.. نظرت لوجهك ونظرت لنفسي وقلت لنفسي: إنني لم أولد لأكون أمير أحلام أو فارساً على حصان. وأنت جميلة يا حنه! أنت جميلة جداً! هل حكيت لك ماذا قال لي أبي في حولون الأسبوع الماضي؟ قال إنك في نظره شاعرة رغم أنك لا تقرضين الشعر. انظري يا حنه!».

«إنني لا أدري لماذا أقص عليك كل هذا الآن؟ بالتأكيد لا يضايقك أو أهينك. انظري كان علينا ألا نعاند في الاسم يائير. في النهاية لم يكن الاسم من علاقتنا بالطفل. لكننا آلمنا عاطفة حساسة جداً. ذات مرة سأضطر أن أسألك يا حنه لم اخترتني بالذات أنا من بين كل الرجال المهمين الذين التقيت بهم. لكن الوقت متأخر الآن، وأنا أتحدث كثيراً، وبالتأكيد أحيرك. ابدئي يا حنه ترتيب الفراش من فضلك. فوراً سآتي لمساعدتك. لننم يا حنه! أبي مات. أنا نفسي صرت أبا كل هذا.. الترتيب يتبدى لي فجأة، وكأنه لعبة أطفال غبية. كنا نلعب ذات مرة في طرف بلوكات المساكن (المجموعة السكنية الشعبية) على أرض فضاء تحدها الرمال. نقف في صف طويل، والأول يقذف الكرة، ويجري ليقف في نهاية الصف حتى يصير الذي في الآخر في الأول، والذي في الأول في الآخر، وهكذا، وهكذا. لا أتذكر الهدف من اللعبة. لا أتذكر كيف كانوا ينتصرون. لا أتذكر إذا كان هناك فائزون على الإطلاق.. أم إذا كانت هناك قواعد أو أسلوب لهذا العبث. نسيت إطفاء نور المطبخ!».

٢٦

انتهت أيام الحداد. مرة أخرى أنا وزوجي على طرفي طاولة المطبخ أثناء تناول الإفطار. هادئان وصامتان لدرجة أن غريباً يخطئ الظن ويعتقد أن بيننا وئاماً. أناول ميخائيل ركوة القهوة. ميخائيل يناولني فنجانين لصب القهوة.. أصب القهوة. ميخائيل يقوم بتقطيع الخبز إلى شرائح. أضيف سكراً إلى الفناجين، وأظل أقلب، أذيب حتى يوقفني صوته:

«كفى يا حنه! قلبتيها كثيراً.. فأنت تحفرين بئراً».

أفضل القهوة السوداء، ميخائيل تعود أن يخلطها بقليل من الحليب، أعد: أربع خمس ست نقاط من الحليب في فنجانه. هكذا نجلس: ظهري مستنداً إلى جانب الثلاجة، ونظري مسلط على المستطيل الأزرق الذي هو نافذة المطبخ. أما ظهر ميخائيل فإلى النافذة وبإمكان عينيه رؤية الزجاجات الفارغة الموضوعة على ظهر الثلاجة. باب المطبخ جزء من الصالة وباب الحمام. بعد ذلك يغمرنا المذياع بأنغام صباحية خفيفة. أغانٍ عبرية تذكرني بأيام صباي، وتذكر ميخائيل بأن الوقت صار متأخراً. يقوم من دون أن يتلفظ ببنت شفه. ينحني على الحوض. يغسل فنجانه وصحنه. يخرج من المطبخ في الصالة. يخلع خفه المنزلي، وينتعل حذاءه الخارجي. يرتدي جاكيت رمادية، ويأخذ القبعة من فوق المشجب. قبعته بيده، وحقيبته السوداء القديمة تحت ذراعه. عاد إلى

المطبخ ليقبلني على جبهتي، وليودعني، ويذكّرني ألا أنسى أن أشتري كيروسين في الظهيرة. الكيروسين على وشك النفاد، وهو نفسه سجل في مذكراته أن عليه اليوم الذهاب إلى قسم المياه لكي يدفع الفاتورة. وليستوضح معهم خطأ ربما يكون قد وقع.

يخرج ميخائيل من البيت، والدموع تختنق في حلقي. أسأل نفسي من أين جاء هذا الحزن. من أي كهف ملعون يهاجمني هذا الحزن لتعكير صفوي في صباح أزرق هادئ. كموظفة في أرشيف مكتب تجاري أقلب في ركام الذكريات المبددة. أتفحص كل رقم في أعمدة حسابية طويلة. أي خطأ ما فظيع مختبئ. ولا أعرف أين؟ هل هو وهم وأين تخيلت أنني أرى هذا الوهم، الخطأ الفظيع؟ توقف المذياع عن الغناء. أذاع فجأة عن نوع من التذمر يسود القرى. أنا مندهشة. الثامنة. الزمن لا يستريح، ولا يريح. أخطف حقيبتي. بلا داع أطالب يائير بالإسراع. لأنه كان جاهزاً من مدة. يده في يدي. نحن ذاهبان إلى روضة أطفال سارة زالدين.

صباح صافٍ بشوارع القدس. أصوات واضحة. حوذي عجوز يجلس مستريحاً على صندوقه. ويغني بصوت عالٍ. تلاميذ مدرسة «تحكموني» الدينية للبنين. يعتمرون قبعات مائلة إلى جانب واحد فقط. يقفون على جانبي الرصيف المقابل. يضحكون. يحاولون إغاظة الحوذي العجوز، والسخرية منه. والحوذي يلوح لهم بيده.. كأنه يعيد التحية بتحية مثلها. يبتسم ويستمر في الغناء.. بصوت عالٍ. يبدأ ابني في الشرح لي أن خط ٣ ب تعمل عليه حافلة (أوتوبيس) من طراز فورد وفارغو. الفورد محركها قوي جداً. أما الفارغو فبطيئة. فجأة يتخيل الطفل أنني قد

توقفت عن الإصغاء له. هو يختبرني. أنا جاهزة للاختبار. سمعت كل كلمة يا بني. أنت ذكي ورائع أنا أصغي إليك.

حل على القدس صباح أزرق وصافٍ. حتى الجدران الحجرية الرمادية بمعسكر شنيلر تحاول جاهدة ألا تبدو غليظة. وفي الساحات المهجورة تنمو نباتات قوية. قثاء الحمار. عليق، لبلاب، وأيضاً نباتات برية لا أعرف اسمها، وهي بصفة عامة يطلقون عليها اسم نباتات طفيلية.

للحظة توقفت أنفاسي وكأنها صدمة قوية:

«هل أغلقت باب البلكونة قبل خروجنا يا يائير؟».

«بابا أغلق الباب بالمفتاح منذ مساء الأمس، واليوم لم يفتحه أحد ماذا بك اليوم يا ماما؟».

نمر الآن أمام البوابة الحديد الضخمة التي في معسكر شنيلر. إطلاقاً لم يحدث أن كنت في داخل هذه الأسوار الكئيبة. في طفولتي عسكر هنا جيش إنكليزي. وآلات إطلاق نار تخرج فوهاتها من بين الفتحات. قبل سنوات عديدة كان اسم هذه القلعة هو الملجأ السوري للأيتام. إنه اسم يتوجه لي بطريقته الخاصة. يقف حارس بشعر لامع أمام البوابات، وينفخ في أطراف أصابعه لتدفئتها عند مرورنا. يبحلق الجندي الشاب إلى ساقيّ إلى الفراغ العاري الذي يفصل بين غونلتي (تنورتي) وبين جواربي القصيرة البيض. أختار أن أبتسم له، هو يرمقني بنظرة ملتهبة فيها خجل وعطش، شوق واعتذار خجول في نظرته. أنظر إلى ساعتي الثامنة والربع. الثامنة والربع صباحاً، يوم أزرق صافٍ. وأنا قد تعبت. كنت أريد أن أنام. بشرط أن تنساني الأحلام.

يتأخر ميخائيل كل يوم ثلاثاء في المدينة قبل عودته من الجامعة للبيت.. لكي يحجز لنا من وكالة كاهانا تذكرتين للعرض الثاني بالسينما. أثناء غيابنا يقوم على رعاية الطفل أثناء نومه يورام ابن عائلة الجيران كامنيتسر. ذات مرة وبعد عودتنا من الفيلم وجدت رسالة صغيرة بين صفحات الرواية التي كانت موضوعة بجانب سريري. يورام دس قصيدة جديدة لكي أبدي رأيي فيها. قصيدة يورام عن فتاة وفتى يتنزهان في بستان أثناء الغسق وفارس غريب يمر عليهما فجأة. كان ذلك فارساً أسود يمتطي جواداً أسود، ويمسك برمح من نار سوداء.

وفي أثر انطلاقه ينتشر ستار غامق على الأرض، وعلى العاشقين، وبين قوسين في أسفل الصفحة كتب يورام ملاحظة مفادها أن الفارس الأسود هو الليل. يورام لم يثق بي. في الصباح حين قابلت يورام كامنيتسر على سلالم البيت قلت له بأن قصيدته أعجبتني، وأنه ربما تكون هذه القصيدة جديرة بالنشر في إحدى صحف الشباب. يورام قبض بشدة على درابزين السلالم، وأخذ يرمقني بنظرة مليئة بالخوف، وللحظة ارتسمت على شفتيه ضحكة صفراء:

«كذب، وهراء يا سيدة غونين». قال الفتى بصوت متعكر: «كذبت الآن» ابتسمت.

استدار، وركض إلى أعلى السلالم، توقف، أدار وجهه، وهمهم باعتذار خائف كأنه دفعني بكتفه في ركضه.

ليلة السبت. الوقت مساء بالقدس على قمة مرتفع ومياه. صهاريج المياه المرتفعة ما زالت تغطيها أشعة الغروب. خلال أوراق الأشجار تتسرب خيوط من نور كأن المدينة تشتعل. وإلى أسفل يندفع الضوء

ببطء إلى الشرق. ينزلق بأصابع نحيلة على الجدران الحجر، وعلى الدرابزينات الحديد وكأنه جاء للترضية. شيء ما يتبلور حول السكون. شوق عام يلف المدينة في خفاء. صخور كبيرة تنفث حرارتها، وتستسلم لأصابع الضباب الباردة.

نسيم عليل يغمر الأفنية. النسيم يقلب قصاصات الورق ثم يعود فيطرحها أرضاً.. لأنه لم يجد في ذلك مبتغاه. الجيران في ملابس العيد يخرجون لصلاة السبت. ملاطفة. سيارة بعيدة تسقط لوناً أرجوانياً على الصنوبر الهامس. فليتوقف السائق. ويدير وجهه نحوي حتى أراه أنا أيضاً.

في شقتنا غطاء أبيض للمائدة. باقة ورد من الأقحوان الأصفر في زهرية. زجاجة نبذ أحمر. قام ميخائيل بتقطيع خبز السبت المقدس إلى شرائح. أنشد يائير ثلاثة من أناشيد السبت التي تعلّمها في الحضانة. أضع على المائدة سمكاً مشوياً في الفرن. نحن لا نشعل شموع السبت لأن ميخائيل يرى في ذلك نفاقاً من جانب الذين لا يتمسّكون بالمبادئ الدينية.

يبدأ ميخائيل في السرد عن إحدى تفاصيل أحداث عام ١٩٣٦. الولد يلتقط الكلمات في ظمأ. يطرح سؤالاً نبيهاً، وينتهي قائلاً: أنهيت كلامي. طريقته في الجلوس توحي بإصغاء مركّز. أيضاً أنا أسمع صوت زوجي. هناك أيضاً طفلة جميلة ذات معطف أزرق، وهذه الطفلة تحاول أن تناديني من وراء وجاج النافذة، ولهذا فهي تضرب اللوح الزجاجي في النافذة بقبضات واهنة. وجهها مليء بالفراغ. إنها ليست بعيدة جداً من اليأس. شفتاها تقولان، وتقولان شيئاً ما وأنا لا أستوعبه. توقفت عن

الكلام بينما وجهها لا يزال واضحاً عبر الزجاج. المرحوم أبي تعوّد تلاوة الأدعية على النبيذ والخبز كل ليلة سبت، وكان يشعل الشموع في بيتنا. أبي لم يعرف ما هو مدى الصدق في المبادئ الدينية. ولهذا احترمها. حين انضم أخي عمانوئيل لحركة شباب يسارية... حينذاك فقط توقفت العادات الدينية في بيتنا يوم السبت. تمسكنا بالقواعد الدينية كان واهناً للغاية كان أبي رجلاً متشككاً.

أسفل المنحدر في المستوطنة الألمانية جنوب القدس قطار متعب يتسلق الهضاب. محرك القاطرة يعوي، ويلهث كأنه سقط في أرصفة المحطة المهجورة. خرج ما تبقى به من بخار في صفير مرير.

مرة أخرى، وأخيرة يجأر القطار ضد السكون.. الذي هو أقوى من القطار. يستسلم القطار. يبرد. يستريح. ليلة السبت. توقعات غامضة. حتى الطيور تصمت. ربما على أبواب المدينة تقف. بين بساتين قرية هاشيلواح، أو فيما وراء جبل النصيحة الملعون. يحل الظلام. ينساب ضوء كهربائي أصفر في الطرق المتفرعة ويصل أيضاً إلى قرية دير ياسين، وإلى مبنى جنرالي. كذلك تندفع المياه التي تضخها المضخات الكبيرة بقوة في المواسيرة هذه المياه القادمة من نبع بعيد في السهول. يكفيك أن تلمس الحنفية، وهي تتدفق سريعة، وباردة ليلة السبت. القدس كلها ساكنة. لم يتحقق شيء. التوقعات تضمحل لتصبح تطلعات جافة. المدينة تغرق في الظلام. «سبتاً مباركاً» أقول من بعيد.

ابني وزوجي يضحكان... ميخائيل يجد كلاماً.. يقول:

«كم يبدو عليك العيد اليوم يا حنه، وكم يبدو رائعاً هذا الفستان الأخضر الجديد».

في بداية سبتمبر/ أيلول نقلت جارتنا المصابة بالهستيريا السيدة جليك من الطابق الثالث للفحص الطبي، والعناية في مؤسسة علاجية داخلية. جاءتها النوبات على مرات متزايدة. بين نوبة وأخرى كانت تتجول إما على السلالم، أو في الفناء، أو في الشارع. وجهها كان متلبّداً. كانت امرأة ممتلئة الجسم جميلة بها نضارة. جانب من حلاوة تظهر أحياناً لدى النساء العاقرات، وهن في السنوات الأخيرة من عقدهن الرابع. في كل مرة كانت بملابس غير مزرّرة بعناية كأنها لتوها نهضت من النوم. حدث ذات مرة أن ألقيت عليها السلام فاحمرّ وجهها ونظرت إليّ في غيظ مكتوم. ذات مرة هاجمت المريضة الشاب المهذب يورام في الفناء صفعته على خديه.

مزقت بأظافرها قميصه ونعتته بأسماء: زاني. فاسق. متلصص. عيون وقحة. في ليلة سبت من بداية شهر سبتمبر خطفت السيدة جليك حاملة الشموع، وبها شموع مشتعلة ثم ألقت بها في وجه السيد جليك الذي هرب إلى شقتنا. ارتمى على كرسي فوتيه وكتفاه يجيشان. أطفأ ميخائيل غليونه. أطفأ المذياع. وخرج للصيدلية ليتصل بالسلطات. بعد ساعة ظهر التمورجية يرتدون معاطف بيضاء. من هذا الجانب، ومن الجانب الآخر أمسكوا بالمريضة وجروها برفق إلى عربة الإسعاف. هبطت السلالم كمن تمسك بذراع عاشقها، وهي تتمتم بأغنية بهيجة باليديش. خرج سكان البناية الآخرون للوقوف في صمت أمام أبواب شققهم. جاء يورام كامنيتسر ووقف إلى جانبي وهو يهمس «سيدة غونين» كان وجهه أبيض كالثلج، أرسلت يدي إلى ذراعه ثم أعدتها في منتصف الطريق قبل أن تلمسه.

«اليوم هو السبت. اليوم يوم السبت» صرخت السيدة جليك وهي على باب عربة الإسعاف، وزوجها وقف مستعطفاً عليها بصوت باك:

«لا شيء يا دوبة. هذا لا شيء... سيمر كل شيء. إنها حالة نفسية فقط يا دوبة كل شيء سيكون على أفضل ما يرام». ارتدى السيد جليك لباس سبت مجعلك (مكرمش) فوق جسمه الصغير. شاربه الرفيع ارتعش وكأن له حياته الخاصة به.

قبل أن يدار محرك عربة الإسعاف طلب من السيد جليك التوقيع على بيان ما. كان ذلك وثيقة طويلة ومملّة. على ضوء مصابيح سيارة الإسعاف أخذ ميخائيل يقرأ على مسامع السيد جليك بنداً بعد الآخر وأيضاً قام بالتوقيع في مكانين بدلاً من السيد جليك حتى لا يفسد عليك السبت. بعد ذلك أخذ ميخائيل الجار من ذراعه حتى فرغ الشارع، وأحضره لشقتنا لتناول فنجان من القهوة. ربما كان السبب أن السيد جليك اعتبر نفسه كأحد أفراد أسرتنا. علم من الجيران بأن الدكتور غونين مغرم بجمع الطوابع ولحسن الصدف لديه في صندوقه كثير من الطوابع التي لا يحتاجها. ومما يبعث السرور إلى قلبه أن يأخذها منه الدكتور كهدية لا ترد. عذراً ألا ينادون سيدي بلقب دكتور. وماذا في ذلك؟ جميع أبناء إسرائيل متساوون أمام الرب إلا أولئك الذين حلّت عليهم اللعنة منه سبحانه. دكتور. عريف في الجيش. فنان كلنا متشابهون إلى حد بعيد، والفروق بسيطة. هكذا الحياة. السيدة دوبة المسكينة لديها أخ وأخت يعيشان في مدينتي أنتورب وجوهانسبرغ، وهما يرسلان كثيراً من الخطابات التي تحمل طوابع كثيرة ورائعة. لم يرزقه الرب بأولاد ولهذا لا يحتاج الطوابع. إنه يعطيها هدية لا ترد للدكتور غونين. من

جانب آخر له طلب متواضع وهو أن نسمح له بالدخول إلى بيتنا بين الفينة والأخرى لكي يقرأ في الموسوعة العبرية.. فالأمر كله أنه متعطش للثقافة، وفي نيته أن يقرأ كل أجزاء الموسوعة. لا في يوم واحد بالطبع.. بل صفحات معدودة في كل زيارة، وهو من جانبه يعد بعدم الإزعاج أو إحداث أي قلق.. لن يدخل وحلاً إلى الشقة.. بل سينظف حذاءه جيداً قبل دخوله.

وهكذا أصبح جارنا ضيفاً مألوفاً. إلى جانب الطوابع كان يعطي ميخائيل أيضاً ملاحق السبت من جريدة هاتسوفيه الدينية.. لأن بها عموداً علمياً خاصاً. أحظى من الآن في محل جليك للخردوات الواقع بشارع دافيد يالين بتخفيض خاص. سدادات (سوست) مشابك ستائر، زراير، أبزيمات، وخيوط تطريز. كل ذلك يعطيه لي كهدية مطلقة. لن يأخذ مقابله شيئاً وأنا لا أعرف كيف أرفض هداياه.

طوال السنين كان السيد جليك ملتزماً بتعاليم ديننا. والآن فإن الوضع سيكون على النحو التالي:

بعد نكبة السيدة دوبة ساورته أنواع من الشكوك.. شكوك خطيرة. بودّه توسيع ثقافته بالقراءة في الموسوعة. وهنا قد وصل حتى مادة «أطلس» وأدرك أن أطلس ليس حريراً لماعاً فقط. وإنما أيضاً اسم علاق إغريقي يحمل العالم كله فوق كتفيه. علم السيد جليك أفكاراً جديدة مؤخراً ولمن يتوجه بشكره. لنا لعائلة غونين الكريمة التي غمرته بعطفها البالغ. بوده أيضاً أن يرد الجميل مقابل جمائلنا، ولا يعرف ماذا يفعل؟ هل نتكرم ونوافق على أن نقبل منه لعبة حيوانات لوتو التي اشتراها لابننا يائير. نحن وافقنا على قبول الهدية.

وهؤلاء هم الأصدقاء الذين تعودوا زيارتنا.

أعز صديقاتي هادساه، وزوجها الملقب باسم «أبا». أبا كان يعمل موظفاً مرموقاً في وزارة التجارة والصناعة. هاداساه عاملة تليفونات في نفس الوزارة. يريدون توفير مبلغ مناسب من المال لشراء شقة في حي راحافيا. وبعد ذلك فقط ينوون إنجاب طفل. يستمع ميخائيل منهما إلى أخبار سياسية لا تنشرها الصحف. أتبادل مع هاداساه ذكريات مشتركة من أيام المدرسة، ومن فترة الانتداب البريطاني.

يزورنا أيضاً على فترات قصيرة معيدون مهذبون، ومحاضرون بقسم الجيولوجيا، يتبادلون نكاتاً مع ميخائيل حول أن أحداً منهم لن يستطع الترقي في الجامعة إلا إذا مات أحد العواجيز. كان يجب تعديل إجراءات القوانين حتى يستطيع الشباب أيضاً أخذ فرصتهم المتلائمة مع قدراتهم.

بين الحين والآخر تزورنا ليثوراه من مستوطنة طيران ـ ياعر بمفردها أو برفقة زوجها، وبناتها. حين يأتون القدس للتسوق، أو لتناول الأيس الكريم (البوظة) يجيئوننا للوقوف على ما إذا كنا لا نزال على قيد الحياة. كم هي رائعة تلك الستائر، ويا له من مطبخ ينطق بالنظافة. هل مسموح لهم بإلقاء نظرة على المنافع (التواليت)، مجموعة سكنية (بلوك) جديدة من المنتظر إنشاؤه بمستوطنتهم، وبودهم أن يقارنوا، ويأخذوا فكرة، وباسم اللجنة الثقافية في المستوطنة يدعون ميخائيل لإلقاء محاضرة مساء الجمعة حول التركيبة الجيولوجية لجبال يهودا. معجبون هم بحياة المثقفين. أبداً لا يوجد روتين في العمل العلمي. هكذا تفترض ليثوراه. لا زالت إلى الآن تذكر ميخائيل من أيام حركة الشباب. شاب منطو على

نفسه، ويتحمل المسؤولية. وهنا أثبت أنه لن تطول الأيام حتى يصير ميخائيل فخر أبناء صفه. حين يأتي ميخائيل لإلقاء محاضرة في طيرات ـ ياعر تقول ليئوراه يستطيع أن يحضر معه أيضاً أسرته. الدعوة عامة. كم كثيرة هي الذكريات المشتركة.

في كل عشرة أيام جاء مرة السيد إبراهام قاديشمان. معروف بأنه من العائلات العريقة. صاحب مصنع معروف لإنتاج الأحذية. صديق قديم للعمة ليئه. هو الذي استفسر لعائلة زوجي عن أصل عائلتي، وأخبر العمات حتى من قبل أن ترين وجهي للمرة الأولى بأنني أنتمي لعائلة طيبة.

لدى دخوله شقتنا يخلع معطفه بالردهة، ويبتسم لميخائيل ولي كأنه أحضر نسيم العالم الواسع إلى بيتنا، وكأننا جالسون منذ زيارته السابقة نتوقع هذه الزيارة. الكاكاو هو المشروب المفضل لديه. تركزت مناقشاته مع ميخائيل حول السلطة. كان السيد قاديشمان عضواً فعالاً في فرع القدس من حزب حيروت ـ التحرير ـ اليميني. بينه وبين ميخائيل خلاف مستمر في الرأي حول اغتيال الزعيم الاشتراكي أرلوزوروف. التشقق في داخل الحركة السرية المناوئة للبريطانيين. إغراق الحكومة لسفينة ألبطالينا.

لا أدري ما الذي وجده ميخائيل جذاباً في علاقته بالسيد قاديشمان. ربما حبهما المشترك لتدخين الغليون، أو حبهما للعب الشطرنج. أو عدم رغبة من جانب ميخائيل في إبعاد رجل يعيش وحيداً، مع ابننا تعوّد السيد قاديشمان على الإتيان ببعض الطرائف اللغوية مثل:

يائير غونين سيضيء، وسيحمي

لشعبه يمنح أيضاً نوراً ودرعاً
أو يائير سيوقظ نائمي الأمة
وسيقف على قمة أبطالنا في فخار وعظمة.

أنا أسكب الشاي، قهوة وكاكاو. أدفع أمامي عربة الشاي من المطبخ إلى غرفة الضيوف. حجرة الضيوف تمتلئ بسحب من دخان الغليون. السيد جليك، وزوجي والسيد قاديشمان ملتفون ثلاثتهم حول الطاولة كصبيان في حفلة عيد الميلاد. السيد جليك يرمقني بنظرة جانبية، وعيناه ترمشان بسرعة، وكأنه متخوف من أنني سأوجه له إهانة بالغة. الرجلان الآخران منحنيان على لوحة الشطرنج. أقطع الكعكة إلى شرائح، وأضع شريحة فوق كل طبق. يمتدح الضيوف ربة البيت. ترتسم على وجهي ابتسامة مؤدبة لا أشترك أنا فيها. ويتطرق الحديث كالتالي:

«قالوا ذات مرة إنه إذا خرج الإنكليز سيأتي الخلاص». يفتتح السيد جليك بتردد: «والإنكليز قد خرجوا والخلاص لم يأت بعد».

السيد قاديشمان:

«لأن دولتنا سقطت في أيدي أناس أقزام. لدى أديبكم مكتوب في مكان ما أن دون كيشوت حارب ببطولة لكن سانكو هو الذي كان يفوز دائماً».

وزوجي يقول:

«لا معنى لربط كل شيء بحسن النيات، أو سوئها. في السياسة هناك عوامل موضوعية، وهناك عمليات موضوعية».

السيد جليك:

«بدلاً من أن نصير نوراً يهتدي به الجاؤييم (أمم العالم غير اليهود) أصبحنا ككل الجاؤييم (الغرباء غير اليهود) ومن يعرف إذا كنا من أخيارهم أم كأشرارهم؟».

السيد قاديشمان:

«وذلك راجع لكون جباة ضرائب أقزام يديرون أمور البيت الثالث. صيارفة الكيبوتسات (المستوطنات) بدلاً من الملك المسيح المنتظر، وربما حين يكبر أبناء جيل حبيبنا يائير غونين «الصبي الرائع»، سيستردون همّ لشعبنا قامته الفارعة.

وأنا شاردة الذهن أثناء مناولة السكرية بخفة لأحد الضيوف أقول أحياناً جملة مثل:

«محظور الخنوع لروح الزمن».

وأحياناً أقول:

«نحن مجبرون على مسايرة روح الزمن».

أو:

«لكل عملة وجهان».

مثل هذه الكلمات كنت أقولها حتى لا أظل صامتة طوال الأمسية ولا أبدو متجهمة. والألم المفاجئ: كيف جئت إلى هذا المنفى. ناوتيلوس دراغون، وجزر. قادمة. تعال من فضلك أيها السائق البخاري الوسيم حاييم رحاميموف. أنفخ في صفارتك بصوت عالٍ. السيدة إيفون أزولاي مستعدة للرحلة. تقوم، وتخرج. وهي لا تحتاج لتغيير فستانها. جاهزة تماماً للرحيل الآن.

٢٧

تتشابه الأيام وأنا لا أنسى شيئاً. لا أدع حتى ولو مثقال ذرة لمخالب الزمن البارد. إنني أكرهه هو والأريكة (الكنبة) والكراسي والستائر. والأيام هي الأخرى لها أشكال مختلفة. ذات لون واحد. طفلة جميلة وحكيمة في معطف أزرق. مربية أطفال كثيرة الشراشف بأوردة منتفخة على فخذيها. وفي الوسط زجاج يواصل فقدان شفافيته رغم التلميع البائس. لقد تركته وراءها إيفون أزولاي. هناك شخص مخادع من رتبة دنيئة يقودها إلى الضلال. ذات مرة حكت لي أعز صديقاتي هاداساه أن مدير مدرستنا الثانوية أصيب بالسرطان، وحين كشف له الطبيب سر مرضه انفجر الرجل في ادعاء غاضب: «كيف يحدث ذلك، وهو يدفع الرسوم الطبية دائماً بانتظام، وقد تطوع بصفة شخصية في الخدمات الطبية رغم كبر سنه، والرياضة التي مارسها على امتداد السنين، ومراعاة القواعد الصحية في الأكل والشرب. حتى سيجارة واحدة لم يدخلها إلى فمه. طوال أيام حياته، وكتابه عن مبادئ قواعد اللغة العبرية».

ادعاءات بائسة.. لكن الخدعة نفسها بائسة، وأيضاً قبيحة. إنني لا أضع شروطاً معجزة. الزجاج كان يجب أن يظل شفافاً. لا أكثر.

يائير يواصل نموه. في العام القادم سنرسله للمدرسة. يائير طفل لا

يشكو إطلاقاً من الضجر. قال ميخائيل: «إنه طفل ذو اقتناع ذاتي يحمل ذاته، ويكتفي بها».

في الحوض الرملي الموجود في فناء بنايتنا ألعب مع يائير لعبة حفر الأنفاق. يدي تحفر، وتظل تنشد يده الصغيرة حتى تتقابل يدانا، وتلمس إحداهما الأخرى. تحت سطح الرمال. حينئذٍ يرفع رأسه الذكي ويقول في همس:

«التقينا».

وفي ذات مرة وجه يائير إليّ سؤالاً:

«ماما! فلنفترض أني كنت أهارون، وأهارون كان أنا. كيف كنت ستعرفين بالتحديد أي طفل يجب أن تحبي؟».

قادر يائير على أن يلعب في حجرته من دون أن يصدر عنه صوت على مدى ساعة أو ساعتين. إلى درجة أن الفزع ينتابني أحياناً من الصمت. أركض لغرفته في فزع فظيع: كارثة، كهرباء، وهو يرمقني بطلعة بهية هادئة، ومليئة بالاستغراب الحذر:

«ما بك يا ماما؟».

ولد نظيف، وحريص، ولد متزن. أحياناً يعود من الشارع مضروباً، ومصفوعاً على خده رافضاً الإفصاح عمن ضربه. عيناه حولهما كدمات. أخيراً بعد ترغيب وترهيب يصيغ عبارته كالتالي:

«كان شجاراً... الأولاد غضبوا... أنا لا أهتم، ولا أشعر بألم. أحياناً يغضبون، وهذا هو».

في ملامحه الخارجية يشبه ابن أخي عمانوئيل: الأكتاف العريضة

القوية، الرأس الكبيرة. وحركاته بحساب. لكن ليس لديه أي نوع من الفرح الواضح والصاخب الذي لدى ابن أخي. حين أقوم بتقبيله يجفل كأنه يضغط على نفسه لينتظر ويقبلها في صمت. حين أقص عليه أمراً مضحكاً يرمقني بنظرة متفحصة من جانب عينه. بإصغاء، وبذكاء، وبجدية. كأنه يتفحص في داخله الدوافع التي جعلتني أختار هذه القصة بالذات، الأشياء تهمه أكثر بكثير من الكلمات، ومن الأشخاص. يهتم بالزنبركات والحنفيات والبراغي والصمامات والمفاتيح.

وتتشابه الأيام.

يخرج ميخائيل لعمله، ويعود في الثالثة بعد الظهر. وكانت العمة جينيه قد اشترت له حقيبة جديدة لأن القديمة التي تلقاها هدية من أبيه في يوم زفافه بليت. تتسع الخطوط في الجزء الأسفل من وجهه، وتمنحه تعبيرات ذات ملامح ساخرة باردة، ومريرة. مثل هذه الملامح لا تعبر أصلاً عن شخصيته. التحضير لرسالة الدكتوراه يتقدم ببطء لكن من دون إكمال. يخصص ميخائيل كل مساء لبحثه ساعتين بعد نشرة أخبار الساعة التاسعة، ونشرة أخبار الحادية عشرة، في الأمسيات التي لا يزورنا فيها الضيوف والتي لا يذيع فيها الراديو برامج مسلية أيضاً أطلب من ميخائيل أن يقرأ لي بعض صفحات من بحثه. هدوء صوته الروتيني. ضوء مصباح طاولته. نظارته. استرخاؤه على الكرسي الفوتيه في الوقت الذي يتحدث فيه عن انفجارات قوى بركانية، وعن تجمد القشرة البلورية. من داخل الأحلام التي أحلمها تخرج كلماته هذه لكي تظل تعود إليّ في الأحلام. زوجي دؤوب ومتحفظ. يحدث أحياناً أن أتذكر قطاً صغيراً، لونه رمادي على أبيض، أطلقنا عليه اسم «صافي». وأتذكر

قفزاته المترنحة، المتداعية، والمضطربة عن قصد الإمساك بفراشة على السقف. ويحدث أحياناً أن تعتل صحتنا، ونصاب بأمراض خفيفة. منذ أن كان ميخائيل في الرابعة عشرة من عمره لم يعرف المرض إلى الآن. كما أنني لم أصب بأي مرض في ما عدا الرشحات الخفيفة. لكن وعلى فترات متقاربة يتألم ميخائيل من قرحة المعدة. منعه الدكتور أورباخ من الأكل المقلي، وأنا أعاني من انقباضات مؤلمة في الحلق. فقدت صوتي مرات عديدة على امتداد ساعات معدودة.

أحياناً يحدث بيننا خلاف صغير. بعدها تتم مصالحة هادئة. لحظة يتهم أحدنا الآخر، وفي اللحظة الأخرى نتراجع، ويتهم كل منا نفسه. نبتسم كشخصين غريبين اصطدما بالصدفة على سلالم معتمة. خجلين محتارين لكن في منتهى الأدب.

اشترينا فرناً يعمل بالغاز وستكون لدينا غسالة كهربائية في الصيف القادم.. فقد سجلنا أسماءنا وحجزنا في مكاتب المصنع، ودفعنا القسط الأول من الثمن. بواسطة السيد قاديشمان حظيت أنا وميخائيل بتخفيض كبير في السعر. طلينا حجرة يائير باللون الازرق. أضاف ميخائيل رفاً للكتب في غرفة مكتبه التي كانت ذات يوم شرفة. في نفس الوقت وضعنا أيضاً في غرفة الطفل رفين للكتب. جاءت العمة جينيه لقضاء رأس السنة معنا. استضفناها لمدة أربعة أيام.. لأن عطلتي العيد والسبت كانتا متعاقبتين. بدت عليها علامات السنين لكنها تصلبت. على وجهها ترتسم ملامح شبيهة بالقبح الوقور. أصبحت تدخن السجائر بشراهة رغم الآلام الفظيعة حول القلب. مصير صعب لطبيبة في بلادة حارة، وعصبية.

تنزهنا ميخائيل وأنا مع العمة جينيه إلى جبل هيرتسل، وجبل صهيون كما زرنا الهضبة التي من المقرر أن يبنوا فوقها مباني المدينة الجامعية الجديدة. أحضرت العمة معها من تل أبيب رواية بولندية ذات غلاف بني، وكانت تقرأها في السرير حتى الفجر.

«لماذا لا تنامين أيتها العمة جينيه؟ يجب أن تستغلّي الإجازة لتستريحي قليلاً!».

«أيضاً أنت لا تنامين يا حنه! في عمري مسموح.. أما في عمرك فمحظور».

«أستطيع أن أعد لك شاياً بالنعناع.. إنه يساعد على النوم، ويهدئ».

«ولكن النوم يا حنه لا يهدئني، شكراً لك».

في نهاية العيد سألتنا العمة جينيه:

«إذا كنتم قررتم عدم تغيير هذه الشقة الكئيبة.. فلماذا لا تنجبون طفلاً آخر؟».

فكر ميخائيل قليلاً ثم ابتسم:

«ربما بعد الانتهاء من تحضير رسالتي للدكتوراه».

أما أنا فقلت:

«لا. إلى الآن لم نتخل عن تغيير الشقة. ستكون لنا شقة جميلة، وجديدة. كما سنسافر للسياحة خارج البلاد».

قالت العمة جينيه في انفجار حزن عصيب:

«الزمن يمر بسرعة. إنكما تعيشان، وكأن الزمن في انتظار جلالتكما. السنون لا تقف، ولا تنتظر أحداً».

بعد أسبوعين أثناء عيد السكوت (المظال) بلغت الخامسة والعشرين. إني أصغر زوجي بأربع سنوات. حين يصل ميخائيل السبعين من عمره أكون أنا امرأة عمرها ستاً وستين سنة. بمناسبة عيد ميلادي اشترى لي زوجي فونوغرافاً (حاكياً) وثلاث أسطوانات من الموسيقى الكلاسيك. باخ، وبيتهوفن وشوبرت. وكانت تلك الخطوة الأولى لتأسيس مكتبة أسطوانات لو جمعت أسطوانات، قال ميخائيل ستشعرين أفضل. فقد قرأ في أحد الكتب أن الموسيقى تستطيع التهدئة، وعملية الجمع نفسها تهدئ هي الأخرى. إنه نفسه يجمع الغلايين وطوابع البريد أيضاً ليائير. فهل هو أيضاً يحاول الهدوء. حاولت أن أسأله، ولما كنت لا أريد ابتسامته، لم أسأله. سمع يورام كامنيتسر من يائير أن عيد ميلادي قد حل. أوفدته أمه لشقتنا في مهمة طلب طاولة الكيّ. فجأة بسط يده أمامه بحركة فجة، وقدم لي علبة ملفوفة بورق بني. فتحتها. كتاب قصائد بقلم يعقوب فنجمان. وقبل أن أكمل الإعراب عن شكري كان الفتى قد ابتعد صاعداً السلالم. أما طاولة الكيّ فقد أعادتها في صبيحة اليوم التالي أخت يورام الصغيرة. مساء عيد السكوت (المظال) ذهبت للكوافيرة.. وقصصت شعري قصة قصيرة جداً. صار شعري مقصوصاً مثل شعر فتى. قال ميخائيل:

«ماذا دهاك يا حنه! لا أفهم ماذا يحدث لك؟».

بمناسبة عيد ميلادي أرسلت أمي طرداً من مستوطنة نوف ـ هاريم، وفيه غطاءان خضراوان للمائدة. طرزت على كل واحد منهما إكليلاً من نبات بخور مريم (الزفوفيا) البنفسجية.

كان تطريزاً ناعماً.

وزرنا حديقة الحيوانات التوراتية في عيد السكوت (المظال) مسيرة عشر دقائق من بيتنا إلى حديقة الحيوان، ومع ذلك كأننا في قارة أخرى، أنشئت حديقة الحيوان في حرج على منحدر تل صخري. وأسفل الغابة أرض خالية وأودية. بمنحنيات اعتباطية خطيرة. الريح تصل قمم الصنوبر من دون حواجز. رأيت طيوراً رمادية تصعد داخل صحراء زرقاء. تابعتها بعيني، ضاعت الأبعاد للحظة.

أخطأت الظن حين فكرت بأن الطيور لا تصعد، ولكني أنا التي تهبط، وتهبط. منسق عجوز لمسني من كتفي كأنه يرشدني: من هنا يا سيدتي.. من هنا.

بدأ ميخائيل يشرح لابنه الفروق بين الحيوانات النهارية، والحيوانات الليلية. استخدم ألفاظاً واضحة، ونعوتاً أقل. يائير وجه سؤالاً. ميخائيل أجاب.. تاهت مني الكلمات. لكن الأصوات وصلتني.. كما وصلني أيضاً صوت الريح، وصياح القردة في أقفاصها. في ضوء النهار الشديد الذي يصيب بالدوار كانت القرود منهمكة في ألعابها الفاضحة. لم أستطع الاستمرار في النظر إلى هذه المناظر. هذه الأمر سبب لي فرحاً بذيئاً. كذلك الشعور الذي كان ينتابني أحياناً حين يذلني غرباء في أحلامي. وقف أمام كهوف القردة رجل عجوز. بمعطف رمادي وياقته مرفوعة. اتكأ بكفين عظامهما ناتئة إلى عصا رحلات مكحوتة. أمر متعمّدة بينه وبين كهوف القردة، وأنا شابة جذابة ترتدي فستاناً صيفياً. أخذ الرجل يحملق، ويحملق كأنني شفافة، والقرود تستمر في العملية الجنسية من خلال لحمي. إلى أين ينظر سيدي؟ لماذا تسأل سيدتي؟ أنت تغازلني يا سيدي! سيدتي حساسة إذاً. سيدتي من الحساسات. هل

سيدي ينوي الرحيل حقاً؟ إني ذاهب إلى البيت يا سيدتي. وأين هو البيت يا سيدي؟ لماذا تستجوبينني؟ ليس لك أي حق. لي بيتي، ولها بيتها. ماذا بها؟ ماذا تظنني؟ فليعذرني سيدي أخطأت الشك في نيات سيئة. سيدة متعبة تتحدث إلى نفسها. لا أفهم ماذا تقول! تبدو أنها امرأة مريضة. تتعالى أنغام موسيقية من بعيد يا سيدي. هل فرقة موسيقية هي التي تعزف بعيداً؟ لا أستطيع أن أرى ما هو خلف الأشجار يا سيدتي، من الصعب الثقة في امرأة غريبة، ومريضة. أنا أسمع أنغاماً يا سيدي! إنه وهم يا بنتي! فقط القرود تصيح من شدة اللذة. إنها أصوات منكرة. لا أرفض أن أصدق سيداً. السيد يخدعني. عرض موسيقي يجري الآن وراء الغابة، ووراء المباني في شارع ملوك إسرائيل.. هناك يسير الشباب في عرض على الأنغام، وهناك رجال شرطة صحيحو البنية أقوياء يمتطون جيادهم القوية، وهناك فرقة موسيقى الجيش بزيها الناصع البياض، والمرصع بالأوسمة الذهبية. سيدي يخدعني قصده أن يعزلني حتى أكون بمفردي. أنا لا أنتمي بعد. وبالفعل أنا لست كما كنت. لن أسمح لسيدي أن يخدعني بمعسول الكلام. ذئاب تسير في بطء. تلف، وتدور وهي نضة. لونها رمادي على أكن طرية تتدافع حول أسوار الأقفاص. أنيابها مفتوحة أنوفها رطبة، ومبللة، وفروها ملوث بالطين، واللعاب. من المؤكد أنها تقصدنا لتصب جام غضبها علينا. الآن. أكيد جداً.

٢٨

متشابهة تمضي الأيام. يأتي الخريف. بعد الظهيرة تدخل الشمس من خلال النافذة الغربية. تنقش أشكالاً من ضياء على البساط، وعلى أغطية الكراسي الفوتيه.. مع كل حركة خفيفة في قمم أشجار الفناء.. تتكسر أشكال الضياء في أرجوحة رقيقة. تتحرك في عصبية وبتعقيد. قمة أعلى غصن في شجرة التين تحدث إشعاعاً يتجدد كل مساء. تشير أصوات الأطفال الذين يلعبون في الخارج عن وجود وحشية بعيدة. سيأتي الخريف. أتذكر أبي حين كنت طفلة أنه قال ذات مرة إن الناس في الخريف يبدون أكثر هدوءاً، وأكثر حكمة. أن أكون صامتة، وحكيمة. كم هذا مروع.

ذات مساء جاءت لزيارتنا ياردينا، صديقة ميخائيل من أيام التلمذة. أحضرت معها مرحاً عامراً. هي، وميخائيل ابتدآ الدراسة معاً، وها هو ميخائيل الدؤوب قد صعد إلى مراتب الفخار. على حين ما زالت هي تتلهى في إحدى الوظائف المتواضعة.

ياردينا ثقيلة الأرداف طويلة.. ترتدي سترة ضيقة، وقصيرة. عيناها خضراوتان أيضاً. شعرها أشقر غزير. ملتمسة من ميخائيل عوناً. تجد صعوبة في أعمال وظيفتها النهارية. ومنذ يوم لقائهما الأول أدركت حدة ذكاء ميخائيل، وأن عليه إنقاذها.

ياردينا، نادت بعاطفة، ودللته باسم الشيطان الصغير. أما أنا فقد لقبتني بالحلوة.

«يا حلوة! ألا أزعجك أن أخطف منك رجلك لمدة أقل من نصف ساعة؟ إذا لم يشرح لي الآن مسألة دافيز هذا فسوف ألقي بنفسي من السطح». إنها مجنونة.. قالت ذلك ولمست شعره كأنه زوجها. بيد ضخمة ناصعة البياض لمست شعره. بأصابع ذات أظافر حادة يزينها خاتمان عريضان.

عبست، وخجلت من نفسي حالاً. حاولت أن أجيب ياردينا بلغتها. قلت:

«خذيه مجاناً. هدية هو ودافيز (تبعكم)».

«يا حلوة»، قالت ياردينا، وقد ارتسمت على وجهها ضحكة مريرة.

«حلوة، لا تقولي ذلك، وإلا ستندمين جداً بعد ذلك. لا تبدين بطلة إلى هذا الحد كما يظهر من كلامك».

اختار ميخائيل أن يبتسم، وأثناء ابتسامته ارتعشت أطراف شفتيه. أشعل غليونه، ودعا ياردينا إلى غرفة مكتبه. جلس معها لمدة حوالى نصف ساعة أو ساعة إلى جانب مكتبه. صوته عميق، وحاد. صوتها فيه ضحكات متواصلة مخنوقة. بدا لي أن رأسيهما يسبحان في دخان الغليون، رأس أشقر وآخر رمادي، وذلك حين دفعت عربة الشاي أمامي وعليها قهوة وكعك.

«يا حلوة!» قالت ياردينا، لا تبدو الإثارة عليك لأني خطفت منك عبقرياً شاباً. لو كنت مكانك لالتهمته حياً. لكنك يا حلوة لا تبدين لي نهمة. لا. لا تخافي مني! أنا كلبية كثيرة النباح. قليلة العض جداً. والآن

إذا سمحت من فضلك حتى نستطيع الانتهاء من درسنا، ونعيد هذا الجدي الوديع والحكيم. شيطان طفلكم هذا. يقف جانباً هكذا في صمت ويحملق فيّ كأنه رجل صغير. يحملق كوالده. خجول لكنه زائغ العينين. خذي هذا الطفل من أمامي قبل أن يصيبني الجنون.

خرجت إلى المطبخ وقد كان على نافذته ستارة زرقاء طبعت عليها أزهار. دلو كبير معلق في شرفة المطبخ في هذا الدلو كنت أغسل ملابسنا إلى حين يصير عندنا غسالة كهربائية في الصيف القادم. على الدرابزين في الشرفة توجد مزهرية فيها نبات ميت ومصباح كاز مليء بالهباب. التيار الكهربائي كثير الانقطاع في القدس.

لماذا قصصت شعري؟ أتساءل بشفتين مضمومتين. طويلة، ورائعة ياردينا وضحكاتها قوية، وحارة. لأذهب وأعد وجبة العشاء. أنزل بسرعة إلى محل بائع الخضار الفارسي إلياهو موشيح. كان على وشك إغلاق حانوته. «لو تأخرت لحظتين لما وجدتني..» قال بصوت مرح. اشتريت بعض الطماطم والخيار والبقدونس، وفلفلاً أخضر وأحمر. ضحك الخضري، وضحك لأن حركاتي مرتبكة. حملت السلة بكلتا يدي وركضت إلى البيت. للحظة توقفت في دهشة باردة. المفتاح ليس معي نسيت أن آخذ معي مفتاحاً. ولكن ماذا في ذلك ميخائيل والضيفة موجودان بالبيت. الباب ليس مغلقاً، إلى جانب ذلك فقد تركت لدى عائلة الجيران كامنيتسر مفتاحاً إضافياً لشقتنا. تحسباً للطوارئ.

ضاع إسراعي هباء. وقفت ياردينا على السلالم، وودعت زوجي، وعادت وودعته مرة أخرى، ووضعت رجليها على قضبان الدرابزين. رائحة مختلطة من العرق، والعطر ملأت مدخل السلم. كانت هذه رائحة

نفاذة وحلوة. لهثت أنفاسي من الجري ومن الخوف على المفتاح. قالت ياردينا:

«في نصف ساعة حل لي زوجك الخجول مشكلة نصف سنة. لا أعرف كيف أشكركما».

قالت ذلك، وفجأة أرسلت في اتجاهي أصبعين مطليين لكي تزيح من على ذقني قشرة من الجلد. أو شعرة شاردة. أبعد ميخائيل نظارة القراءة عن وجهه ونمت عنه ابتسامة متحفظة. أخذت فجأة ذراع زوجي ووقفت متكئة عليه. ضحكت ياردينا، وخرجت. دخلنا شقتنا. ميخائيل أدار المذياع. أنا أعددت سلطة خضار.

تأخر المطر قليلاً. برد شديد لفح المدينة. ظل السخّان الكهربائي مشتعلاً في شقتنا طوال اليوم. ومرة أخرى اكتسى زجاج النوافذ ببخار رطب. يرسم ابني بإصبعه أشكالاً على زجاج النافذة. أقف أنا أحياناً وراء ظهره. أنظر ولا أستطيع تفسير هذه الأشكال. في إحدى أمسيات السبت أخرج ميخائيل السلم، ووضع ملابس الصيف فوق الصندلة (المتخت)، وأنزل من هناك ملابس الشتاء. سئمت كل ملابسي من العام الماضي. تماماً كفستان امرأة عجوز بدا لي الآن الفستان ذو الخصر العالي.

وبعد السبت ذهبت إلى المدينة للتسوق، وفي هيستريا اشتريت، واشتريت ـ في صباح يوم واحد أنفقت مرتب شهر بأكمله. اشتريت لي معطفاً أزرق. وحذاء فرو ناضراً إلى جانب زوج من الأحذية. وثلاثة فساتين مختلفة الألوان بأكمام طويلة، وسترة سبور غامقة تقفل بسوستة (سحاب). اشتريت ليائير بدلة بحار مصنوعة من صوف إنكليزي. بعد ذلك أثناء سيري في شارع يافا مررت على محل لبيع الأدوات الكهربائية

كان ملكاً لأبي منذ سنوات عديدة مضت، وضعت حقائبي بجانب الباب.

وقفت أبحلق شبه عمياء في رجل غريب. سألني الرجل عما أريد. كان صوته صبوراً، ومن صميم قلبي شكرته على ذلك. أيضاً حين اضطر لإعادة سؤاله لم يرفع صوته. في العتمة التي داخل المحل بدا مدخل الغرفة الصغيرة الخلفية المنخفضة التي يهبطون إليها بدرجتين. في تلك الغرفة كان أبي يقوم بإجراء تصليحات بسيطة. هنا كنت أجلس لأقرأ في كتاب المغامرات المخصصة للذكور أيام كنت أزور حانوت أبي. داخل هذه الغرفة الصغيرة تعود أبي أن يغلي لنفسه قدحاً من الشاي مرتين كل يوم. قدح في العاشرة صباحاً. والآخر في الخامسة بعد الظهر. خلال تسع عشرة سنة صيفاً وشتاءً.

طفلة قبيحة خرجت من الحجرة الصغيرة، وأمسكت بيدها دمية صلعاء. عيناها كانتا حمراوين من البكاء. «فيم أستطيع المساعدة؟» سأل الرجل الغريب للمرة الثالثة، ولم يظهر صوته أي استغراب. أريد ماكينة حلاقة جديدة. ماكينة حلاقة كهربائية حتى أوفر على زوجي عناء الحلاقة. زوجي يحلق ذقنه كشاب صغير. يخدش بشرته بالموسى حتى ينزف دماً. كما أنه يترك بعض الشعر تحت ذقنه. ماكينة حلاقة كهربائية من أعلى وأجود الأصناف، أنوي مفاجأته للغاية. وقفت أعد النقود التي ما زالت في محفظتي، وفجأت لمعت عينا الطفلة القبيحة. بدا أنها تعرفني. ألست أنت الطبيبة د. كوبرمان التي تعمل في مصحة القطمون؟ لا يا صغيرتي! اختلط عليك الأمر بواحدة أخرى. اسمي السيدة أزولاي، وأنا لاعبة في منتخب التنس. شكراً، وسلاماً لكما. من الأجدر بكما تشغيل مدفأة. برد هنا. هذا المحل رطب.

صدم ميخائيل حين رأى الصناديق والطرود التي أحضرتها معي لدى عودتي من المدينة.

«ماذا بك يا حنه؟ إنني لا أستطيع أن أفهم ماذا حل بك!».

قلت:

«من المؤكد أنك تتذكر قصة سندريللا. اختارها الأمير لأن قدمها كانت أصغر قدم في المدينة. إرادته هذه كانت لتغيظ زوجة أبيها حتى الموت، وأخواتها السيئات. ألا توافقني الرأي على أن قرار الأمير، وسندريللا تأسيس عائلة كان قرار مستنداً إلى تبريرات فارغة وطفولية. مجرد قدم صغيرة. إنني أقول لك يا ميخائيل إن هذا الأمير كان أحمق. وفي منتهى الحماقة، وسندريللا كانت فتاة مخبولة. ربما بسبب ذلك فقط كانا مناسبين لبعضهما البعض، وعاشا في سعادة حتى يومهما الأخير».

«هذا كثير بالنسبة لي» تذمر ميخائيل بلهجة ساخرة وجافة.

«هذا كثير بالنسبة لي. هذا المثل الذي سقته الآن. الأدب ليس مجالي». «لا أفهم في الرموز من فضلك قولي مرة أخرى ماذا تقصدين. لكن قوليه بكلمات بسيطة إذا كان ما ستقولينه مهماً».

«لا يا ميخائيل. هذا لم يكن مهماً بحق. لا أعرف بالضبط ماذا حاولت أن أشرح. لا أعرف. كل الملابس الجديدة التي اشتريتها لأسعد بها، وماكينة الحلاقة اشتريتها لإسعادك».

«ومن قال إني غير سعيد؟» تساءل ميخائيل في هدوء. «وأنت يا حنه ألست سعيدة؟»، «ماذا حل بك يا حنه إنه ليس بمقدوري أن أفهم هذا. ماذا حل بك في كل الأيام؟».

«هناك أغنية أطفال جميلة» قلت «فيها تتساءل طفلة:

يا مهرجي الصغير.. أتريد أن ترقص معي؟ وشخص ما يجيبها: المهرج الصغير الرائع.. يرقص مع كل واحد»، «هل تعتقد يا ميخائيل أن هذه الإجابة كانت للرد على سؤال الفتاة؟».

حاول ميخائيل أن يقول شيئاً ما. غيّر رأيه. صمت. فك الطرود. وضع كل شيء في مكانه. خرج إلى غرفة مكتبه. بعد لحظات قليلة عاد، وهو متردد. قال إنني أضطره لأن يقترض من أحد الأصدقاء. ربما من قاديشمان حتى يكون لدينا ما نكفي به مصاريف الشهر، ما المغزى من وراء ذلك؟ هذا ما يحاول أن يفهمه. ما السبب؟ من المؤكد وجود سبب ما في السماء أو في الأرض. «الناس يجب أن يكونوا حذرين حين يستخدمون كلمة سبب. ألم تعلمني ذلك بنفسك يا ميخائيل منذ أقل من ست سنوات».

٢٩

خريف في القدس. تأخرت الأمطار. السماء زرقاء غامقة شبيهة بألوان البحر الهادئ. برد جاف يتسلل إلى العظام. سحب متفرقة تزحف شرقاً. في الصباح تنخفض هذه السحب، وتختلط بالضباب لتجوس بين البيوت كقافلة صامتة. تتسلل لتعتيم الأقبية ذات الأحجار المتجمدة. في الساعات الأولى من بعد ظهيرة الأمس غطى الضباب المدينة، في الخامسة أو الخامسة والربع سادت الظلمة. مصابيح الشوارع في القدس ليست كثيرة. ضوؤها أصفر خافت. في الأفنية والحواري تتدحرج أوراق الشجر المتساقطة. لافتة نعي مكتوبة بأسلوب رائع معلقة في شارعنا تقول:

«ناحوم حانون زعيم الطائفة البخارية عاد للقاء ربه عوداً حميداً بعد عمر مديد، وحافل». جميل في عيني اسم ناحوم حانون، والعود الحميد والموت.

جاء السيد قاديشمان عابثاً منفعلاً.. يتدثر بمعطف من الفرو الروسي. قال:

«قريباً ستندلع الحرب، وفي هذه المرة سنقوم باحتلال القدس، الخليل، بيت لحم ونابلس. خيراً فعل الرب بشعبنا حين منع الحكمة

عن الذين يدعون الزعامة فينا. وجعل على قلب أعدائنا غشاوة. بيده يأخذ وبيده الأخرى يعيد. ما لم تستطع تحقيقه حكمة اليهود يتحقق بفضل غباء العرب: قريباً ستندلع حرب كبيرة وستعود لنا الأماكن المقدسة».

«منذ خراب الهيكل» ردد ميخائيل الكلمات التي كان يحب ترديدها يحزقائيل والده «من يوم خراب الهيكل أعطيت النبوءة لك ولي، ولو سألتني يا سيد قاديشمان عن تقديراتي فإنني أقول لك إن الحرب القادمة لن تكون على الخليل، ولا نابلس، وإنما على غزة ورفح». قلت وأنا أضحك:

«لقد أصابكما مس من الجنون يا سيداي كلاكما»، الأفنية الصخرية مفروشة بأشواك الصنوبر الميتة. الخريف عنيد، وكثيف. الرياح تكنس الأوراق الجافة من فناء مهجور إلى فناء مهجور آخر. في الفجر تعزف رقائق التنك (الصاج) التي على الشرفات لحناً مزعجاً في حي ماكور - باروخ. حركة الزمن التجريدي تشبه فوران بللورات كيميائية في المعمل (المختبر): ناصعة البياض متلألئة وحساسة. في ليلة العاشر من أكتوبر فجراً سمعت من بعيد هدير محركات ثقيلة. كان ذلك هديراً منخفضاً، وكأنما يخنق بقوة نوعاً من الطاقة المتعاظمة. أدارت دبابات محركاتها داخل أسوار معسكر شفيلر القريب من حيفا. اهتزت الدبابات اهتزازات جامدة وهي على ظهور جنازيرها. قارنتها بكلاب ملوثة وغاضبة تسحب بشره السلاسل التي على رقابها.

والريح تشترك في اللعبة أيضاً. تدفع الريح أكياس زبالة.. تصنع منها

دوامات هوائية قذرة ثم تلقي بها على الظلف القديمة. ترفع قصاصة جديدة آخذة في الاصفرار لتخلق منها صور أشباح في الظلام.. تصل إلى مصابيح الشوارع فتجعل لها ظلالاً مريضة تتراقص. الرائحون والغادون يوقفهم عصف الريح القوي. أحياناً تتعلّق الريح بباب مهجور، تظل تغلقه وتفتحه بقوة وتخبطه في عتبة الباب حتى يتعالى من على بعد صوت زجاج يتكسر. السخان مشتعل في البيت طوال اليوم. أيضاً في الليل لا نطفئه. أصوات المذيعين في نشرات الأخبار عبر الراديو تتزايد رزانة وجدية. نوع من التراشق المرير والمستمر وشيك على الاندلاع في لحظة غضب.

في منتصف أكتوبر استدعوا صاحب محل الخضار الفارسي في حيفا السيد إلياهو موشيح للخدمة العسكرية. ابنته ليفانا تدير المحل في غيابه. وجهها أصفر، وصوتها ضعيف جداً. ليفانا فتاة خجولة، تعجبني محاولاتها المستمرة لإثارة إعجاب الناس. تقضم في ضفائرها الشقراء من شدة عصبيتها. حركتها هذه تمس شغاف قلبي. في الليل حلمت بميخائيل ستروغوف. وقف أمام عظماء من التتار حليقي الرؤوس، وتكسو وجوههم ملامح غباء قاسٍ. تحمّل تعذيبهم له في صمت، ولم يفش لهم بأسراره. كانت شفتاه مغلقتين، ورائعتين. من عينيه يتدفق فولاذ ضارب للزرقة. في الظهيرة كان لميخائيل تعليق حول أخبار الراديو: هناك قاعدة معروفة. قاعدة ـ إذا لم تكن الذاكرة قد خانته ـ واضعها هو المستشار الألماني بسمارك صاحب اليد الحديد ومفادها أنه حين يهاجمك حلف من القوات المعادية عليك أن تبحث عن أقواهم

وتضربه أولاً، وهذا ما سيحدث هذه المرة أيضاً. يتنبأ زوجي بثقة شديدة. أولاً سنخيف الأردن والعراق حتى الموت، وبعد ذلك نستدير فجأة، لنضرب مصر. أنا حملقت في زوجي كأنه يتحدث إليّ باللغة السنسكريتية[1].

(١) اللغة السنسكريتية: وهي لغة الهند الأدبية القديمة.

٣٠

موسم تساقط الأوراق في القدس

كل صباح أكنس الأوراق المتساقطة على شرفة المطبخ. أوراق أخرى تأتي لتتساقط مكان الأوراق الأولى. بين أصابعي تتحول الأوراق إلى رماد له حفيف جاف.. تتأخر الأمطار.

مرات قلائل أخطأت الظن بأن شظايا من نقاط أمطار خفيفة تتساقط أسرعت بالنزول إلى الفناء لأخذ الغسيل عن الحبل. لكن المطر لم يأت. فقط رياح باردة وعتية بعثت في ظهري قشعريرة. كنت مصابة بالبرد، وبالتهاب في حلقي. حلقي آلمني أكثر في ساعات الصباح. وأي نوع من التوتر ساد المدينة، صمت جديد مس الأشياء، في المحلات حكت الجارات أن الجيش الأردني يحفر مربض مدفعية حول القدس. طعام معلّب، شموع، ولمبات كاز تخاطفها الناس من فوق رفوف الدكاكين. أيضاً أنا اشتريت صندوقاً كبيراً من الفطير المرقوق. في حي سنهادريا أطلق الحراس نيرانهم ليلاً. في أدغال تل أزرة أخذت وحدات من المدفعية مواقعها. رأيت جنود الاحتياط وهم يفرشون شبكات التمويه في حقل خلف حديقة الحيوان التوراتية. جاءت أعز صديقاتي هاداساه لكي تحكي لي على لسان زوجها أن جلسة الحكومة استمرت حتى مطلع الفجر. وبدا الوزراء لدى خروجهم قلقين. في الليالي تصفر قطارات

محملة بالجنود. بمقهى اللنبي الواقع في شارع الملك جورج رأيت أربعة ضباط فرنسيين وسيمي الشكل. وضعوا على رؤوسهم قبعات بارزة الحواف، وشرائط أرجوانية تلمع على أكتافهم.. فقط في السينما رأيت مثل هذا المنظر من قبل.

وفي شارع دافيد يالين ولدى عودتي من التسوق مثقلة الكاهل محملة بسلال المشتريات مررت على ثلاثة جنود من سلاح المظلات يرتدون زي ميدان منقوشاً، وتدلت على أكتافهم رشاشات. كانوا ينتظرون في محطة أوتوبيس رقم ١٥. أحدهم أسمر ونحيف ناداني قائلاً: «يا لعبة» وأيضاً زميلاه انضما إلى ضحكته. وجدت متعة بالغة في ضحكهم.

مع صبيحة يوم الأربعاء غمرت البيت موجة باردة. مثل هذا البرد والشتاء لم يحلا بعد. قمت حافية لتغطية يائير. استمتعت بالبرد في قدماي. ميخائيل أصدر شخيراً قوياً، وهو يغط في نومه. الطاولة والكراسي الفوتيه كانت كتلاً من الظلال. وقفت في النافذة. تذكرت بتلذذ مرض الدفتيريا الذي أصابني حين كنت طفلة في التاسعة من عمري. القوة التي تأمر الأحلام بأن تنتقل معي إلى ما وراء خط اليقظة. السيادة الباردة. لعبة الأشكال في الفضاء التي تتراوح بين رمادي فاتح، ورمادي غامق. وقفت في النافذة أرتجف من الفرح والأمل. من خلف ظلف النافذة رأيت كيف تتلفع الشمس بسحب حمراء.. تناضل لاختراق ضباب كثيف بسهم لامع. وفي لحظات معدودة أشرقت الشمس. أضاءت قمم الأشجار ولمعت أسطح الصفيح على الشرفات الخلفية. كنت مسحورة. أصابني الحنين.

بقميص نومي وقفت حافية أستند بجبهتي على زجاج النافذة، على جزء من النافذة أينعت أزهار حقيقية. صقيع، وندى، وبخار متجمد، امرأة بروبها المنزلي خرجت باكراً، لإفراغ مستوعب قمامتها. شعرها أشعث كشعري.

رن جرس المنبه.

رفع ميخائيل البطانية. كانت رموشه ملتصقة ببعضها. بدا وجهه مجعداً. تحدث إلى نفسه بصوت مبحوح: «كم الجو بارد؟ يوم فظيع». بعد ذلك انفتحت عيناه، فلاحظني واندهش:

«هل خرجت عن عقلك يا حنه؟».

أدرت وجهي ناحيته لكني لم أستطع الحديث. مرة أخرى فقدت صوتي. حاولت أن أقول شيئاً ما وبدلاً من الكلمات خرج من حلقي ألم شديد أخذني ميخائيل من ذراعي، وجذبني بقوة إلى السرير.

«هل أصابك الجنون يا حنه؟ أعاد ميخائيل في رعب «أنت لا تزالين مريضة». لمس بشفتين رقيقتين جبهتي وأضاف:

«يداك باردتان، وجبينك ملتهب. أنت مريضة يا حنه». تحت الأغطية ظللت أرتجف بشدة. لكن استعرت في داخلي أيضاً سعادة بالغة. لم أشعر بمثلها منذ أن كنت طفلة. سرت داخلي قشعريرة السعادة. ضحكت، وضحكت من دون أن يصدر مني صوت. ارتدى ميخائيل ملابسه. أحكم رباط عنقه ذا المربعات، وبمشبك صغير ثبته. خرج إلى المطبخ لتسخين كأس من الشاي بالحليب. حلاه بملعقتين من العسل. لم أستطع البلع. حريق اندلع في حلقي. كان ذلك ألماً من نوع جديد. سعدت بالألم الجديد كلما تزايد. وضع ميخائيل الكأس على كرسي

بجانب سريري. ضحكت شفتاي له. في صميم قلبي شبهت نفسي بسنجاب يقذف أكواز الصنوبر على دب قذر. الألم الجديد ملكي، وأنا خبرته من قبل.

وقف ميخائيل يبحلق، رفع صوت المذياع حتى يستطيع سماع موجز الأنباء من ضجيج ماكينة الحلاقة الكهربائية. بعد ذلك نظف الماكينة بنفخة واهنة، وأغلق المذياع. هبط إلى الصيدلية ليتصل هاتفياً بطبيبنا الدكتور أورباخ من شارع الفانداري. لدى عودته أسرع في مساعدة يائير بارتداء ملابسه وإرساله إلى روضة الأطفال. كانت حركاته دقيقة كحركات جندي مدرب. وهكذا قال:

«برد فظيع في الخارج. لا تغادري فراشك. اتصلت هاتفياً بهاداساه أيضاً. وهي وعدت بأن ترسل لنا مدبرة منزلها لكي تعتني بك، وتطبخ مكانك. في التاسعة، أو في التاسعة والربع، وعد الدكتور أورباخ بأن يأتي يا حنه! كنت أرجو منك أن تقومي بمحاولة أخرى لشرب الحليب الساخن». متوتر كنادل صغير وقف زوجي أمامي والكأس ثابتة في كفه. رفضت الكأس وأخذت بيد ميخائيل الخالية. قبلت أصابعه. لم أرد بعد أن أكتم الضحك الداخلي. اقترح عليّ ميخائيل ابتلاع قرص أسبرين. رفضت بهز رأسي. هو هز كتفيه. كم كانت مدروسة حركته هذه، وها هو قد لف رقبته بشال، ووضع القبعة فوق رأسه. لدى خروجه قال:

«تذكري يا حنة. محظور عليك القيام قبل وصول الدكتور أورباخ. سأحاول العودة مبكراً. عليك أن تظلي هادئة. لقد أصابك البرد يا حنه. وهذا كل ما في الأمر. لا أكثر. هذه الشقة باردة. سأقرب المدفأة من السرير». وما أن أغلق زوجي الباب وراءه حتى قفزت حافية من الفراش

وعدت للوقوف بجانب النافذة. كنت طفلة متوحشة ومتمردة. كسكرانة حاولت بكل ما لدى أحبالي الصوتية من قوة أن أصرخ، وأغني. امتزج الألم والسعادة، كان الألم نشوان، وطيّب المذاق. ملأت رئتي بالهواء. شهقت، ولولت، وقلدت أصوات الحيوانات والطيور كما تعودت أنا وعمانوئيل أن نمرح بذلك في طفولتنا. لكن حتى الشهقة لن أستطيع سماعها. كان ذلك سحراً حقيقياً. فقط غمرتني السعادة والألم. كانت فيضانات قوية. كأني أغرق، وأنجرف. كنت باردة، وجبهتي مشتعلة. عارية وحافية وقفت في الحمام كطفلة في يوم خماسيني حار. فتحت كل الحنفيات على الآخر. تمرغت في المياه الباردة. ونثرت بكفي الماء في كل اتجاه. على البلاط القيشاني، على الجدران، على السقف، على الفوط، وعلى روب الحمام الخاص بميخائيل.. والمعلّق على مسمار خلف الباب. ملأت فمي بالماء.. ثم سكبتها، وتمضمضت المرة تلو الأخرى في وجهي المعكوس في المرآة. أصبح جلدي أزرق من البرد. انتشر الألم الدافئ خلف رقبتي، وهبط على امتداد العمود الفقري.. تصلبت حلمتا ثدييّ. تحجرت أصابع القدمين. الذي اشتعل هو رأسي فقط. لم أتوقف عن الغناء من دون أن أصدر أي صوت. توق شديد ساد في العمق.. في تجاويف جسمي.. في الأماكن المختفية المتوارية، وفي التفاصيل الدقيقة جداً.. التي هي ملكي، وهو كان متدفقاً فياضاً، زاخراً ونابضاً، وكان حياً. ركضت كامرأة بلهاء في الغرف.. في المطبخ، وفي الصالة، والمياه تساقطت، وتساقطت. مبتلة وعارية سقطت على فراشي. وقبلت بذراعي، وبركبتي المخدات والفراش. خلق كثيرون في منتهى الود مدوا أيادي ناعمة ولمسوني. حين لمست أصابعهم جلدي غمرتني موجة مضطربة، ومشتعلة، طوق التوأمان الصامتان ذراعي لكي

يربطانهما خلف ظهري. انحنى الشاعر شاؤول ليدور بشاربه، وبأنفاسه الدافئة.. أيضاً سائق التاكسي الوسيم رحاميم رحيموف جاء، وطوق خاصرتي كأنه إنسان همجي متوحش. في غمرة الرقص رفع جسدي عالياً في الهواء. الموسيقى البعيدة كانت مدوية وصاخبة. أياد ضغطت على الجسد. دلكت. دقت. نقبت. ضحكت وصرخت بكل قوتي من دون صوت. التف جنود بملابس ميدان منقطة وأغلقوا المنطقة. انبعث منهم عرق ذكوري نفاذ. كنت مليكتهم جميعاً. كنت إيفون أوزلاي. إيفون أوزلاي، لست حنه غونين. كنت باردة فياضة. أناس يولدون في المياه وينغمرون برداً، وعنفاً. في الهضاب، في الأودية. في المنحدرات الثلجية الرحيبة، وبين النجوم أناس يولدون للثلج. أن أكون وألا أستريح.. أن أصرخ، ولا أهمس.. أن ألمس، ولا أنظر.. أن أفيض، ولا أشتاق. أنا من الثلج. بشرتي من الثلج. ورعاياي هم أيضاً من الثلج! جميعهم. تحدثت الأميرة. ستتعرض مدينة دانزيغ لعاصفة ثلجية هوجاء. ستضرب المدينة كلها عاصفة ثلجية رائقة، وبللورية، وعنيفة. انطرحوا أرضاً أيها الرعايا المتمردون. انطرحوا أرضاً. أفركوا جباهكم في الثلج. ستصيرون جميعاً من البيض. منذ اليوم ستصيرون بيضاً لأنني أميرة بيضاء. لونكم أبيض ورائق، وباردون حتى لا ننهار جميعاً. تكون المدينة كلها بلورات.. بلورات، لا ورقة تتساقط، لا طائر يحلق، ولا امرأة ترتجف، هكذا تحدثت.

كان ليلاً في مدينة دانزيغ. تل أزرة مع أحراجها غرقت في الثلج. واد هائل فرش على كل هضبة يهودا. أغريفس ـ الشيخ بدر ـ رحافيا. بيت هاكيوم كيريات شموئيل ـ تالبيوت حتى منحدرات قرية ليفتا. كان هذا الوادي من الضباب، والعتمة. هذه كانت دانزيغ الخاصة بي. جزيرة

صغيرة طفت في منتصف البركة. الواقعة في نهاية شارع مانيلا. فوق الجزيرة انتصب تمثال الأميرة، وأنا كنت داخل حجر التمثال.

لكن بين جدران معسكر شنيلر حيكت مؤامرة سرية. تمرد مكبوت يحدث هناك. رفعت المدمرتان السوداوان دراغون وتايغريس مرساتيهما. أشرعتهما الخفاقة مخرت عباب الكتل الثلجية. وقف في برج المراقبة بحار ملفع.. على رأس الصاري المترنح. كان جسمه من الثلج تماماً مثل المندوب السامي للثلج الذي قام بنحته كلٌ من خليل، حنه، وعزيز، في الشتاء الثلجي الرهيب عام ١٩٤١. دبابات منخفضة، وعريضة هدرت، ودهست في الظلام على الأرض الثلجية في منخفض شارع جيئولاه باتجاه حي ميثاه شعاريم. على مداخل معسكر شنيلر تآمرت همساً مجموعة من ضباط الميدان يرتدون معاطف خشنة ضد الريح. أنا لم أصدر أوامر بهذا التحرك. أوامري كانت بالتجمد. تلك كانت مؤامرة، في همس مطبق انتقلت أوامر خطيرة. في الهواء الأسود تطاير ثلج خفيف. سريعة وحادة انطلقت طلقات نارية وعلى أطراف شوارب ضخمة تجمعت قطرات من الثلج. ثقيلة، ودقيقة التصويب تسللت الدبابات المنخفضة في أحياء مدينتي النائمة. كنت وحيدة. حانت ساعة التوأمين للتسلل إلى الملعب الروسي. جاءا صامتين حافيين. عبرا المرحلة الأخيرة من طريقهما في زحف أخرس. ليغتالا من الخلف بالسكين رجال الحرس الذين سلمتهم أمر السجن. تحرر كل حثالة المدينة، وهربت مع صرخات شريرة انبعثت من حلوقهم. غمر الأزقة فيضان. شيء ما يضمر شراً... يتنفس نفساً سقيماً.

في الوقت ذاته تحطمت آخر جيوب للمقاومة. احتلوا الأماكن

الاستراتيجية الحساسة. أسروا ستروغوف المخلص. لكن في الضواحي المتطرفة وهن التمرد. اندفع جنود أفظاظ وسكارى، من الخونة ومن المخلصين.. إلى داخل مساكن المواطنين والتجار. كانت عيون الجنود مغسولة بالدماء. أيديهم ذات القفازات الجلدية امتدت للنساء وللسلب والنهب. سقطت المدينة في يد قوات وضيعة. في قبو دار الإذاعة بشارع مليساندا سجنوا الشاعر شاؤول. عذبته عناصر سافلة. لم أستطع التحمل. بكيت.

مدفعية متحركة تدافعت فوق إطارات مطاطية، وهي صامتة في اتجاه الأحياء المرتفعة. رأيت متمرداً حليق الرأس يتسلق، وفجأة يغير الأعلام المرفوعة على قمة مبنى تيرا ـ سانتا. كانت خصلات شعره شعثاء. كان متمرداً غاضباً ووسيماً.

ضحكات صفر صدرت عن المسجونين المسرحين. انتشروا في أرجاء المدينة بأزياء السجن. دفع مجهولون منهم السكاكين. غمروا الأحياء لتصفية حسابات مريرة. إلى السجن دخل بدلاً منهم مثقفون ووجهاء. لا يزالون نصف نيام مذلولين ومذهولين وخائفين. يحاولون الاحتجاج باسمي. يذكرون بصلاتهم الجيدة. متمسكون بحقوقهم. حقاً كان بينهم من أخذ يتملق، ويقسم بأغلاظ الأيمان على كراهيته، وبغضه المتواصل لي. فوهات بنادق مصوبة إلى ظهورهم إما لتحفيزهم أو لإسكاتهم.

قوة أخرى وضيعة في المدينة.

الدبابات تطوق قصر الأميرة. طبقاً لمؤامرة محكمة درست تفاصيلها مسبقاً في الخفاء. إنهم يحفرون عمقاً، ندوباً في الأرض الثلجية. وقفت

الأميرة في النافذة. ونادت بأعلى صوتها على اسمي ستروغوف والكابتن نيمو، لكن صوتها ضاع منها. فقط تحركت شفتاها أوتوماتيكياً. وكأنما قصدت الترويح عن الجنود الذين يهتفون باسمها. ليس بمقدوري إدراك ما يدور بخلد ضباط حرسي الخاص. ربما ينتمون هم أيضاً للمؤامرة. ينظرون إلى ساعاتهم مرات ومرات. هل ينتظرون لحظة ما متفقاً عليها. وصل دراغون وتايغريس إلى مشارف القلعة. على مرابض عالية تدور ببطء مدافع المدمرتين القاتمة اللون. كأصابع مارد تصوب المدافع إلى نافذتي، إليّ.. أنا مريضة.. حاولت الأميرة أن تهمس. ألعاب نارية حمر بدت من الجانب الغربي من خلف جبل صهيون، من اتجاه صحراء يهودا. إنها البوادر الأولى لحفل لم يخصص على شرفها. بشغف انحنى عليها القاتلان، شفقة مليئة بالسخرية والرغبة رأت الأميرة في عيونهما، كانا كلاهما صغيرين. أسمرين، ووسيمين إلى درجة خطيرة. بهيبة وبفخار، وفي صمت طلبت أن أقف أمامهما.

لكن أيضاً جسدي خانني. بقميص النوم الرقيق زحفت الأميرة على البلاط الجليدي. كانت مكشوفة لنظراتهما المحمومة. كل منهما ضحك إلى توأمه. أسنانهما أشرقت بياضاً. قشعريرة لا تنبئ بخير ألمت ببشرتهما. كابتسامة خبيثة من صبية على منظر امرأة رفع الهواء فستانها فجأة وهي تسير في الشارع. في أرجاء المدينة تجوب سيارة مدرعة عليها مكبر للصوت. صوت واضح، وهادئ يذيع تلخيصاً لأوامر السلطة الجديدة ويحذر من محاكمات عاجلة، ومن أحكام بالإعدام رمياً بالرصاص بلا رحمة. ستطلق النار على المعارضين كالكلاب الضالة، من غير رجعة مرت أيام المجنونة أميرة الثلج. وحتى الحوت الأبيض لن يستطع الهرب. عهد جديد بدأ في المدينة.

أنا أسمع، ولا أسمع لأن أيدي القاتلين متجهتان نحوي. كلاهما يصدر فحيحاً كأنه أنين حيوان مقيد اليدين والرجلين. بريق مهزوز لمؤامرة في أعينهما. لذة الألم تتدفق أسفل ظهري حتى أخمص قدميَّ. تومض شرراً لافحاً. ترسل وخزاً مثيراً من طرف الظهر حتى طرفه الآخر. الكتفين، الرقبة، الكل. الصراخ ينفجر إلى الداخل في صمت. أصابع زوجي على وجهي تلمسه ولا تطاله. بوده لو أصغي إليه. أي امرأة تصغي مثلي. إنه يهز، ويهز كتفي. يلمس بشفتيه جبهتي. لا زلت أنتمي إلى الثلج وقد سحبتني قوات أخرى.

٣١

نحيف، ودقيق الملامح تماماً كأنه نسخة مصغرة من الخزف الصيني طبيبنا د. أورباخ من شارع الفانداري. عظام خديه بارزة، في عينيه نظرة واجمة، ودودة وعاطفية. اعتاد أثناء الفحص أن يتلو خطاباً قصيراً.

«بعد أسبوع سنشفى، ونكون أصحاء تماماً. نحن ببساطة بردنا، وتصرفنا بطريقة غير سليمة. الجسم يحاول أن يبرأ من المرض. النفس ربما هي التي تؤخر الشفاء. النفس مع الجسم ليست كسائق في السيارة. وإنما تشبه على سبيل المثال الفيتامينات في الطعام تقريباً. يا سيدة غونين! يا سيدة غونين أنت الآن أم يا سيدتي! من فضلك أن تضعي في اعتبارك أيضاً الطفل الصغير. يا سيد غونين نحن نحتاج إلى راحة تامة للجسم. للأعصاب والنفس أيضاً. هذا قبل كل شيء. من الممكن أن تعطينا أيضاً أسبرين ثلاث مرات في اليوم. للحلق العسل مفيد إلى جانب تدفئة الغرفة التي ننام فيها. يجب ألا نجادل إطلاقاً مع السيدة. بل نقول نعم. نعم. ومرة أخرى نعم. إننا نحتاج لراحة، واسترخاء نبتعد عن أمور تسبب انفعالاً، أو أي توتر نفسي. لنتحدث قليلاً جداً، ونستخدم فقط تعبيرات ضرورية. تعبيرات محايدة، نحن لسنا هادئين. إطلاقاً لسنا هادئين. من الممكن استدعائي فوراً بالهاتف لو حدثت أية مضاعفات. لكن لو حدثت بوادر أزمة هستيرية يجب أن نصمت، وأن ننتظر في

صبر. وألا نساعد على نشوب المواقف الدرامية. الجمهور المنفعل يقتل الدراما.. كما أن المضادات الحيوية تقتل الفيروس. الهدوء التام ضرورة. هدوء داخلي. أتمنى لك تحسناً سريعاً (من فضلك).

«هادئة» أيضاً أنا بذلت قصارى جهدي لكي أهمس: «الليلة هادئة لكليكما». وضع ميخائيل أصبعه على فمه: «ممنوع الكلام. لا تجهدي أوتارك الصوتية». أطعم الطفل، ووضعه لينام. بعد ذلك عاد لحجرتنا. فتح المذياع. حكت المذيعة عن الإنذار الذي أرسله رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. الرئيس يطلب من كل الجوانب مراعاة ضبط النفس، وإبداء حسن النيات، وتجنب الأحداث المثيرة. أنباء غير مؤكدة.. غير موثوق في صحتها حول دخول قوات عراقية لحدود مملكة الأردن. مراقب سياسي يبدي تحفظاً. الحكومة تدعو لليقظة وضبط النفس. المحللون العسكريون مترددون. اجتمعت الحكومة الفرنسية مرتين برئاسة غي ـ موليه. انتحرت ممثلة مشهورة. في القدس متوقع أيضاً ليلة قارصة البرودة. قال ميخائيل:

«أيضاً ستأتي إلينا غداً سيمحاه مدبرة منزل هاداساه، وأنا سآخذ يوماً إجازة. سأتحدث إليك أنا.. أما أنت يا حنه فلا تجيبينني لأن الحديث محظور عليك».

«ليس صعباً يا ميخائيل لا يؤلمني». همست.

قام ميخائيل من على الكرسي، وجاء للجلوس على طرف سريري. رفع طرف البطانية بحذر. أيضاً الملاءة سحبها قليلاً.

جلس على الفراش. حرك رأسه عدة مرات من فوق لتحت. كأنه في النهاية نجح في أن يحل في ذهنه نوعاً من معادلة ذهنية معقدة.

والآن هو يعود، ويراجع حساباته. توقف قليلاً. تفحصني بعد ذلك. غطى وجهه بكف يده. وكأنه يفكر بصوت عال أكثر من أنه يتحدث إليّ. قال في النهاية:

«فزعت جداً يا حنه حين عدت إلى البيت ظهراً، ووجدتك على هذه الحال».

وهو يتحدث أخذت عيونه ترمش، وكأنه يصيب نفسه بضرر حين يقول هذه الكلمات. نهض. فردّ الملاءة، ووضع البطانية. أضاء نور مصباح السرير، وأطفأ المصباح الكبير الذي في السقف. أخذ يدي بيده. ضبط عقارب ساعة يدي لأن المنبه توقف هذا الصباح، وضبط عقارب المنبه.

كانت أصابعه دافئة بأظافر عريضة. في داخل أصابعه بدت رقائق من اللحم وأعصاب، وعضلات عظام، وأوعية دموية. حين كنت طالبة آداب كان مفروضاً عليّ أن أحفظ عن ظهر قلب قصيدة لابن جبيرول. مكتوب فيها أننا مخلوقون من أخلاط متعفنة.. كم رائق هو السم الكيميائي. بلورات بيض رائقة. وها هي الأرض أيضاً غشاء أخضر على سطح بركان مكتوم. ضممت بين كفي أصابع زوجي. هذا الصنيع جعل ميخائيل يفرش على وجهه ابتسامة، وكأنه كان يطلب غفراني. وقد حظي به. بكيت. مسح ميخائيل على خدي. عض شفتيه. اختار الصمت. بحركة شبيهة تعوّد أن يمسح على رأس ابنه يائير. هذه المقارنة أحزنتني لسبب لا أعرف كيف أشرحه، أو ربما لا لسبب على الإطلاق. «بعد شفائك سنسافر إلى مكان بعيد». قال ميخائيل: «ربما إلى مستوطنة نوف

ـ هاريم» ربما لإيلات، أو لنهاريا. تصبحين على خير يا حنه! سأطفئ النور وسأنقل المدفأة إلى الصالة. أنا على ما يبدو ارتكبت خطأ ما، ولا أعرف ما هو. بمعنى ما الذي كان يجب أن أفعله لكي أمنع ذلك، وما الذي كان محظوراً عليّ أن أفعله لكي لا نصل إلى هذه الحالة. في حولون بالمدرسة الابتدائية كان لي مدرس للألعاب الرياضية اسمه يحيعام بيليد. كان دائماً يدعوني باسم «أحمق جانيتس» لأن ردود فعلي الجسمانية كانت بطيئة للغاية. كنت متفوقاً جداً في الرياضيات، وفي اللغة الإنكليزية. وأحمق جانيتس. «في الألعاب الرياضية لدى كل إنسان جوانب قوة، وجوانب ضعف. كم هذا سخيف. فهو أيضاً ليس على صلة بالموضوع. أردت أن أقول لك يا حنه إنني من جانبي سعيد لأنني تزوجتك، وليس واحدة أخرى. وأيضاً أبذل قصارى جهدي لإرضائك بقدر طاقتي. من فضلك لا تخيفيني مرة أخرى إطلاقاً.. كما فعلت اليوم حين عدت ظهراً، ووجدتك على هذه الحالة. من فضلك يا حنه! في النهاية أنا لست مصبوباً من الحديد. مرة أخرى قلت كلاماً سخيفاً. ليلة هادئة. غداً سآخذ صرة الغسيل إلى محل غسيل «كيشيت». لو احتجت أمراً ما أثناء الليل لا ترفعي صوتك حتى لا تؤذي الحلق، تستطيعين ببساطة أن تدقي على الحائط وأنا سأجلس في غرفة المكتب، وسأسمع وآتيك فوراً. هنا على الكرسي أعددت ترمساً مليئاً بالشاي الساخن. وهنا أيضاً حبوب منومة. استخدميها فقط في حالة إذا لم تتمكني بأي صورة من الإغفاء من دونها. من الأفضل جداً أن تنامي من دونها. أطلب ذلك منك. ليس على فترات قريبة أتقدم منك بطلب. والآن للمرة الثالثة. كم أصبحت مزعجاً فجأة. «تصبحين على خير يا حنه!».

في صبيحة اليوم التالية سأل يائير:

«يا ماما هل صحيح لو أن بابا كان ملكاً كنت سأصير أنا دوقاً».

«لو كان للجدة جناحان!» أهمس أنا بابتسامة واهنة. «لأصحبت الجدة نسراً في السماء».

سكت الطفل. ربما يتصور في ذهنه المثل الذي سقته. يحوله إلى لغة مناظر. يرفض الصور. أخيراً يحدد في هدوء: «لا الجدة بأجنحة تبقى جدة، ولا تصير نسراً. كلام غامض. كلام غامض أنت تختلقين أشياء من دون تفكير بها، كما حكيت لي ذات مرة في قصة ذات القبعة الحمراء بأنهم أخرجوا الجدة من بطن الذئب. لم يكن بطن الذئب مخزناً. والذئاب تمضغ عندما تفترس. كل شيء لديك ممكن. بابا يفكر في أقواله ولا يتحدث عن مجرد أفكار. دائماً من العقل».

ميخائيل ينادي من خلف صرير الغلاية. وهي على سخان الغاز:

«اذهب من فضلك للمطبخ. اجلس لتناول الطعام. أمك مريضة. توقف عن الإزعاج واخجل من نفسك! ها قد حذرتك».

مدبرة المنزل سيمحاه التي تعمل لدى هاداساه نشرت فراش السرير على النافذة لتهويته. أنا جلست أثناء ذلك على الكرسي منكوشة الشعر، نزل ميخائيل إلى البقال لشراء خبز وجبن وزيتون ولبن (زبادي) من ورقة أعطيتها إياه. أخذ اليوم إجازة من عمله. أمام المرآة في الصالة يقف يائير ينكش ناصية شعره بمشطه بعد تمشيطه ينكشه. أخيراً أخذ يحملق في المرآة، ويعطي وجهه أشكالاً مختلفة. سيمحاه تضرب على المراتب. أنظر فأرى نهراً من ذرات ذهب تتراقص على امتداد شعاع الشمس في اتجاه ركن النافذة. في داخل جسمي يسود خمول لذيذ. لا آلام، ولا

حنين. بل تفكير كسول غير مرتب في أن أشتري قريباً سجادة فارسية (عجمية) كبيرة وجميلة.

يدق جرس الباب. يفتح يائير الباب. يرفض ساعي البريد إعطاء الخطاب المسجل للطفل. لأن هناك ضرورة للتوقيع بالاستلام. في ذات الوقت يصعد ميخائيل السلالم، وسلة البقالة في يده. يأخذ من ساعي البريد أمر الاستدعاء ويوقع بالاستلام بالقلم الرصاص. لدى دخوله الحجرة كان وجهه جاداً، صارماً، ومبتهجاً، متى يفقد هذا الرجل توازنه، ولو مرة واحدة.. لو أراه مذهولاً مرة واحدة يصرخ مرحاً، متوحشاً.

بكلمات منمقة يشرح لي ميخائيل أن أي حرب لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاثة أسابيع، والأمر يتعلق بحرب محلية بالطبع. لقد تغير الزمن. عام ١٩٤٨ لن يتكرر. التوازن بين القوى الكبرى غير ثابت ومهزوز. الآن الأمريكيون ذاهبون إلى صناديق الاقتراع، والروس متورطون في المجر، تهيأت فرصة خاطفة. لا. على أية حال لن تكون هذه حرباً طويلة. وعلى أية حال أنا أخدم في سلاح الإشارة. لست طياراً، ولست مظلياً، ولهذا ما معنى الدموع. سيعود بعد أيام معدودة، وسيحضر لي معه هدية فنجان قهوة عربي أصيل. إنها نكتة فلماذا أبكي؟ بعد عودته سنخرج للتنزه.. كما وعدني نزور الجليل الأعلى أو إيلات. هل أنوي أن أعلن الحداد عليه وأندبه؟

وهكذا ببسامة سيسافر ويعود. ربما هو مخطئ في كل توقعاته. ربما تكون معه مناورة عسكرية كبيرة وليست حرباً. لو حدث ذلك سيرسل لي خطابات من الطريق. ولا مرة واحدة يا حنه واتتنا فرصة تبادل

الخطابات. حقاً إنه لا يريد تخييب ظنوني، ومن الأفضل أن يقول لي مسبقاً إنه ليس ممتازاً في كتابة الخطابات. الآن، وفوراً سيرتدي، وسيجمع متعلّقاته العسكرية (حقيبته). هل يتلفن لمستوطنة نوف ـ هاريم لكي يطلب من أمي أن تأتي وتمكث هنا حتى يوم رجوعه. كم هو غريب ذلك الشعور الذي ينتابه وهو في الزي الكاكي. إطلاقاً لم يزد وزنه أو حجمه. «هل تتذكرين يا حنه منظر المرحوم أبي في بدلة الحرس التي ارتداها فوق بيجامته حين لعب مع يائير؟» هذا التسرع لأسفه البالغ. عليه أن يطلب معذرتي. بالطبع محظور عليه أن يخوض في هذه الذكرى الآن «خاصة». وها هو بغبائه قد آذى مشاعرنا نحن الاثنين. ممنوع يا حنه أن نبحث عن رموز في كل كلمة. الحديث يبقى في جوهره حديثاً. كلمات لا أكثر. هنا في هذا الدرج يترك لي مائة ليرة. وهنا في ورقة تحت المزهرية كتب رقمه العسكري، ورقم وحدته. فواتير المياه، والكهرباء والغاز دفعها في بداية الشهر. الحرب ستكون قصيرة للغاية. بوده أن يقول: «هكذا يقتضي المنطق السياسي». «ها هم الأمريكيون.. ليس مهماً الآن. لا تنظري لي يا حنه بمثل هاتين العينين. إنك ستصعبين الأمر على نفسك. وعلى سيمحاه مدبرة منزل هاداساه أن تعمل في بيتنا حتى عودتي».

«سأتصل بهاداساه تلفونياً. وسأتصل أيضاً بسارة زلدين. مرة أخرى تنظرين لي هكذا. لا دخل لي في ذلك يا حنه! وأنا لست طياراً، ولا مظلياً. أين سترتي العسكرية؟ شكراً. حقاً. سآخذ أيضاً شالاً. الليالي باردة. قولي من فضلك الحقيقة يا حنه! كيف أبدو في هذا الزي؟ ألا أبدو كأستاذ جامعي في حفلة تنكرية؟ الأحمق جانيتس عريف في سلاح الإشارة. إني أمزح يا حنه! بدلاً من أن تضحكي تبكين. لا تعاودي

البكاء. فأنا لست مسافراً لتمضية وقت ممتع في إجازة. لا تبكي. إنك تؤلمينني بلا داع. أنا.. أنا سأفكر فيكما. سأكتب رسائل لو كانت هناك ترتيبات بريدية. سأكون حذراً وحريصاً. وأيضاً أنت أليس كذلك يا حنه! ليس ملائماً أن نتحدث الآن، وفي هذه اللحظة بالذات عن المشاعر. ما المغزى من التصريحات العاطفية؟ فهي تسبب آلاماً فقط. وأنا.. لست طياراً، ولا مظلياً. قلت ذلك لعدة مرات. كان بودي أن أعود لأجدك مرحة، وسليمة. أريد أن آمل ألا تفكري بأفكار سلبية عني في الوقت الذي أكون فيه بعيداً عن البيت. أنا أيضاً سأفكر فيك تفكيراً إيجابياً، وهكذا لا نفترق أبداً. وأيضاً... نعم».

وكأنني فقط مجرد فكرة في فؤاده كيف يستطيع أي شخص أن يأمل في ألا يكون أكثر من فكرة في قلب آخر. إنني حقيقة واقعة يا ميخائيل! ولست مجرد فكرة في خاطرك؟

٣٢

تغسل سيمحاه مدبرة منزل هاداساه الأواني في المطبخ. تصدح لنفسها بأغانٍ لشوشانة دماري:

«أنا غزالة عتق. نجم يسطع في الليل

وثعلب في الوادي ينوح. أيها العائد أنا مشتاق إليك وفي انتظارك».

أنا أرقد في سريري. بيدي رواية لجون شتاينبيك، والتي أحضرتها لي بالأمس أعز صديقاتي هاداساه لدى زيارتها لي. لا أقرأ. قدماي الباردتان ملتصقتان إلى قربة مطاطية مليئة بالمياه الساخنة. أنا صامتة ومحملقة العينين. ذهب يائير لروضة الأطفال. من ميخائيل لم يصل، ولا يمكن أن يصل أي نبأ بعد. عربة بائع الكيروسين تمر من شارعنا، وجرسها يرن، ويرن بيد العربجي. القدس يقظة.

ذبابة تتخبط في زجاج النافذة. ذبابة ليست علامة ولا إشارة، ذبابة ليست ظمأى. ألاحظ أن الكتاب الذي بيدي بال. غلافه ملصوق بشريط لاصق شفاف. المزهرية واقفة في مكانها. تحتها موضوعة الورقة التي سجل عليها ميخائيل رقمه العسكري ورقم وحدته. الغواصة نوتيليوس هادئة في العمق من تحت الغطاء الثلجي، بمضيق بيرنغ. يجلس السيد

جليك في حانوته يقرأ في صحيفة هاتسوفيه. في المدينة رياح خريفية باردة، وأنا مسترخية.

في التاسعة أذاع المذياع البيان التالي:

توغلت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي هذا المساء إلى داخل صحراء سيناء، واحتلت الكونتيلا، ورأس النقب وسيطرت على مواقع بالقرب من نخل على بعد ٦٠ كيلو متراً شرق قناة السويس. يشرح محلل عسكري، ومن وجهة النظر السياسية هناك استفزازات متكررة ومستمرة. انتهاك صارخ لحق الملاحة. أما الجانب الأخلاقي. إرهاب وتخريب. نساء وأطفال لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. توتر متزايد. مواطنون أبرياء. الرأي العام المستنير في البلاد وفي العالم. عمل دفاعي في الأصل. التمسك بضبط النفس. عدم مغادرة البيوت. يجب تعتيم الأضواء. والتخزين. ويجب الإصغاء للأوامر لا للإشاعات، ولا إفشاء الأسرار. الدولة كلها جبهة والشعب كله جيش. في حالة سماع صفارة إنذار متقطعة. الأحداث تتطور حتى الآن طبقاً للخطة الموضوعة سلفاً.

في التاسع والربع.

اتفاقية وقف إطلاق النار ماتت ودفنت، ولن تعود للحياة مرة أخرى، قواتنا تسيطر. المقاومة تضعف، وتتحطم. حتى العاشرة والنصف بث المذياع أغاني وطنية كانت مشهورة في أيام صباي:

«من دان حتى بئر السبع لن ننساك، صدقيني سيأتي اليوم».

لماذا أصدق؟ وإذا لم تنسوا! فماذا في ذلك؟

في العاشرة والنصف.

صحراء سيناء هي المهد التاريخي للأمة الإسرائيلية.

على عكس القدس. أبذل قصارى جهدي لأن أكون فخورة ومثيرة. هل يا ترى تذكر ميخائيل أن يأخذ معه حبوب قرحة المعدة. إنه مرتب، ونظيف دائماً، وهكذا خمس سنين انقضت في رقص، وفي السادسة سلام أيتها الحمامة البريئة.

هناك حارة مهجورة في طرف القدس في حي بيت إسرائيل الجديد. وفيها الآن هواء آخر. فهي حارة مرصوفة بالحجارة. الحجارة المرصوفة متكسرة لكنها تلمع وكأنها مصقولة. قناطر ثقيلة تفصل بين الحارة وبين السحب المنخفضة. إنها حارة مغلقة. هناك الزمن يتكثف ويتراكم في شقوق الصخور. حارس خامل. مدني عجوز جند للدفاع المدني. يقف مستنداً إلى الحائط. بيوت منهارة، جرس بعيد له أصداء مكتومة من الجبال تهبط ريح. إنها تتكسر، وتتلوى على المداخل. في تدافعها على الحارة. تتلامس مع ظلف الحديد، والبوابات الحديد المقفولة بأقفال صدئة. فتى متدين يقف في النافذة. خصلات شعره مدلاة على وجنتيه الشاحبتين. توجد تفاحة في يد الفتى. هو ينظر إلى الطيور التي على قمة شجر الصفصاف ـ الحور الرجراج ـ الولد يتحرك. الحارس العجوز يحاول أن يجذب انتباه الطفل من وراء زجاج النافذة. يضحك الطفل من شدة الوحدة. شيء ما لا يبشر بخير يحدث. هذا طفلي. ضوء أزرق رمادي اعتقلته الصفصافة في خصائلها، الجبال تبتعد، وهنا سكون.. هدوء وهمس وألسنة، أجراس تدفعها الرياح. السكون حل على الطيور، وعلى قطط الشوارع. مركبات، حافلات كبيرة تأتي. تمر بعيداً. لو كنت أنا حجراً صلباً وملقى، باردة وحاضرة. وربما أخطأ المندوب السامي البريطاني أيضاً. في قصر المندوب بجنوب شرقي القدس على قمة (النصيحة الشريرة) استمرت جلسة سرية حتى بزوغ أول ضوء يوم

شاحب يشرق في النوافذ. لكن الكهرباء تستمر في الإضاءة كل ساعتين تتغير مواصفات الشفرة والحرس متعب وعصبي.

رجع ميخائيل ستروغوف يحمل نبأ سرياً مفاده أن تعذيباً وسجناً فرضا ليلاً على بعثة المندوب السامي. إنه رجل قوي، وبارد ميخائيل ستروغوف، وهو محاط بمتوحشين حمقى. بريق سكاكين يبهر.

ضحك ينساب. ليس بكلمات. تماماً مثل عزيز مع يهودا غوتليب من شارع أوسيكين. يتصارعان في الأرض الفضاء أنا الحكم وأنا الجائزة. تلتوي قسمات وجهيهما من الألم. عيونهما تقطر كراهية متكررة. تتجه نحو البطن لأنها رخوة. يرتعدان غضباً. يرفسان. يعضّان بعضهما البعض. هرب أحدهما، أثناء محاولة الهرب يستدير ليطارد ويلاحق، يحمل حجراً ثقيلاً، يقذفه ويخطئ بمسافة صغيرة جداً. خلسة يبصق عليه بغضب حانق. على منطقة شائكة مليئة بالأسلاك الملفوفة الصدئة يتدحرج كلاهما. يتصارعان. بِصَرِّ الأسنان يتجاذبان. ينزفان. يتلمسان جذب الرقبة والعورة. يتلاعنان بشفاه مضمومة. إلى حيث تخور القوى. يتدافعان فجأة كرجل واحد. للحظة يمسك أحدهما بذراع الآخر كأنهما عاشقان. كالنسيم المتعانق بالأحضان. أيضاً يلهث عزيز ويهودا غوتليب في عناقهما. في اللحظة القادمة يستعيدان طاقة سوداء تنتابهما فجأة.

جمجمة تضرب في جمجمة. ظفر في بؤبؤ عين. قبضة في ذقن. ركبة في أعلى الفخذ. ظهراهما يتمزقان على أشواك السلك الصدئ. الشفتان مضمومتان لا صوت بكاء أو عويل غير مسموع. صامتان، وصامتان. إلا أنهما يبكيان من غير صوت. يبكيان كشخص واحد.

وجناتهما مبتلة. أنا الحكم، وأنا الجائزة. أضحك بوحشية متعطشة لرؤية الدماء. لسماع صرخة مدوية. في عيمتي - رفائيم يصفر قطار بضائع. العاصفة والهياج يذوبان في هدوء.

والدموع.

متأخر جداً يأتي المطر. مطر لا كلمات سيهطل على المدرعات البريطانية في آخر الزقاق في الليل مخربون يهربون. يتسللون إلى قبة في حي مصرارة. يتسللون ويندفعون إلى قرب حائط حجري. يتسللون، ويطفئون المصباح الوحيد في الشارع. يوصلون فتيلاً إلى الصمامة الكهربائية، ولا تزال أداة التفجير حديداً متجمداً. تندلع شرارة كهربائية، والبركان مختبئ عميقاً تحت سطح طبقات من التراب، وصخور الأردواز والغرانيت. برد. ستهطل الأمطار.

سيمر الضباب رقيقاً على حرج الصلبة. على جبل المشاهد يصرخ طائر. ستهب رياح عاصفة لتدمير قمم أشجار الصنوبر. الأرض لن تصبر، ولن تصبر. إلى الشرق تمتد الصحراء. في طرف الطالبية ترى أماكن محظوراً على المطر الوصول إليها. جبال مؤاب. البحر الميت المنخفض. مطر منهمر. يسيل لتدمير أرنونا مقابل القرية الرمادية صور - باجر. مآذن المساجد تصطدم بالعواصف الهوجاء، وفي بيت لحم سيغلق اللاعبون على أنفسهم في داخل المقهى. سيفتحون طاولات النرد، ومن كل اتجاه ستنساب الأنغام من إذاعة عمان. مستغرقون، وصامتون يقبع اللاعبون. عباءات، وشوارب كثة. قهوة مغلية. دخان. توأمان في زي كوماندو مسلحان. رشاشات. بعد المطر تنقشع الغيوم عن برودة صافية. بلورات رقيقة، وحادة. الباعة الجوالون العجائز في حي

محانية يهودا يصطفون، وهم يرتعدون تحت سواتر الشرفات. في جبال أبو غوش، وفي كيريات يعاريم (الأحراج) في نوه إيلان. في طيرات ياعر أحراج كثيفة. أشجار صنوبر متداخلة. يلفها ضباب أبيض. هناك يختبئ بدو رحل هاربون من العدالة. في صمت يمشون مجهدين على ممرات غارقة بالمياه. أناس هاربون.. بنفوس تشعر بمرارة يتوهون، ويتوهون في المطر. السماء منخفضة فوق البحر الشمالي. دراغون وتايغريس تتجولان صامتتين بين كتل ثلجية طافية. تطوفان في مطاردة وراء مارد البحر المخيف موبي ديك. نوتيليوس على شاشات الرادار. أهوى أهوى. سيصرخ ملاح ملثم أسود على رأس برج المراقبة. ياهوه! يا كابتن جسم غريب ظهر في الضباب ستة أميال شرقاً على أربع عقدات بحرية. درجتان شمال النجم القطبي الشمالي. يذيع عامل اللاسلكي بصوت رنان إلى قيادة الحلفاء في جهاز إرسال بعيد تحت الماء. أيضاً فلسطين سيسودها الظلام، لأن أمطاراً وضباباً على جبال الجليل حتى الطالبية حتى جبل أوغستا ـ فيكتوريا، حتى حدود الصحراء التي يعجز المطر عن أن يجتازها إلى الأبد، وبأية وسيلة.. حتى قصر المندوب السامي.

بمفرده في النافذة المظلمة يقف المندوب السامي البريطاني. رجل هزيل. يداه مضمومتان إلى خلف ظهره. غليونه بين أسنانه. عيناه زرقاوان. حائرتان. يصب في أقداح شراباً شفافاً. وحاراً.. كأساً لميخائيل ستروغوف. قصير، ونحيل بعث ليشق طريقه في الظلام. في أرض معادية تسيطر عليها كتائب بربرية حتى الشاطئ.. ثم في لج المياه العميقة إلى مكان بجزيرة غامضة حيث هناك يصيح، ويراقب بعينيه أفق البحر، وينتظر المهندس غولد سميث بمنظار مكبر في يده ولا يعرف اليأس.

قلنا في أنفسنا إننا وحيدون هنا على هذه الجزيرة النائية.. لكن حواسنا خدعتنا. فلسنا بمفردنا فوق هذه الجزيرة. رجل متآمر يختبئ في بطن الجبل. نحن الذين مشطنا مرتين كل زوايا الجزيرة طبقاً لخطة حذرة.. لم نقبض على الناظر إلينا في الظلام. ترتسم على وجهه ابتسامة باهتة كأنه من خلف ظهورنا قد وجد، ويخفي وجوده عنا ولا يمكن أن نشعر به. فقط آثار أقدامه في الطريق الإسفنجي تظهر أمام أعيننا مع الصباح. متربص في كمين، ومتربص في جنح الظلام.. في الضباب.. في المطر. في العاصفة.. في الأدغال الموحشة المعتمة. متربص من تحت سطح الأرض. مختبئ في الانتظار خلف جدران الأديرة في قرية عين ـ كارم. رجل غريب متربص. لا يرحم. يأتيني حياً وهامساً. يأتيني فيطرحني أرضاً.. يحطمني من داخل جوفي.. يزأر، وأنا أرد بصرخة. أكون مذعورة خوفاً وسحراً. ترهيب وترغيب. أصرخ. أحترق. أمتص كمصاصة دماء. سفينة مجنونة. تائهة هكذا.. أكون في ليلة مجيئه لي. أغني، أثور، وأطوف على سطح الماء.. أكون كمهرة هائجة.. أحوم في الليل.. في المطر. ستفيض المياه وتغمر القدس، وستكون السماء منخفضة، والسحب ستلمس وجه الأرض.. وستجمد الرياح في المدينة.

٣٣

«صباح الخير يا سيدة غونين!».

«صباح الخير يا دكتور أورباخ!».

«ألا زلنا غاضبين يا سيدة غونين؟».

«لقد هبطت درجة الحرارة يا دكتور أورباخ، وبعد يومين أو ثلاثة آمل أن تعود لي صحتي، وأكون سليمة كالعادة».

«كالعادة يا سيدة غونين.. كالعادة هذا تعبير مجرد. بمفهوم معروف. السيد غونين غير موجود في المنزل؟».

«زوجي ذهب للتجنيد، يا دكتور أورباخ! إنه موجود على ما يبدو في صحراء سيناء، وإلى الآن لم يصلني أي خبر عن زوجي».

«هذه أيام مهمة يا سيدة غونين! أيام مصيرية، ومن الصعب جداً فيها الابتعاد عن الأفكار التوراتية. هل حلقنا ما زال ملتهباً. دعينا نلقي نظرة في الداخل ونرى. لم تصنعي خيراً. لم تصنعي خيراً يا سيدتي حين سكبت على نفسك ماء بارداً في عز الشتاء، وكأن الأمر ممكن، وهو اغتصاب الجسم من أجل تهدئة النفس. عذراً ما هو المجال المهني للدكتور غونين؟ بيولوجيا؟ جيولوجيا؟ بالطبع عذراً أخطأنا. حسناً وصلت اليوم عن الحرب أنباء متفائلة. سيحارب معنا الإنكليز

والفرنسيون ضد المسلمين. حتى المذياع وصفهم اليوم باسم الحلفاء.. تقريباً كما في أوروبا. ومع ذلك يا سيدة غونين هناك أيضاً شيء ما فاوستي - شيطاني - في هذه الحرب. أقربهم إلى الحقيقة كانت فقط غريتكين الصغيرة. كم كانت صادقة غريتكين، وليست على أية حال ساذجة كما تعودوا أن يكتبوا عنها. من فضلك يا سيدة أعطني ساعدك.. يجب أن أقيس الآن ضغط الدم. مجرد فحص بسيط، ومن المؤكد أنه لا يؤلم. هناك خلل خطير في التفكير عند بعض اليهود. ليس بمقدورنا أن نكره كارهينا. أي فوضى نفسية هذه؟ حسناً بالأمس احتل الجيش الإسرائيلي بالدبابات جبل سيناء، تقريباً كما توقع سفر الرؤيا. تقريباً يوم القيامة. كنت أقول لكن فقط تقريباً. إنني أطلب الآن مزيداً من المعذرة لأنني يجب أن أسأل الآن سؤالاً حساساً جداً. عذراً هل عانيت يا سيدتي من أي خلل في الدورة الشهرية مؤخراً؟ لا..! هذه علامة طيبة.. طيبة جداً. علامة على أن الجسم لا يوافق من جانبه على الاشتراك في هذه الدراما. آه في الجيولوجيا يعمل زوجك، وليس في الأنثروبولوجي[1] - كان لدينا خطأ بسيط. علينا أن نستمر في الراحة لبضعة أيام. أن نستريح كثيراً جداً. ولا نجهد أنفسنا في التفكير. النوم هو الدواء الأكثر نجاعة، وبصورة معينة النوم أيضاً هو الوضع الأكثر طبيعياً عند الإنسان.

الصداع يجب ألا يقلقنا، أما وجع الحلق فنخرج له متسلحين بالأسبرين. أوجاع الحلق ليست مرضاً مستقلاً، وعلى فكرة لا يموت

---

(١) الأنثروبولوجيا: أو علم الإنسان وهو علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره، وأعراقه وعاداته وتقاليده.

الإنسان هكذا وبسرعة كما ربما نتخيل في لحظة حالة نفسية سيئة متطرفة. أتمنى لك الشفاء التام».

خرج الدكتور أورباخ، ووصلت سيمحاه مدبرة منزل هاداساه، خلعت معطفها، ووقفت لتدفئة كفي يديها أمام الدفاية، وسألت: كيف حال السيدة، وأنا سألتها عن أخبار صديقتي هاداساه. سيمحاه قرأت هذا الصباح في جريدة حيروت (الحرية) أن العرب قد خسروا، ونحن انتصرنا، ومن المؤكد أنهم يستحقونها:

كم من الوقت ممكن أن نعاني في صمت؟

خرجت سيمحاه للمطبخ. غلت اللبن. بعد ذلك فتحت نافذة في حجرة المكتب لكي تهوي الشقة. تدفق إلى الداخل نسيم بارد قادم من الخارج. قامت سيمحاه بتلميع النافذة بجرائد قديمة.. ثم نفضت الغبار عن قطع الأثاث بخرقة. وخرجت لمحل البقالة. لدى عودتها حكت لي سيمحاه بناءً على ما سمعت من الجيران أن سفينة حربية عربية تشتعل ناراً في البحر أمام حيفا. هل يجب أن تبدأ الآن في كي الملابس؟ متحسنة اليوم كل أعضاء الجسم. أنا مريضة. لست مضطرة للتركيز. تشتعل ناراً في عرض البحر. كل هذا حدث من قبل في الماضي البعيد، وليست هذه هي المرة الأولى.

«السيدة وجهها اليوم أصفر جداً». أبدت هذه الملاحظة سيمحاه القلقة: «السيد قال لي قبل أن يسافر أنه لا يجب التحدث كثيراً إلى السيدة من أجل أن يتم شفاؤها بسرعة».

«تحدثي لي يا سيمحاه!» طلبت منها «تحدثي عن نفسك.. تحدثي طوال الوقت ولا تسكتي!».

سيمحاه لم تتزوج بعد.. لكنها مخطوبة. حين يعود خطيبها باخور من التجنيد. سيستأجران شقة في الحي الجديد بيت. مزميل. في الربيع سيتم الزفاف. باخور لديه أموال كثيرة موفرة. يعمل سائق سيارة أجرة على خطوط شركة «كيشر» شاب خجول قليلاً لكنه مهذب. لاحظت سيمحاه أن كثيرات من صديقاتها قد تزوجن من شبان يشبهون أباءهن. أيضاً باخور يشبه أباها. هناك قانون كهذا. ذات مرة قرأت سيمحاه تفسيراً في مجلة «المرأة» الخطيب يميل للبحث عن الوالد. لو أحببنا أحداً ما فنحن نرغب أن يكون فيه على الأقل شبه من أحد قد أحببناه من قبل. مضحك. انتظرت وانتظرت حتى تسخن المكواة، ونسيت تماماً أن هناك انقطاعاً للكهرباء في القدس.

فكرت في نفسي. شاب في إحدى قصص سومرست موم، أو إستيفان زفايج جاء من مدينة صغيرة ليلعب الروليت في كازينو دولي. منذ بداية الأمسية كان قد خسر ثلثي أمواله. المبلغ الذي تبقى معه بعد حسبة حذرة يكفي بالكاد لدفع فاتورة الفندق، ولشراء تذكرة القطار حتى يستطيع الخروج من هناك من دون أن يهان. الساعة الثانية فجراً. هل بمقدور هذا الشاب الصغير أن يقوم، ويغادر الآن؟ ما زالت العجلة تدور، وهي مضاءة، وكل الشمعدانات تبرق. ربما ينتظره الفوز المفاجئ تماماً في آخر الدورة القادمة للعجلة. عشرة آلاف جرفها دفعة واحدة ابن الشيخ من إمارة حضرموت الجالس مقابله. لا ليس بإمكانه أن يقوم، وأن يغادر الآن خصوصاً وأن سيدة إنكليزية عجوزاً أطلت. ترمقه منذ بداية الأمسية بعيني بومة من تحت منظارها الأنفي، وهي إن قام من شأنها أن ترمقه بنظرة مليئة بالسخرية الباردة. وفي الخارج ينزل الثلج إلى آخر الليل. وهدير البحر يزأر هائجاً في الخارج. لا. الشاب ليس

بمقدوره أن يقوم ويخرج. بباقي نقوده يشتري فيشات قمار أخيرة. يغمض عينيه بقوة ثم يفتحها وفجأة يرمش، وكأن النور يعميهما.. والبحر في الخارج، في الليل، هائج في حنق.. والثلج في صمت يتساقط، ويتساقط.

نحن متزوجان منذ ما يزيد على ست سنوات - إذا اضطرتك ظروف عملك للسفر إلى تل أبيب فقد اعتدت على العودة للبيت في نفس اليوم.. أكثر من ليلتين لم ننفصل عن بعضنا منذ زواجنا. ست سنوات نحن متزوجان، ونعيش في هذه الشقة، وأنا بعد لم أتعلم كيف نفتح ونغلق ظلف النافذة لأنك الذي تقوم بذلك. الآن، ومنذ أن سافرت للتجنيد الظلف مفتوحة ليل نهار. إني أفكر فيك. عرفت من البداية أن هذا التجنيد لحرب لا.. لتدريبات. حرب ضد مصر وليست ضد الشرق. حرب قصيرة، وليست طويلة. كل ذلك استنتجته أنت بحسبة جهاز تقني داخلي متوازن.. يساعدك على التوصل إلى أفكار حذرة. على أن أعرض عليك معادلة أن معلقة بحلها.. كما يتعلق الإنسان بثبات على درابزين عالٍ.

هذا الصباح جلست على الكرسي الفوتيه وثبتت أزرار بدلتك السوداء. بالصورة المقبولة حالياً في البدل الحديثة. في نفس الوقت سألت نفسي أي ناقوس من زجاج معتم مثبط هي كلينا للتفرقة بين حياتنا وبين الأشياء، الأماكن، الناس، الآراء. كما هو مفهوم بالطبع يا ميخائيل هناك أصدقاء.. وهناك زوار لبيتنا. هناك زملاء مهنة. جيران. أقارب. لكن حين يجلسون في غرفة الاستقبال ويتحدثون إلينا تكون كلماتهم فاحصة دائماً من جراء الزجاج غير الشفاف. فقط من تعبيرات

وجوههم أستطيع أن أتحسس جانباً من نياتهم. أحياناً ملامحهم تذوب، أو تنصهر: كتل بلا خطوط. أشياء، أماكن، أناس، وآراء، يجب أن أتشبث بموقف. وأنت يا ميخائيل. هل هذا يكفيك، أو لا يكفيك؟ وكيف؟ وكيف أستطيع أنا أن أعرف؟ أحياناً تبدو حزيناً. يكفيك أم لا؟ وإذا مت أنا، إذا مت أنت، ها أنا ذا أتلمس مخرجاً في المقدمة لا زلت أحفظ وأكرر حفظ الدور المعقد الذي يتحتم عليّ القيام به، في أيام بعدها قادمة. أحزم. أجهز. أتعود حتى تبدأ الرحلة. ميخائيل لقد تعبت من الانتظار والانتظار. إنك تتكئ بذراعيك على عجلة القيادة. في غفوة من نوم أو في تفكير عميق؟ لا أستطيع أن أعرف. هادئ ومتوازن. أنت في كل الأيام. سافر يا ميخائيل! فلتسافر فأنا مستعدة منذ زمن.

٣٤

أعادت سيمحاه يائير من روضة الأطفال. أصابع الطفل كانت زرقاء من البرد. قابلا في الشارع ساعي البريد، وتسلما منه بطاقة بريد عسكرية من صحراء سيناء: يخبرنا أخي عمانوئيل فيها أنه بسلام، وأنه رأى، وقام بأعمال رائعة. بطاقة بريدية أخرى سيرسلها لنا من القاهرة عاصمة مصر. أمله أننا في القدس لا نزال أحياء لم يتقابل.. مع ميخائيل فالصحراء كبيرة.. وفي المقابل تبدو صحراؤنا في النقب كملعب رملي صغير. هل لا زلت تتذكرين يا حنه الرحلة لأريحا مع والدنا حين كنا أطفالاً؟ في المرة القادمة سنهجم على الأردن كالصاعقة. مرة أخرى يمكن أن نسافر إلى أريحا لشراء بعض الهدايا الصغيرة. عمانوئيل يطلب أن أقبل له يائير. ينمو، ويكبر، ويصير جندياً. مع خالص الحب والاحترام. من الخال عمانوئيل. لم يصلنا أي خبر من ميخائيل. توقعات:

على ضوء جهاز الاتصال وجهه المجهد، ينم عن مسؤولية متعبة. كتفاه مقوستان. شفتاه مضموماتان. ينحني على الجهاز مركزاً. من دون شك هو يدير ظهره إلى الهلال الذي يبدو خلفه شاحباً ورقيقاً.

جاء ضيفان للاطمئنان على صحتي في المساء:

ظهراً تقابل السيد قاديشمان والسيد جليك في شارع هاطوريم. علم

السيد قاديشمان من السيد جليك أن السيدة غونين مريضة، وأن السيد غونين التحق بالتجنيد للحرب. فوراً اتفق السيدان في ما بينهما على أن يأتيا هنا مساءً ليعرضا مساعداتهما. جاءا معاً لزيارتي، لو جاء واحد منهم بمفرده.. سيفتح الباب للأقاويل الشريرة.

قال السيد جليك:

«يا سيدة غونين! من المؤكد أن هذا صعب عليك. أيام متوترة. الجو بارد جداً وأنت تعيشين بمفردك». في نفس الوقت فحص السيد قاديشمان بأصابع كبيرة، وممتلئة قدح الشاي الموضوع على رأس سريري. «بارد» أبدى السيد قاديشمان ملاحظة بأسف: «بارد تماماً، ممكن أن تسمح لي السيدة غونين أن أغزو المطبخ.. (أغزو) بين قوسين بالطبع.. وأعد لها شاياً جديداً».

«على العكس» قلت «مسموح لي أن أغادر الفراش، فوراً سأرتدي روباً منزلياً، وسأعد لكما قهوة وكاكاو». «فليسامحنا الرب يا سيدة غونين! يحفظك الرب، وليسامحنا!» ذهل السيد جليك، ورمش بعينيه، وكأنني اكتشفت أن التواضع يروق له. مداهنة سريعة، وعصبية مرت على شفتيه، وكأنه أرنب صغير ينتفض عند سماعه صوتاً غريباً.

أبدى السيد قاديشمان اهتماماً:

«وماذا يكتب صديقنا من الحرب؟».

«لم يصل بعد أي خطاب». قلت بابتسامة.

«المعارك قد انتهت». عقب السيد قاديشمان، وعلى وجهه مسحة من مرح:

«المعارك انتهت، ولم يعد بعد أعداء في صحراء حوريب».

«هل تسمح يا سيد قاديشمان بإضاءة النور الكبير!» طلبت.

«هناك على شمالك. لماذا نجلس جميعاً في الظلام؟».

وضع السيد جليك شفته السفلى بين إبهامه وسبابته. عيناه كأنهما تتبعان مسار التيار الكهربائي من المفتاح، وحتى المصباح بالسقف. ربما شعر فجأة بأنه لا فائدة ترجى منه، ولهذا سأل:

«هل أستطيع أيضاً تقديم أية مساعدة للسيدة؟».

«شكراً يا سيد جليك يا عزيزي. لا أحتاج أي عون».

وفجأة وجدت ما أضيفه:

«من المؤكد أن الأمر صعب عليك أيضاً يا سيد جليك! من دون زوجتك في هذه الوحدة؟».

تأخر السيد قاديشمان لحظة قرب المفتاح الكهربائي، وكأنه تشكك في نتائج عمله، ومن الصعب عليه أن يؤمن بنجاحه الكامل. عاد فوراً، وجلس. لدى جلوسه بدا السيد قاديشمان ثقيلاً تعوزه الرشاقة. كأنه واحد من المخلوقات القديمة التي كانت هائلة الجسم.. ومع ذلك صغيرة الجمجمة. تركيبه هيكلي مغولي. رأيت فجأة في وجه السيد قاديشمان عظام الخد واسعة، وعريضة، ملامح فيها خطوط غليظة، وأيضاً خطوط متعارضة. دقيقة للغاية. رأس تتاري. هو المحقق الخبيث لميخائيل ستروغوف. ابتسمت إليه.

«يا سيدة غونين!» بدأ السيد قاديشمان بعد أن استعاد جلسته بوقار. «سيدة غونين في هذه الأيام العظيمة أتعجب طويلاً من أن تلاميذ زئيف جابوتنسكي قد أبعدوا بالفعل إلى الزاوية مع أن نظرياته تحقق اليوم انتصاراً ساحقاً. ساحقاً للغاية».

تحدّث كأنه ينطق من بركان داخلي مكتوم. أحببت كلماته هذه:

هناك ضيق.. لكن بعد الضيق المستمر يجيء الفرج.. هكذا ترجمت في قلبي لغته التتارية إلى لغتي أنا.. حتى لا أضايقه بصمتي قلت:

«الأيام ستحكم».

«إنها تحكم بالفعل، وأحكامها واضحة تماماً. هذا ما تقوله لنا هذه الأيام».

ابتهج وجه السيد قاديشمان الغريب وكأنه يحتفل:

في الوقت ذاته استطاع السيد جليك أن يصوغ إجابة متأخرة رداً على السؤال الذي ضاع من ذهن سائلته:

«سيدتي! دوبة المسكينة يعطونها علاجاً بالكهرباء. بالصدمة. يقولون إنه بقي هناك أمل. يجب ألا نيأس يقولون. إذا أراد الرب». يداه الكبيرتان أخذتا تضغطان بقوة، وتعجنان في قبعة بالية. شاربه الدقيق أخذ يرتعش ككائن حي صغير. صوته خائف. يطلب رحمة لا يستحقها.

«اليأس خطأ فظيع».

قلت:

«ستكون أفضل بإذن الرب».

السيد جليك:

«دعاء مستجاب آمين.. أية نكبة، ولماذا حلت بنا؟».

السيد قاديشمان:

«دولة إسرائيل ستتغير صورتها من الآن. هذه المرة الفأس والقدّوم في النهاية بأيدينا. جاء زمن الغريب لكي يصرخ ويسأل إذا كان هناك

عدل. ومتى سيظهر العدل. لسنا قطيعاً تائهاً ولسنا نعجة بين سبعين ذئباً. ولسنا ضأناً للذبح. كفى. كن ذئباً مع الذئاب. الكل يأتي طبقاً لما توقع به جابوتنسكي في روايته النبوئية: (شمشون) هل قرأت سيدتي كتاب (شمشون) بترجمته السلسة والفصيحة لكروفنيك؟ إنه يستحق القراءة جداً يا سيدة غونين. خصوصاً في هذا الوقت حيث قواتنا تطارد جيش فرعون الهارب، والبحر لم ينغلق لمجرمي مصر».

«لكن لماذا تجلسان بمعطفيكما؟ سأنهض، وأوقد الدفاية، وأعدّ مشروباً».

«من فضلكما اخلعا المعاطف».

كرجل موبخ أسرع السيد جليك لينهض من مكانه:

«لا، لا يا سيدة غونين! عذراً. لا داعي إطلاقاً. نحن هنا لكي نؤدي الواجب الديني الذي يقضي بزيارة المريض. سنذهب في الحال. لا داعي لأن تقومي! لا داعي لإيقاد الدفاية!».

السيد قاديشمان:

«وبهذا أنصرف أنا أيضاً.. فقد مررت إلى هنا في طريقي لجلسة اللجنة ناوياً الاستفسار عما أستطيع أن أساعد به السيدة؟».

«تساعد يا سيد قاديشمان؟».

«ربما تحتاجين شيئاً ما. ربما في التعامل مع أي مكتب أو...».

«أشكرك على طيب نياتك يا سيد قاديشمان! إنك في الحقيقة رجل مهذب من النوع الذي يضمحل تدريجياً». أشرقت ملامحه الديناصورية، وأكد:

«سأعود، وأمر إلى هنا غداً، أو بعد غد لأعرف ماذا سيكتب صديقنا؟».

«من فضلك مر يا سيد قاديشمان!» قلت كأنني أسخر منه. «ميخائيلي يذهلني باختيار أصدقائه». السيد قاديشمان أكد بهزة رأس واثقة:

«الآن، وبعد أن دعتني السيدة بصراحة.. من المؤكد، ومن المؤكد أنني سأجيء».

قال السيد جليك:

«أتمنى للسيدة شفاءً عاجلاً وكاملاً.. ومن الممكن أن أساعد أيضاً في الذهاب للبقال، أو إلى المجمع الاستهلاكي، وهل تحتاج السيدة أي شيء الآن؟».

«كم هذا لطف من جانبك يا سيد جليك الطيب القلب»، قلت أنا، وهو ركز نظره في التدقيق مرة أخرى بقبعته البالية. وساد صمت. يقف الرجلان العجوزان الآن في طرف الحجرة مندفعان نحو الباب بعيدين قدر الإمكان عن المكان الذي فيه سريري. السيد جليك اكتشف وأزال خيطاً أبيض من على ظهر معطف السيد قاديشمان. في الخارج هبت رياح ثم هدأت. من المطبخ تعالى صوت الثلاثجة الكهربائية، وكأن محركها قد حشد قوى جديدة.. مرة أخرى عاد، وانتابني ذلك الشعور الهادئ الشفاف في أنني قريباً سأموت. كم هي حمقاء أيضاً تلك الفكرة.. امرأة متزنة لا تكترث إلا بموتها. أنا والموت لا نبالي. أقرباء وغرباء. معارف من بعيد.. لا علاقة بينهما. شعرت أنه من المفروض عليّ أن أصوغ فوراً شيئاً ما، وهكذا ليس بمقدوري أن أودع الأصدقاء

الآن، وأن أسمح لهم بالذهاب. ربما تهطل الليلة الأمطار الأولى. وها أنذا لست امرأة عجوزاً بعد. وأعرف كيف أكون جميلة، عليّ أن أقوم فوراً، أن أرتدي روباً وعليَّ أن أعد القهوة وكاكاواً، وأن أقدم الكعك. أن أتناقش، وأن أهتم. أن أبدو شيقة لبقة، ولدي وجهات نظر وآراء. شيء ما ينقبض بإحكام في حلقي.

«هل أنتما في عجلة من أمركما جداً؟».

أجاب السيد قاديشمان:

«لبالغ أسفي عليّ أن أرحل فوراً.. السيد جليك بمقدوره أن يبقى لو أراد».

السيد جليك لف رقبته بشال ثقيل. لا تذهبا الآن أيها الإخوان العجائز. محظور عليها أن تبقى بمفردها. اجلسا على الكرسي الفوتيه. اخلعا معطفيكما. اهدآ. سنتناقش في ما بيننا حول السياسية، حول الآراء. نتبادل الآراء في مسائل الإيمان الديني والعدل. نكون يقظين ودودين. نشرب معاً. لا تذهبا. إنها خائفة من أن تبقى بمفردها في البيت. امكثا! لا تغادرا.

«شفاءً عاجلاً للسيدة غونين، وليلة هادئة».

«أنتما ذاهبان بهذه السرعة؟ هل أشعرتكما بالملل؟».

«حاشا لله. كيف ذلك؟» اختلطت أصواتهما المذهولة.

لهذين الشخصين حركات خنوع وتزلف لأنهما شخصان خبيثان وليسا في عمر الشباب، ولم يتعودا عيادة المريضات.

«الشارع خال من البشر». قلت:

«شفاء عاجلاً، وكاملاً». أجاب السيد قاديشمان، وكبس قبعته على جبهته المسطحة، وكأنه أغلق كوة بصورة مفاجئة.

وقال لي السيد جليك لدى خروجه:

«على السيدة ألا تقلق. لا داعي للقلق. كل شيء سيكون على ما يرام. والكل سيعود إلى مكانه بسلام كما يقولون. نعم السيدة تبتسم.. ما أسعدنا حين نراها تبتسم».

خرج الضيفان.

فوراً فتحت المذياع.. رتبت الفراش. وهل أنا مريضة بمرض معد؟ لماذا نسي الصديقان العزيزان أن يصافحاني لدى دخولهما، ولدى خروجهما. أعلن المذياع أنه قد تم احتلال شبه الجزيرة. صرح وزير الدفاع بأن جزيرة تيران عادت تحت سيادة مملكة إسرائيل الثالثة. حنا غونين تعود لإيفون أوزلاي. لكن أيادينا ممتدة بالسلام. أعلن الوزير بلدغته الخاصة به. فقط لو سادت القوى المتعقلة التي في المعسكر العربي على قوى الشر والانتقام، سيحل السلام الذي طال انتظاره.

مثلاً: توأماي.

تتمايل ثم تعتدل مع الرياح أشجار السرو في حي سنهادريا. تنحني وتنتصب. طبقاً لرأيي المتواضع أن كل مرونة هي من أعمال السحر. هي تندفع، وهي أيضاً باردة، ومستريحة في الوقت نفسه. قبل بضع سنين.. في يوم شتوي. في مبنى تيرا سانتا سجلت بعض ملاحظات قالها أستاذ الأدب العبري.. بعض جمل مليئة بالحزن: من أبراهام مابو، وحتى بيريتز سمولنسكين تغييرات داخلية صعبة حلت بحركة التنوير العبري. أزمة خيبة الأمل، وأزمة الوهم تتبدد، وتتبدد الأحلام، وذوو الأخلاق

والمبادئ يتكسرون، ولا يميلون مع الريح. مدمروك ومخربوك، قال الأستاذ، منك يخرجون (توريه): منذ البداية أنبتت حركة التنوير العبري الأفكار التي هدمتها. بعد زمن خرج أناس أخيار بأفكار في مجالات غريبة. كان الفاقد أبراهام أوري فوفنر شخصاً مأسوياً. كان يشبه العقرب الذي يدس سمه في جسمه حين تحيطه ألسنة اللهب. في سنوات السبعينات، والثمانينات من القرن الماضي. كان شعور الدائرة المغلقة ثقيل الوطأة.. قابضاً للصدر. ولولا بعض الحالمين والمناضلين. لولا الواقعيين الذين تمرّدوا على الواقع لم يكن لنا وجود تقريباً، وتقريباً كان الفناء قد حلّ بنا.. لكن الأعمال العظيمة تتم دائماً على أيدي أصحاب الأحلام. أنهى الأستاذ كلامه. لم أنس. كم هي عسيرة مهمة الترجمة التي تنتظرني.. فأيضاً هذه العبارات أقوى من أن أحولها إلى لغتي الخاصة بي. لا أريد أن أموت. السيدة حنه غرينباؤم غونين. اختصارها حج أي عيد.. لو أن أيامها جميعاً تصبح أعياداً. منذ فترة مات صديقي أمين المكتبة الطيب في مبنى تيرا سانتا، الذي تعوّد السير وهو يعتمر قبعة سوداء، ويتبادل معي التحيات والعظات. بقيت كلمات. تعبت من الكلمات.. كم هو إغواء مبتذل.

٣٥

في الصباح بشر المذياع بأن اللواء التاسع قد احتل مرابض المدفعية الساحلية في شرم الشيخ، وقد تمزق إرباً الحصار البحري المستمر. من الآن فصاعداً ستنفتح أمامنا آفاق جديدة.

أيضاً الدكتور أورباخ كان في ذلك الصباح صاحب بشرى. بعد أن رسم على وجهه ابتسامته الحزينة والعاطفية، وهز كتفيه الصغيرتين مرتين، وكأنه يستخف بالكلمات الخارجة من فمه، قال:

«نحن أصبحنا بحالة جيدة، وبإمكاننا أن نتمشى قليلاً، وأن نعمل قليلاً.. بشرط أن نبدأ الحياة في سلام من خلال الإيجابيات... بالشفاء الكامل».

للمرة الأولى منذ استدعاء ميخائيل للجيش قمت، وخرجت إلى الشارع. كان هذا تغييراً.. كأن رنيناً مدوياً وثاقباً قد توقف فجأة. كأنهم أطفأوا فجأة قبل الغروب محركاً ظل يصخب طوال اليوم في الفناء. طوال اليوم والسنين، وفجأة توقف ولم يعد مسموعاً. فقط حين توقف أصبح من الممكن تمييزه. هدوء مفاجئ. كان وتوقف.. توقف، ومن هنا كان.

أطلقت سراح مدبرة المنزل.

كتبت خطاباً مطمئناً لأمي. ولزوجة أخي. في مستوطنة كيبوتس نوف ـ هاريم. خبزت كعكة بالجبن.

عند الظهر اتصلت تليفونياً بمكتب الاستعلامات العسكرية بمدينة القدس. طلبت أن يخبرني أين تعسكر كتيبة ميخائيل. أجابوني باعتذار مهذب: معظم القوات لا تزال قيد التحرك، والاتصالات البريدية صعبة.. لا داعي للقلق.. اسم ميخائيل غير وارد في أية قائمة. كان ذلك جهداً ضائعاً. عدت من الصيدلية فوجدت في صندوق البريد خطاباً من ميخائيل. إشارة التاريخ إلى أن الخطاب قد تأخر في الطريق. في بداية خطابه تساءل ميخائيل بلهفة عن سلامتي. وعن حالة الطفل، والبيت. بعد ذلك يخبرني أنه على ما يرام من الناحية الجسمانية.. في ما عدا القرحة في المعدة التي يزيد من ألمها الطعام الرديء الطهو، وأيضاً في ما عدا نظارة القراءة الخاصة به التي انكسرت يوم سفره. امتثل ميخائيل لأوامر الرقابة العسكرية، ولم يكشف لي عن مكان وحدته العسكرية. لكن بدا له ممكناً أن يرمز لي بصورة غير مباشرة أن وحدته بصفة عامة لم تشترك في المعارك إلا أنها كانت مشغولة بمهمات أمنية داخل حدود الدولة، وفي النهاية يطلب ميخائيل أن أتذكر بأن يائير لديه موعد لفحص الأسنان يوم الخميس القادم. أي أن ذلك غداً.

وفي صبيحة اليوم التالي أخذت معي يائير إلى المركز الصحي الذي يحمل اسم شتراوس. حيث هناك عيادة الأسنان المحلية. رافقنا في طريقنا يورام كامنيتسر ابن الجيران لأن فرع حركة «بني عقيبا» يقع بالقرب من المركز الصحي. قاسى يورام كثيراً ليوضح لي كم شعر بالأسف حين علم بمرضي، وكم سعد لشفائي. توقفنا عند بائع متجول

يبيع الذرة المشوية. أنا أعطيت الطفل والشاب ذرة مشوية. وجد يورام أن من الأفضل له أن يرفض.. رفضه كان واهناً، والكلمات في فمه تعلثمت. أنا قسوت عليه.. سألته لماذا يبدو لي اليوم شارد الذهن حالماً إلى هذا الحد؟ هل وقع في هوى إحدى بنات صفه الدراسي؟

سؤالي هذا جعل جبهة يورام تمتلئ بقطرات عرق كبيرة.. حاول أن يمسح وجهه إلا أنه لم يستطع لأن كفي يديه كانتا متسختين.. من جراء قبضته على كوز الذرة الذي اشتريته له. لم أتوقف عن النظر إليه بهدف زيادة خجله. الخزي واليأس أثارا لدى الشاب موجة من الجُرأة الحذرة. أدار لي وجهاً متكرر الملامح، وقلقاً، وتمتم قائلاً:

«يا سيدة غونين! لا شأن لي بأية تلميذة في صفي، ولا أية واحدة! أنا آسف لم أقصد أن أسيء إليك ولكن كان من الأجدر ألا تسألي مثل هذا السؤال. أيضاً أنا لا أسأل.. فالحب وأشياء أخرى متشابهة هي دائماً أمور شخصية».

في القدس ساد خريف متأخر. السماء لم تكن متلبدة.. لكنها لم تكن صافية أيضاً. لونها كان خريفياً: أزرق... رمادياً. يشبه لون الطريق، وألوان المباني الحجر القديمة. كانت تلك ألواناً صحيحة. مرة أخرى شعرت بأن هذه ليست على أية حال هي المرة الأولى. لقد كنت هنا من قبل. والآن.

قلت:

«سامحني يا يورام! نسيت للحظة أن ثقافتك دينية.. كنت فضولية متطفلة. لست مجبراً على إشراكي بأسرارك. إنك ابن سبعة عشر ربيعاً، وأنا عمري سبعة وعشرون عاماً.. في نظرك أبدو عجوزاً شمطاء».

في هذه المرة سببت للشاب حرجاً جديداً. أكثر ضيقاً من سابقه، وعن عمد أدار عينيه للجانب الآخر. خلال تشنجه المتحفظ دفع بطريق الخطأ يائير. وكاد يلقيه أرضاً. بدأ يتحدث. فشل في اختيار الألفاظ، ويأس من المحاولة.

«عجوز؟ أنت... على العكس يا سيدة غونين! على العكس قصدت أن أقول إن... إنك مهتمة بمشاكلي، و... معك... أستطيع أحياناً أن... لا. عندما يقولون ينتج العكس. أنا قصدت فقط».

«اهدأ من فضلك يا يورام! لست مضطراً أن تقول». كان في يدي. سيطرت عليه كاملاً. استطعت أن أرسم على وجهه أي تعبير أردت، وكأنني أرسم على صفحة ورقة بيضاء. سنون عديدة مضت منذ أن استمتعت بهذه اللعبة المتجهمة الباردة آخر مرة. لهذا دفعت الحديث إلى بعد آخر وأنا أكتم في نفسي رشفات حذرة وضحكة داخلية جافة:

«لا يا يورام! لست مضطراً لأن تقول شيئاً. تستطيع أن تكتب لي خطاباً. هذا بجانب أنك قد قلت كل شيء بالمناسبة هل هناك من قالت لك بأن عينيك جميلتان للغاية؟ لو كنت واثقاً من نفسك يا صديقي الصغير كنت ستحطم قلوب عذارى كثيرات ولو كنت أنا شابة من جيلك، ولست عجوزاً شمطاء لا أعرف كيف كنت سأستطيع ألا أحبك. إنك شاب ساحر».

لم أرفع نظراتي الباردة عن وجهه. استوعبت نظراته المندهشة والحنونة، ونظرات العتاب والأمل المتطرف كنت ثملة بالنشوة.

يورام تمتم:

«لست مضطرة يا سيدة غونين..!».

«حنه، مسموح لك أن تناديني حنه».

«إني أحترمك.. أبجلك.. أحترم ليست هي الكلمة الصحيحة.. لأنه لو شعرت باحترام و... باهتمام».

«لماذا تعتذر يا يورام! لقد أعجبتني، وليست خطيئة أن تعجب».

«أنت تسببين لي ندماً يا سيدة غونين!».

«تحدث يورام لست متأكدة أنك ستندم على أقوالك».

في هذه اللحظة تدخل يائير فجأة.. قال، وهو يخرج من فكيه اللذين طحنا قدراً كبيراً من الذرة المشوية:

«الإنكليز هو النادمون.. في حرب عام ١٩٤٨.. لأنهم وقفوا إلى جانب العرب، والآن هم يقفون إلى جانبنا لأنهم يندمون».

قال يورام:

«يا سيدة غونين! هنا عليّ أن أتجه يميناً. أنا أسحب كل الكلمات التي قلتها وأطلب معذرتك».

«انتظر يا يورام! انتظر لحظة.. لي رجاء منك».

يائير:

«حين كنا في حولون، وكان الجد زالمان لا يزال حياً شرح لي أن للإنكليز دماً بارداً.. كدم ثعبان».

«نعم يا سيدة غونين! ما هو رجاؤك. أنا مستعد عن طيب خاطر!».

«ماما ماذا يعني أن دم الثعبان بارد؟».

«هذا معناه أن دورته الدموية ليست ساخنة بل باردة. يا يورام أنت حبوب إلى حد كبير أردت أن أطلب...».

«لكن لماذا، وكيف أن دم الثعبان ليس ساخناً؟ ولماذا الدم ساخن عند الناس في ما عدا الإنكليز؟».

«قولي لي إنك لست غاضبة مني يا سيدة غونين.. ربما أخطأت التعبير».

«القلب يدفع الدم، ويسخنه عند بعض المخلوقات. لا أستطيع أن أشرح لك بالضبط. لا تعذب نفسك يا يورام! حين كنت صغيرة من عمرك كان لي أيضاً قدرة قوية على الحب. يهمني أن أتحدث معك مرة أخرى اليوم أو غداً. يائير اصمت لحظة! توقف عن الإزعاج، والضجيج! كم مرة قال لك أبوك بألا تقاطع حديث الآخرين.. مرة أخرى اليوم أو غداً. هذا هو الطلب الذي أردته منك. يجب أن أتحدث معك. بودي أن أعطيك نصيحة ما».

«أنا لم أقاطع كلام أحد. ربما فقط بعد أن قاطع يورام كلامي».
«وفي نفس الوقت لا تعذب نفسك يا يورام بلا داع. إلى اللقاء يا يورام! لست غاضبة منك، لا تغضب أنت من نفسك. قد أجبتك يا يائير! هذا هو الحل. لا أستطيع تفسير كل شيء في العالم. ليس بمقدوري أن أشرح كل شيء. متى، ولماذا، وكيف وأين. لو كانت للجدة أجنحة لطارت كالنسر في عنان السماء. حين يعود أبوك للبيت ستتلقى شرحاً لكل شيء. لأن أباك أكثر مني حكمة، وهو يعرف كل شيء». بابا لا يعرف كل شيء لكن حين لا يعرف يقول إنه لا يعرف، ولا يقول إنه يعرف لكن لا يمكنه أن يشرح. لا شيء كهذا. أي شيء يعرفونه بإمكانهم أن يشرحوه. أنا أنهيت كلامي.

«حمداً لله يا يائير».

ألقى الولد من يده ما تبقى من كوز الذرة المقضوم. مسح بعناية كفي يديه في المنديل. كبح جماع نفسه عن مزيد من الإزعاج. صمت.. حتى حين سألته في ارتباك مفاجئ.. إذا كنا قد أطفأنا فرن البوتاغاز قبل خروجنا من البيت. ظل صامتاً. كرهت كبرياءه العنيد. حين وصلنا إلى العيادة دفعته، وأجلسته بالقوة على كرسي طبيب الأسنان. رغم أنه لم يكن يرفض الجلوس فيه إطلاقاً وذلك منذ أن شرح له ميخائيل كيف يصيب التسوس جذور الأسنان. من يومها أظهر يائير تفهماً، وتعاوناً كاملين. لم يتوقف الأطباء عن الإعجاب به. إلى جانب ذلك أثار جهاز النقْب وسائر أدوات معالجة الأسنان في نفس الطفل نوعاً من الفضول وحب الاستطلاع الذي بدا لي مثيراً للاشمئزاز: طفل في الخامسة من عمره مفتون بأمراض الأسنان.. سيكبر وسيصير رجلاً مكروهاً. كرهت نفسي على هذه الفكرة.. لم أستطع أن أطردها. في الوقت الذي عالج فيه الطبيب أسنان يائير.. جلست أنا على كرسي منخفض في الردهة. ورتبت في ذهني الكلمات التي أود أن أقولها ليورام كامنيتسر. أولاً كان في رأيي أن أستخلص من فمه الاعتراف الذي يقلقه.. أدركت أنني سأنجح في ذلك بسهولة، وهكذا أستمتع مرة أخرى بتلك القوى التي ما زالت في جعبتي، ولم أفقدها بعد. رغم أن الزمن يهاجمها، ويسحقها، ويحطمها، ويصفيها بأصابعه الدقيقة، والناحلة.

بعد ذلك حين تكون السيطرة التامة في يدي أنوي أن أقنع يورام بأن يختار حياة متهورة. يعني أن أشجعه على أن يكون شاعراً مثلاً، وليس مدرساً للتوراة. بمعنى أن أقذفه إلى الشاطئ المقابل.. أي أن أخضع، وللمرة الأخيرة ميخائيل ستروغوف تحت إدارة وسلطة الأميرة المخلوعة، والدافعة من الداخل.

أسفرت هذه الخطة عن لا شيء. الفتى المجنون لم يف بوعده، ولم يزرني. يبدو أنني سببت له خوفاً أقوى منه.

مع نهاية الشهر ذاته نشرت مجلة مغمورة قصيدة حب بقلم يورام. خلافاً لقصائده السابقة تجرأ هذه المرة على أن يذكر في قصيدته أسماء من أعضاء جسم المرأة. كانت تلك امرأة العزيز تكشف عن أعضاء من جسمها لإغراء يوسف الصديق.

تم استدعاء السيد، والسيدة كامنيتسر فوراً للحديث مع مدير المدرسة الثانوية الدينية، وتم الاتفاق بينه وبينهم على التخلي عن إحداث ضجة حول هذا الموضوع بشرط أن يكمل الفتى عامه الدراسي الأخير في مؤسسة ثقافية تابعة لمستوطنة دينية في الجنوب. هذه التفاصيل علمتها فقط بعد مضي فترة.. كما أن القصيدة الجريئة عن محنة يوسف الصديق وصلتني بعد فترة. وصلتني القصيدة عن طريق البريد في ظرف مكتوب عليه اسمي بحروف مطبوعة بالآلة الكاتبة. كانت قصيدة عذبة فصيحة ومتسلسلة: صرخة نابعة من جسم معذب عبر قناع الروح الوضيعة.

اعترفت بهزيمتي. مستقبل يورام هو الدراسة في الجامعة، وسينتهي به الحال مدرساً للتوراة، وللغة العبرية، لن يكون شاعراً. ربما يتمكن من تأليف عدة أبيات متحذلقة من شعر المناسبات. مثلاً على بطاقة المعايدة أو التهنئة التي سيرسلها لنا مع كل سنة جديدة. أيضاً نحن عائلة غونين نرد ببطاقة لكي نهنئ يورام وعائلته الصغيرة بمناسبة العام الجديد. الزمن يضيف حضوره: حضور جامد وطويل ومتعال. لا يحب يورام، ولا يحبني، ولا ينوي خيراً.

في الواقع لقد تقرّر الأمر من خلال الجارة الهيستيرية.. السيدة جليك.. التي انقضت على يورام في الفناء قبل دخولها مستشفى الأمراض العقلية بوقت قصير. لقد مزقت قميصه، وصفعته على خديه، وسبته ولعنته، ووصفته بالزاني، والديوث، وقذر العينين.

لكن أنا التي خرجت مهزومة. كانت تلك محاولتي الأخيرة. الحضور البارد كان أقوى مني. من الآن فصاعداً لن أبحر ضد التيار.. بل سأدعه يحملني في استسلام متكاسل.

٣٦

عشية اليوم التالي في الوقت الذي كنت أضع يائير في المغطس (البانيو) وأحف رأسه.. ظهر على مدخل الباب رجل نحيل ومغبر. من جراء صوت تدفق المياه، ومن جراء كلام يائير لم أسمعه حين دخل. وقف بجواربه على باب الحمام. ربما اكتفى بالنظر إلينا لعدة لحظات في الردهة لكي لا يملأ الشقة بالوحل (ميخائيل!» قصدت أن ألفظها بابتسامة رقيقة لكن الاسم خرج من حلقي بحشرجة.

«يائير. حنه! مساء الخير. حسن، إني أراكما بخير. تحية أيها الأعزاء لقد عدت».

«بابا هل قتلت عرباً؟».

«لا يا بني على العكس.. فإن الجيش اليهودي هو الذي كاد يقتلني. في ما بعد سأروي لك قصصاً. يا حنه جففي الطفل، والبسيه حتى لا يبرد.. فقد بردت المياه».

كتيبة الاحتياط التي فيها يخدم ميخائيل لم يتم تسريحها بعد. أما ميخائيل نفسه فقد عجلوا بتسريحه. لأنه عن طريق الخطأ جندوا اثنين من جنود اللاسلكي زيادة على المفروض. لأن نظارته المكسورة جعلته تقريباً عديم الجدوى.. وهو بجانب جهاز اللاسلكي. والكتيبة بأكملها

سيتم تسريحها. في خلال يومين سيعود أفرادها إلى بيوتهم. وأيضاً لأنه هو، ميخائيل، مريض بعض الشيء.

«هل أنت مريض؟» رفعت صوتي وكأني أؤنبه.

«قلت بعض الشيء.. لا داع للصراع يا حنه! ها أنت ترين أني أمشي. أتحدث، وأتنفس. مريض بعض الشيء فقط.. على ما يبدو نوع من التسمّم في المعدة فقط».

«فقط من شدة الانفعال يا ميخائيل! سأتوقف فوراً. لقد توقفت. كفى. لا دموع. تغلبت على الدموع. لقد اشتقت إليك، وحشتني. حين سافرت كنت أنت مريضة، وبحالة سيئة. الآن لست مريضة. سأكون بحالة جيدة من أجلك. إنني أريدك. أنت تغتسل في الوقت الذي آخذ فيه يائير للنوم. سأجهز لك وجبة عشاء ملوكية. سأمد على طاولة الطعام مفرشاً أبيض، وأفتح زجاجة نبيذ، بهذا نفتتح الأمسية. ها أنا بغبائي فوّتّ عليك المفاجأة».

«لا أعتقد بأنه مسموح لي بأن أشرب نبيذاً هذا المساء». اعتذر ميخائيل، وابتسامة هادئة ظهرت على وجهه.

«أنا لست على ما يرام».

بعد أن اغتسل أفرغ ميخائيل حقيبته العسكرية، وألقى بملابسه القذرة في سلة الغسيل، ووضع كل شيء في مكانه. ثم لف نفسه في بطانية شتوية ثقيلة. اصطكت أسنانه. طلب أن أسامحه.. لأنه أفسد بأوجاعه أمسية لقائنا.

وجهه كان غريباً. ولأن نظارته تحطّمت وجد ميخائيل صعوبة في أن يقرأ الجريدة. أطفأ النور، وأدار وجهه للحائط. أثناء الليل استيقظت عدة

مرات. تخيلت أني أسمع ميخائيل يئن، أو ربما فقط يتجشأ. سألته إن كان يريدني أن أصب له قدحاً من الشاي. ميخائيل شكر ورفض. قمت، وأعددت شاياً. أمرته أن يشرب. أطاع، وأذعن، ورشف بتفانٍ. مرة أخرى صدر عن حلقه رنين ليس أنيناً، وليس تشجؤاً. كان يبدو أنه يشعر بغثيان شديد.

«أهي آلام يا ميخائيل؟».

هو نفي: «لا. ليست آلاماً. نامي يا حنه! غداً نتحدث في ذلك».

في الصباح أرسلت يائير إلى روضة الأطفال، واستدعيت الدكتور أورباخ. دخل الطبيب، وكأنه يمشي على خزف صيني. ابتسم في أسى، وأعلن أننا بحاجة لفحص عاجل في المستشفى. أخيراً استخدم الطبيب صيغة مهدئة كان من عادته أن يقولها دائماً:

«الإنسان لا يموت هكذا بسرعة.. كما ربما نتخيل في حالات نفسية متطرفة. شفاء عاجل».

في الطريق، وفي سيارة الأجرة التي أقلتنا لمستشفى «شعارى - تسيدق». حاول ميخائيل إطلاق نكتة حتى يبدد القلق من قلبي:

«أشعر بنفسي كبطل حرب في فيلم سوفياتي. تقريباً».

بعد ذلك توقف قليلاً، وطلب إذا ساءت حالته أن أتلفن للعمة جينيه في تل أبيب، أخبرها عن مرضه.

إني أتذكر، حين كنت في الثالثة عشرة من عمري أصيب أبي يوسف غرينباؤم بمرضه الأخير، ومات من ورم خبيث. في الأسابيع التي سبقت موته أخذ وجهه في الذبول. جفت بشرته، وتحول لونها إلى الصفرة، وغارت وجنتاه. تساقط شعره بسرعة. انخلعت أسنانه. كان

وكأنه يتقلص من ساعة لأخرى. أما الذي روعني أكثر من الكل كان غرق الشفتين إلى الداخل. أحدث هذا الأمر انطباعاً شبيهاً بابتسامة ساخرة دائمة. وكأن مرضه ليس إلا نكتة عملية نجح فيها جداً. أيضاً استدار أبي في أواخر أيامه إلى نوع من التنكيت بالقوة، وظل يذكرنا أن مسألة الحياة بعد الموت قد أثارت فضوله حتى منذ أن كان شاباً في مدينة كراكوف. حتى إنه كتب ذات مرة باللغة الألمانية خطاباً لتهنئة البروفيسور مارتن بوبر، وعرض أمامه السؤال، ومرة أخرى نشر رد حول هذا الموضوع في باب رسائل القراء بجريدة «هامكشيف»، وها هو بعد أيام معدودة سيكون بيده حل موثوق به. ومن مصادر واسعة الاطلاع للغز بقاء النفس.. إلى جانب ذلك كانت مع والدي إجابة مكتوبة باللغة الألمانية بخط يد البروفيسور بوبر، وقد جاء فيها أن حياتنا تستمر بعدنا من خلال نسلنا وأعمالنا.

«الأعمال لا أستطيع أن أفتخر بها». ابتسمت شفتاه الغارقتان إلى الداخل «أما النسل فموجود. هل تشعرين يا حنه بأنك استمرار لنفسي، ولجسدي؟».

وفوراً أضاف:

«كانت مجرد نكتة. شعورك الشخصي هو شعورك الذاتي. حول مسائل كهذه قال القدماء.. إنه لا توجد إجابة».

مات والدي في البيت. لم ير الأطباء حاجة لنقله إلى المستشفى حيث إن الأمل مفقود، وقد أدرك ذلك، والأطباء أدركوا أنه مدرك. وصف له الأطباء أدوية مهدئة للآلام، وأعربوا عن دهشتهم من رباطة جأشه التي أبداها في أيامه الأخيرة. أبي استعدّ ليوم موته طوال أيام حياته

ـ مرّ عليه الصباح الأخيرة في جلسة على الكرسي المريح، جلس يرتدي روباً منزلياً بنياً وأخذ يحل مسابقة الكلمات المتقاطعة ذات الجوائز في الصحيفة البريطانية «فلسطين بوست» وخرج في الظهيرة إلى صندوق البريد لكي يرسل الحل الكامل لهيئة تحرير الصحيفة. لدى عودته دخل والدي إلى غرفته. وأغلق وراءه الباب من دون الترباس.. وظهره إلى الغرفة وقف مستنداً إلى النافذة ومات. كان قصده أن يوفر على أعزائه مناظر مؤذية. كان أخي عمانوئيل في ذلك الوقت مجنداً في تدريب سري بمستوطنة بعيدة عن القدس. أنا ووالدتي كنا عند الكوافيره. من الجبهة وصلت أنباء غير مؤكدة عن حدوث تحول دراماتيكي هائل في المعارك الدائرة حول ميدنة ستالينغراد. سجل والدي في وصيته مبلغ ثلاثة آلاف ليرة أصرفها يوم زفافي. كان عليّ أن أعيد نصف هذا المبلغ لعمانوئيل في حالة ما إذا اختار أن يترك حياة المستوطنة. كان أبي رجلاً مقتصداً أورثنا أيضاً حقيبة مصنوعة من الكرتون، وفيها دستة (دزينة) أو ما شابه ذلك من خطابات لمشاهير آثروا أن يجيبوا عن استفساراته على عدد من المطالعات المختلفة. خطابان أو ثلاثة منها مكتوبة بخط يد أناس مشهورين عالمياً. أيضاً مذكرة مليئة بالملاحظات خلفها أبي وراءه. في البداية أخطأت الظن بأن أبي كانت لديه عادة تدوين أفكاره وملاحظاته سراً. في ما بعد أدركت أن هذه كانت تعبيرات سمعها على مر السنين مِن أفواه عظماء. مثلاً أثناء رحلة على مقعد واحد في القطار من القدس لتل أبيب أدار أبي حواراً مع المرحوم مناحم أو سلبشكين، وسمع منه هذه العبارة:

«رغم أنه من الضروري إبداء الشك في أي تصرف.. إلا أنه من الضروري أيضاً القيام بأعمال، وكأن العالم خال من الشك». هذه

الكلمات وجدتها مسجلة على هامش مذكرات أبي، وبين قوسين من دون ذكر المصدر، والتاريخ والمناسبة. كان والدي رجلاً شديد الإصغاء، ويبحث عن إشارات وتلميحات. هو لم ير أي مساس بكرامته أن يمضي طوال أيام حياته راكعاً أمام قوى قوية يجهل طبيعتها، أحببته أكثر مما أحببت أي نفس أخرى في العالم.

رقد ميخائيل أياماً ثلاثة في مستشفى «شعارى تسيدق» بدت عليه أعراض أولية لمرض في الأمعاء. بفضل شكوك الدكتور أورباخ تم تشخيص المرض في مراحله الأولية. من الآن فصاعداً محظور عليه تناول أكلات معينة. في الأسبوع القادم يكون بإمكان ميخائيل العودة إلى عمله الطبيعي.

خلال إحدى زياراتنا للمستشفى وجد ميخائيل فرصة للوفاء بوعده في أن يحكي لابنه قصصاً من الحرب. تحدث عن دوريات ألغام ونقاط استعداد. لا. ليس بمقدوره الرد على أسئلة تتعلق بالجبهة نفسها: «لسوء الحظ أبوك لم يستول على المدمرة المصرية في خليج حيفا، ولم يقم بزيارة لمدينة غزة. لم يهبط بالمظلة قرب قناة السويس. ليس طياراً، ولا مظلياً».

أبدى يائير تفهماً:

«أنت لم تكن ملائماً إلى هذا الحد، ولهذا أبقوك!».

«ومن تظن ملائماً للحرب يا يائير؟».

«أنا».

«أنت».

«حين أكبر سأكون جندياً قوياً. إنني أقوى من عدد الأطفال الأكبر

مني سناً في الفناء. أن تكون ضعيفاً ليس أمراً جديداً، تماماً كما في فنائنا. أنهيت كلامي».

قال ميخائيل:

«يجب أن تكون حكيماً يا بني».

تفحص يائير الكلمات في صمت. قارن عكس. ربط. ركب. كان جاداً. مركزاً، وفي النهاية لفظ: «ذكي ليس عكس قوي».

أنا قلت: «إني أحب الأقوياء، والحكماء، أحبهم جدّاً. كان بودي أن أقابل، ذات مرة، رجلاً قوياً، وحكيماً».

بالطبع أجابني ميخائيل بابتسامة ثم صمت.

لم يقصر الأصدقاء. أكثروا من الزيارات. السيد جليك. السيد قاديشمان. الجيولوجيون. أعز صديقاتي هاداساه، وزوجها الذي يحمل اسم «أبا». وأخيراً ياردينا صديقة ميخائيل الشقراء. جاءت في صحبة ضابط من قوات الأمم المتحدة. كان عملاقاً كندياً وجدت صعوبة في أن أرفع عينيّ عنه.. رغم أن ياردينا لاحظت نظراتي، وابتسمت لي مرتين. هي اتكأت على فراش ميخائيل. قبلت كف يده الطري، كأنه يحتضر ثم قالت: «توقف عن هذا يا ميخا! كل هذه الأمراض لا تلائمك. إني مستغربة. صدقني، أو لا تصدقني لقد قدمت لهم بحثي، وقد تسجلت للامتحانات النهائية. خطوة خطوة. وأنت ستكون كعادتك ميخا العبقري، وستساعدني قليلاً في الاستعداد لهذه الامتحانات».

«بالطبع» أجاب ميخائيل بابتسامة «سأساعدك، وأنا أشاركك سعادتك يا ياردينا!».

قالت ياردينا: ميخا أنت رائع.. إلى الآن لم أقابل حكيماً، حبوباً مثلك.. تسلم لي».

تعافى ميخائيل، وعاد لعمله، وأيضاً إلى كتابة بحثه بعد توقف مستمر، ومرة أخرى عاد ظله الذي يتحرك ليلاً من خلف الزجاج الشفاف الذي يفصل بين حجرة مكتبه، وبين الحجرة التي أنام فيها. أقدم شاياً بلا ليمون لميخائيل في الساعة العاشرة. في الحادية عشرة يستريح من عمله لدقائق معدودة لكي يستمع لنشرة الأخبار الأخيرة. بعد ذلك تتراقص الظلال، وتتلوى على الحائط مع حركة من حركاته ليلاً: وهو يفتح درجاً. يقلب صفحة. يسند رأسه على مرفقيه. يمد يده ليأخذ كتاباً. عادت نظارة ميخائيل بعد أن تم إصلاحها. اشترت عمته ليئه غليوناً جديداً وأرسلته له. أرسل أخي عمانوئيل من نوف ـ هاريم صندوق تفاح. حاكت لي أمي شالاً أحمر اللون، وأيضاً بائع الخضار الفارسي السيد إلياهو موشيح عاد من التجنيد.

أخيراً في منتصف شهر نوفمبر/ تشرين الثاني هطلت الأمطار المنشودة التي طال انتظارها. من جراء الحرْب تأخرت الأمطار هذا العام. هطلت بعنف وضراوة. والمدينة لسعت بسياطها. نشعر في كل مكان بامتصاص هادئ للمياه. دمدمة البالوعات. أصبح فناء بيتنا مبتلاً، ومهجوراً. رياح عاصفة ترج الظلف طوال الليل. أمام شرفة المطبخ تقف عارية، وجرداء شجرة التين القديمة. لكن أشجار الصنوبر أورقت. وكأنها زادت ثروة. همسها أصبح ضجيجاً. لم تعد تتركني وشأني. أي سيارة تعبر الشارع تنجح في أن تستخلص من الأسفلت المشبع بالماء حفيفاً ممتداً.

أحضر مرتين كل أسبوع دروساً متقدمة في اللغة الإنكليزية. نظمها اتحاد الأمهات العاملات. في الفترات التي يتوقف فيها المطر يقوم يائير بتعويم سفن حربية، ومدمرات في البرك الصغيرة أمام بيتنا. ينتابه الآن شوق غريب إلى البحر. حين يحبسنا المطر في البيت يتخذ من البساط والكرسي محيطاً وميناء. قطع لعبة النرد (الدومينو) هي أسطوله. معارك بحرية هائلة تجري في حجرة الضيوف. مدمرة مصرية تشتعل في عرض البحر. مدافع تطلق نيراناً، والكابتن يتخذ قراراً.

أحياناً حين أنتهي من إعداد وجبة العشاء مبكراً.. أنضم أنا الأخرى للعب. علبة البودرة خاصتي تأخذ دور غواصة. أنا أتقمص دور عدو. ذات مرة سقطت فجأة على ابني في قبلة حارة. أمطرت رأسه بوابل من القبلات الخشنة لأنه بدا للحظة بسيطة كقبطان بحري حقيقي. ولهذا طردني فوراً من اللعبة. ومن الحجرة عاد ابني وأظهر كبرياء عنيداً. منحني حق الاشتراك في لعبته بشرط أن أكون غريبة، وبعيدة عن العواطف خلال المعركة. ربما أخطأت: أصبحت تظهر على يائير رغبة في التسلط البارد. لم يأخذ من ميخائيل هذا، ولا حتى مني... قوة الذاكرة لديه عادت، وأثارت لدي دهشة. إلى الآن لا يزال يتذكر عصابة حسن سلامة. وهجومها على حولون من اتجاه تل عريش.. كما أخبره جده المرحوم منذ ما يزيد على سنة ونصف.

سينتقل يائير من روضة الأطفال إلى مدرسة بيت هاكيريم، وليس إلى مدرسة تحكموني الدينية للبنين المجاورة لبيتنا. ميخائيل مصمم تماماً على أن يكون ابنه تقدمياً في آرائه.

الجيران من الطابق الثالث، عائلة كامنيتسر يحملون لي في قلوبهم

ضغينة صامتة. إلى الآن لا يزالون يقدمون لي معروفاً، ويردون تحيتي لكنهم توقفوا عن إرسال ابنتهم الصغيرة إليَّ لكي تطلب مني مكواة أو قدرة (طنجرة) للخبيز.

يزور السيد جليك بيتنا بانتظام مرة كل خمسة أيام «للقراءة في الموسوعة العبرية حيث تقدم، ووصل حتى المادة الخاصة ببلجيكا. بمدينة أنتورب ببلجيكا يعيش تاجر المجوهرات أخو زوجته السيدة دوبا المسكينة. السيدة نفسها تتحسن حالتها، يؤكد الأطباء أنهم سيخلون سبيلها في أبريل/ نيسان أو مايو/ أيار. اعتراف جارنا بالجميل لا حدود له. إلى جانب الملحق الأسبوعي لجريدة (هاتسوفيه) تعود أن يعطينا هدايا علباً من الدبابيس ومشابك للورق، ولزقات طوابع، وطوابع بريد من دول مختلفة.

أخيراً تمكن ميخائيل من أن يثير لدى يائير اهتماماً زائداً بجمع الطوابع. صبيحة كل يوم سبت يكرسان وقتاً في الجمع. يغمس يائير الطوابع في الماء بعناية.. يزيل عنها بقايا الأطراف. يصفّها مقلوبة لكي تجف على مفرش كبير من ورق نشاف أحضره له السيد جليك كهدية بلا مقابل. يقوم ميخائيل بتصنيف الطوابع الجافة ثم يضعها في الألبوم. في ذات الوقت أضع أسطوانة على الغرامافون.. اضطجع فوق الكرسي الفوتيه بقدمي المتعبتين مضمومتين تحتي. أحيك، وأستمع للموسيقى باسترخاء. بإمكاني أن أتتبع بناظري عبر النافذة هيئة امرأة الجيران، وهي تنشر ملاءات السرير على الشرفة للتهوية. لا أفكر ولا أشعر. الزمن حاضر، ومستوفٍ. وأنا أتجاهله بقصد إذلاله، أعامله الآن تماماً كما تعودت أن أقاوم ـ أيام صباي ـ النظرات الخبيثة للرجال قليلي الحياء. لا

أجفل منهم طرفة عين ولا أولي الأدبار. ترتسم على شفتي ابتسامة احتقار باردة. أتجنب الارتباك أو الشعور بالأسى، وكأنني أقول:

«وماذا يهم إذاً؟!».

وبهذا إني أعرف، وأعترف بأن هذا دفاع حزين.. لكن الخداع حزين أيضاً وقبيح. أنا لم أفرض شروطاً مسبقة مبالغاً فيها: الزجاج يجب أن يبقى شفافاً. طفلة جميلة وحكيمة في معطف أزرق. مربية أطفال ذابلة بدوالٍ في الأوردة تنتشر على أفخاذها. إيفون أوزلاي تسبح في بحر بلا شطآن. على الزجاج أن يبقى شفافاً.

٣٧

في الشتاء تعرف القدس أيام سبوت صافية.. شمسها ساطعة. تكتسي السماء لوناً ليس أزرق سماوياً.. بل أزرق داكناً، وعميقاً جداً، وكأن البحر قد علا، واستقر مقلوباً فوق المدينة. إنه صفاء رائق شفاف مطرز بأسراب من الطيور الطليقة المغموسة في الضياء.. المناظر البعيدة. التلال. المباني. والأحراج تبدو فجأة، وكأنها تهتز بلا توقف. الرطوبة المتبخرة هي سبب هذه الظاهرة.. كما شرح لي ميخائيل. في أيام السبوت كهذه تعوّدنا على تقديم موعد تناول طعام الإفطار. نعم نخرج في نزهة طويلة نترك الأحياء الدينية، ونبتعد حتى حي الطالبية. حتى عين كارم، أو المالحة.. حتى جيفعات شاؤول. في الظهيرة نستريح بأحد الأحراش، ونأكل مما أخذناه معنا لدى خروجنا. قبل حلول المساء نعود إلى البيت في أول حافلة (أوتوبيس) بعد عطلة السبت الدينية. هادئة هي هذه الأيام. أحياناً أتخيل أنني أصدق أن القدس مفتوحة أمامي، وكل خباياها مضاءة. لا أنسى أن الضوء الأزرق هو رؤية متلاشية. ستهاجر الطيور. لكنني قد تعلمت ان أتجاهلها. أنا أهيم. ألا أقاوم.

في إحدى نزهاتنا يوم السبت التقينا في طريقنا بالبروفيسور العجوز الذي درست الأدب العبري عليه. في أيام شبابي. بعد محاولات مضنية

لامست شغاف القلب استطاع الأستاذ أن يتذكّرني، وأن يربط بين شكلي واسمي، وتساءل:

«أي مفاجأة تعدها لنا السيدة في الخفاء؟ أهي مجموعة أشعار؟ نفيت».

البروفيسور تردّد قليلاً. ابتسم في حياء ثم اقترح قائلاً:

«ما أروع قدسنا.. لم يكن هباء حنيننا لها على مر الأجيال. كثيرة هي ظلمات الشتات».

وافقته على رأيه. افترقنا بتصافح الأيدي. تمنى ميخائيل للعجوز العافية. انحنى البروفيسور قليلاً، ولوح بقبعته في الهواء. أسعدني هذا اللقاء.

نقطف فروعاً من زهور البرية. الحوذان. النرجس. بخور مريم. شقائق النعمان. في طريقنا نعبر أراضي مهجورة. نستريح في ظل صخرة رمادية رطبة. من البعد نرى السهل الساحلي وجبال الخليل، وصحراء يهودا:

أحياناً نلعب لعبة الاستغماية (الغميضة) نتساب، ونضحك. ميخائيل منشرح الفؤاد، مرح. بمقدوره أن يصيغ بين الفينة والأخرى انطباعاً نابضاً، مثل:

«القدس هي أكبر مدينة في العالم. بعد أن تعبر شارعين، أو ثلاث تكون وكأنك في قارة أخرى. جيل آخر، وحتى مناخ آخر». أو «كم رائعة الدنيا حولنا يا حنه، وكم أنت رائعة هنا يا قديستي الحزينة».

أما يائير فهو مهتم أساساً بموضوعين: معارك حرب عام ١٩٤٨، وشبكة خطوط المواصلات لشركة «هامقشير» وفي الموضوع الأول لا

تنقص ميخائيل التفسيرات. يشير بيديه.. يعرف الأجسام على امتداد الأفق. يرسم أشكالاً على التراب. يعطي نماذج بمعاونة قطع الحجارة، وسيقان النبات. هنا كان العرب، ونحن هنا. كان في نيتهم الهجوم من هنا، ونحن التففنا حولهم من هناك.

يرى ميخائيل أنه من الصواب أن يشرح للصبي بعض الأخطاء بالتفصيل أيضاً. حسابات عسكرية خاطئة. فشل. حتى أنا أصغي وأتعلم أيضاً. كم كان قليلاً ما عرفته حول حرب القدس. الفيلا التي كانت ملكاً لراشد شحادة والد التوأمين انتقلت لمنظمة الصحة.. فحولتها إلى مركز لرعاية الحبالى والمرضعات. على الأرض الخالية أقيم مجمع سكني. الألمان، واليونانيون غادروا المستوطنة الألمانية والمستوطنة اليونانية. وأتي بأناس آخرين للعيش مكانهم. أضيف للقدس رجال ونساء وأطفال، ليست هذه هي الحرب الأخيرة على القدس. هكذا سمعت من صديقنا السيد قاديشمان وأنا أيضاً أشعر بمؤامرات خفية تستمر في التضخم، والانتفاخ وتضغط على الغشاء من الداخل، وتحيكها قوى لا تعرف الراحة. تذهلني قدرة ميخائيل في شرحه للصبي أموراً معقدة بلغة في منتهى البساطة. إنه تقريباً يتجنب الوصف، وتذهلني أيضاً الأسئلة الذكية، والمركزة التي بمقدور يائير توجيهها.

ورق الحسابات: مقسمة إلى مربعات فيها صور وخطوط.

لم تكن هناك حاجة إطلاقاً لأن أشرح ليائير مصدر الرغبات المتناقضة: هي كانت بالنسبة له مفهومة بطبيعتها. الاحتلال والسلطة. تركزت أسئلة الطفل فقط حول النظام الداخلي في ترتيب الأمور:

عرب. يهود. تل وادي. خرائب. طريق. خندق. مدرعة. تحرك. مفاجأة. توازن.

أيضاً شبكة خطوط المواصلات تسلب خيال ابننا. بسبب العلاقة المركبة التي بين الأهداف التشعيب يثير لديه سروراً بارداً:

حسابات المسافات التي بين المحطات. الحفاظ على التنسيق بين الخطوط الكثيرة، الدخول إلى مركز المدينة ثم التشعب.

في هذا الموضوع بمقدور يائير أن يكون معلماً لكلينا. يتنبأ له ميخائيل مستقبلاً باهراً في أن يصير موجهاً للحركة بشركة الحافلات (الأوتوبيسات) «هامقشير». ولكن ميخائيل لا ينسى أن يؤكد أنه ليس جاداً حين يقول ذلك بالطبع.

يحفظ يائير عن ظهر قلب أسماء أنواع الحافلات التي تعمل على كل خط. أيضاً يجب أن يوضح المغزى وراء استخدام أنواع مختلفة: هنا شارع مهدم. هنا منعطف حاد. هنا طريق غير ممهد. طريقة الصبي في حديثه تشبه إلى حد بعيد أسلوب المحاضرات الذي يتبعه أبوه، كلاهما يكثران من استخدام تعبيرات: وهكذا، على الرغم من.. كنتيجة، وأيضاً تعبير: احتمال ضعيف.

أنا أجهد نفسي في أن أكون تلميذة هادئة، ومصغية لكليهما. ينحني ابني وزوجي على خريطة ضخمة مفروشة على مكتبه العريض. تتناثر على الخريطة رموز مختلفة. دبابيس ملونة مغروسة طبقاً لنظام متفق عليه بينهما. يبدو كل هذا بالنسبة لي كخليط كامل. يدور بينهما نقاش مهذب باللغة الألمانية. يرتدي كلاهما بزات رمادية، ولكليهما رباط عنق بألوان هادئة. مثبت بمشبك من فضة. أنا حاضرة متعبة. أرتدي ملابس ليل

بالية، وغير نظيفة. هما مستغرقان في مهمتهما.. يغمرهما ضوء أبيض، وليست لهما ظلال. يوحي منظرهما بتركيز شديد وبمسؤولية داخلية حذرة. أتدخل. أتفوه بملاحظة ما، أو طلب ما. يبدي كلاهما تعاطفاً ووداً. لا يبديان اشمئزازاً من مقاطعتي لهما. مستعدان لتقديم العون. بسرور سيلبيان طلبي. هل بإمكاني الانتظار حوالى خمس دقائق؟

هناك أيضاً نزهات في أيام السبت من نوع آخر:

حيث نتجول في أرقى أحياء المدينة. رحافيا، أو بيت هاكيريم. نختار لنا بيتاً لنعيش فيه نتفحص المباني التي لا تزال قيد التشطيب. نتبادل الحديث حول مزايا وعيوب الأنواع المختلفة من البيوت. نوزع الحجرات في ما بيننا. نحدد مكاناً لكل قطعة أثاث. هنا نضع ألعاب يائير. هنا المكتب، هنا الكنبة. أرفف الكتب هنا كراسي الفوتيه. البساط.

يقول ميخائيل:

«كان علينا أن نبدأ في التوفير يا حنه! لا نستطيع أن نعيش طوال السنين من اليد إلى الفم». يقترح يائير:

«من الممكن أن نحصل على بعض الأموال من الغرامافون، والأسطوانات. فالمذياع (الراديو) فيه قدر كاف من الموسيقى، وأيضاً الغرامافون يضجر في سماعه».

أنا أقول:

«كان بودي أن أتنزه في أوروبا، وأن يكون هاتف (تليفون) في المنزل، وأن نشتري لنا سيارة صغيرة نستطيع أن نسافر فيها إلى شاطئ البحر في أيام السبت. حين كنت طفلة كان لنا جار عربي اسمه راشد شحادة. كان عربياً غنياً جداً. من المؤكد أنهم يعيشون الآن في أحد

مخيمات اللاجئين. كان لديهم بيت في حي القطمون. كان عبارة عن فيلا مبنية حول فناء داخلي. أحاط البيت بالفناء. بالإمكان الجلوس خارج البيت، ومع ذلك تبقى مختفياً، ومستوراً. بودي أن أعيش في بيت كهذا تماماً، وفي حي أشجار الصنوبر، والصخور. انتظر لحظة يا ميخائيل! لم أصل بعد إلى نهاية قائمتي. بودي أيضاً لو تكون لدي مدبرة منزل بصورة دائمة في البيت وحديقة كبيرة حولنا».

«وسائق ببزة متميزة». يبتسم ميخائيل.

«وغواصة خاصة». يسير خلفه يائير سيراً متأنقاً.. بقدمين صغيرتين لكنهما واثقتان في خطاهما.

«وأن يكون زوجك أميراً، أو شاعراً، أو ملاكماً، وطياراً». يضيف ميخائيل. يائير يقطب جبهته كما تعود أبوه أن يفعل أثناء إعماله للفكر في مسألة معقدة.. يتوقف لحظتين ثم ينفجر:

«وأنا أريد أخاً صغيراً. أهارون في عمري تماماً.. ولديه الآن اثنان. أستحق أخاً».

قال ميخائيل:

«إن شقة هنا في رحافيا، أو في بيت هاكيريم تكلف ثروة كبيرة. لكن لو بدأنا التوفير بصورة منظمة كان من الممكن أن نقترض قليلاً من المال من لدن العمة جينيه وقليلاً من صندوق المساعدات الجامعية بالإضافة إلى شيء من السيد قاديشمان. الأمر ليس مستحيلاً بل ممكن التحقيق».

«لا» أقول أنا «ليس الأمر مستحيلاً، وتحليقاً في السحاب.. بل نحن ماذا نحن؟»».

«لست أنا فقط يا ميخائيل في السحاب. بل أنت أيضاً. إنك أيضاً خلف السحب في الجانب الأزرق منها. عدا الواقعي الصغير يائير».

«أنت متشائمة يا حنه!».

«أنا متعبة يا ميخائيل! فلنعد إلى البيت. تذكرت الكي. في انتظاري ملابس كثيرة تحتاج للكيّ، وغداً سيأتي النقاشون».

«بابا ما معنى واقعي؟».

«هذه كلمة لها تفسيرات عدة يا بني! ماما قصدت بكلمة واقعي الشخصي الذي يتصرف دائماً بحكمة ولا يغرق في الأحلام».

«لكني أيضاً أحلم بالليل».

أتساءل بضحكة صفراء:

«أي نوع من الأحلام تحلم ليلاً يا يائير؟».

«أحلام».

«أي نوع؟».

«كل الأنواع».

«على سبيل المثال؟».

«مجرد أحلام».

ذاك المساء قمت بكي الملابس. في صبيحة اليوم التالي أجريت لشقتنا عملية رش شامل. عادت أعزّ صديقاتي هاداساه. وأعارتني مرة أخرى مدبرة منزلها سيمحاه، استؤنفت أمطار الشتاء. في منتصف الأسبوع دمدمت البالوعات. كانت دمدمتها لحناً حزيناً وغاضباً. انقطع التيار الكهربائي على فترات متقاربة. ولم يعد إلاّ بعد فترات طويلة من

الانقطاع. كان الشارع موحلاً بعد الطلاء والتنظيف أخذت من محفظة ميخائيل خمساً وأربعين ليرة. خرجت إلى المدينة في الفرصة التي بين زخة المطر وأخرى، واشتريت ثريا جديدة لغرفة الاستقبال. من الآن فصاعداً سيكون لديّ ضوء كريستال في غرفة استقبالي. كريستال. كلمة كريستال تروق لي، وأيضاً الضوء الكريستالي نفسه.

٣٨

شبيهة ومتشابهة تمضي الأيام، وأنا نفسي متشابهة. هناك شيء ما ليس متشابهاً. لا أعرف له اسماً. أنا وزوجي كشخصين غريبين خرجا، أحدهما في إثر الآخر إلى عيادة طبية كان بإمكانهما أن يتلقيا فيها علاجاً لنوع من الانزعاج الجسماني. كلاهما محتاران. يقرأ كل منهما ما بداخل بذهن الآخر. يشعران بألفة غير مريحة ومملة. يتلمسان في ضجر إيجاد النغمة الصحيحة التي يتحدثان بها إلى بعضهما. الآن.

رسالة ميخائيل للدكتوراه كانت تقترب من فصولها الختامية. في العام القادم يحدوه الأمل في الفوز بترقية في درجته العلمية.

ظل ميخائيل في صحراء النقب حوالى عشرة أيام في بداية صيف عام ١٩٥٧ ، وذلك للقيام بتنفيذ ملاحظات معينة، وتجارب مطلوبة لإكمال بحثه. أحضر لنا هدية عبارة عن زجاجة مليئة بالرمال الملوّنة طبقاً لكلام أحد زملاء ميخائيل في العمل علمت أن زوجي ينوي أن ينافس بعد إنهاء بحثه في الحصول على منحة تمكّنه من إكمال متواصل في الجيولوجيا النظرية بإحدى جامعات أمريكا. أما ميخائيل نفسه فقد اختار ألا يحكي لي عن نيته هذه. لأن ضعفي معروف لديه. لم يرد أن يثير لديّ أحلاماً جديدة. أحلاماً قد تتبدّد، ربما تأتي بخيبة أمل.

على مدار السنوات حدثت تغييرات بطيئة في حي ماكور ـ باروخ:

مساكن جديدة أقيمت من الجانب الغربي، وطرق تمّ رصفها. بنيت أدوار علوية بطراز حديث فوق أدوار تحتية من العهد التركي. وضعت بلدية القدس مقاعد خضراً. وسلال زبالة في الشوارع الجانبية. تم افتتاح حديقة عامة صغيرة. انتشرت ورش، ومطابع في المناطق المهجورة التي كانت مفروشة حتى ذلك الحين بنباتات برية.. أخذ السكان القدامى في مغادرة الحي. انتقل موظفو الحكومة والوكالة اليهودية للسكنى في حي راحافيا، أو كريات شموئيل. اشترى الموظفون وقاطعو التذاكر شققاً شعبية في الأحياء التي خصصتها الحكومة للإسكان الشعبي، والواقعة جنوب المدينة.

تجار الأقمشة والخردوات انتقلوا للسكن في حي روميما. نحن بقينا لنراقب عن كثب بعض الشوارع التي تموت. كان تآكلاً متواصلاً، وغير محسوس. الظلف. السواتر الحديد علاها المزيد من الصدأ. حفر مقاول من المتدينين الأصوليين أساسات بناية مقابل بنايتنا. جلب أكواماً من الزلط، الجص، والرمل، وفجأة تخلى عن نياته. ربما ندم. ربما مات. أيضاً غادرت عائلة كامنيتسر بيتنا، والقدس وذهبت للعيش في رامات هاشارون. أخذ يورام إجازة من وحدته العسكرية، وجاء للمساعدة في نقل رزم من الأمتعة، حياني يورام من بعيد بحركة يد. بدا لي في زيه التابع لكتيبة الناحال العسكري الديني برونزياً ورشيقاً. لم أتمكن من التحدث إليه.. لأن أباه وقف صارماً. وماذا تبقى لديّ لأقوله ليورام.. الآن. انتقل للعيش في الشقق التي خلت في الحي الكثير من عائلات المتدينين. جاء أيضاً قادمون جدد نجحوا في التأقلم وبصفة خاصة من مهاجري العراق ورومانيا. كان ذلك تحولاً بطيئاً. زادت أعداد حبال الغسيل الممدودة بعرض الشارع من شرفة إلى الشرفة التي تقابلها،

واستطعت أن أسمع في الليل صياحاً بلغة فيها حروف حلقية. بائع خضارنا الفارسي السيد إلياهو موشيح باع حانوته لأخوين متخاصمين على الدوام. حتى تلاميذ المدرسة الدينية للبنين «تحكموني» بدوا لي أكثر همجية، وأكثر عنفاً، أكثر من السنين السابقة. في نهاية شهر مايو/ أيار مات أحد معارفنا المقربين السيد قاديشمان بمرض الكلى. اختار أن يترك مبلغاً بسيطاً لفرع حزب التحرير «حيروت» في القدس. أما كل كتبه فقد أوصى بها لميخائيل ولي. كتب لكل من هيرتسل، نورداو، جابوتينسكي، وكلاوزنر في وصيته. أيضاً طلب السيد قاديشمان من محاميه أن يأتي إلينا، ويشكرنا على البيت الدافئ الذي فتحناه أمام المرحوم. كان السيد قاديشمان رجلاً وحيداً.

خلال صيف عام ١٩٥٧ ماتت أيضاً مربية الأطفال العجوزة سارة زلدين بعد أن صدمتها ناقلة عسكرية في شارع ملاخي، وأُغلقت أبواب روضة الأطفال. وجدت وظيفة لبعض الوقت كموظفة أرشيف بوزارة التجارة، والصناعة. «آبا» زوج هاداساه أعزّ صديقاتي هو الذي دبّر لي هذه الوظيفة، وفي الخريف مات ثلاثة أشخاص من سكان القدس كانوا أصدقاء لعائلتنا أيام طفولتنا. أنا لم أحك قصتهم من قبل لأن النسيان نجح في أن يحفر بي شقوقه. ليس هناك جهد بمقدوره أن يصمد في وجه هذا النسيان. عزمت على أن أكتب هنا كل شيء. من غير الممكن كتابة كل شيء. معظم الأشياء تهرب لتموت في صمت.

في شهر سبتمبر/ أيلول بدأ ابننا يائير الدراسة بالمدرسة الابتدائية «بيت هاكيريم». اشترى له ميخائيل هدية عبارة عن حقيبة بنية.. أما أنا فاشتريت له كيس أقلام.. مبراة أقلام.. أقلام رصاص، مسطرة. العمة ليئه

أرسلت بالبريد مجموعة ضخمة من ألوان الزيت. من نوف ـ هاريم جاءه كتاب «القلب» بقلم داميتس بغلاف جميل.

في شهر أكتوبر/ تشرين الأول، عادت لبيتها جارتنا السيدة دوبة جليك من المصحة العقلية. هي أبدت نوعاً من المسالمة الهادئة. بدت لي هادئة وساكنة السيدة جليك بعد عودتها لبيتها. كبرت في السن، وزاد وزنها جداً. ذبل منها الجمال الساحر، والبض الذي امتازت به بسبب عدم إنجاب الأطفال. لم نعد نسمع في بيتنا النوبات الهستيرية، وصرخات اليأس فاترة الشعور، عادت السيدة جليك من العلاج الطويل رقيقة وحانية. ساعات طويلة كانت تجلس قرب فنائنا على درابزين الجدار، وتنظر إلى الشارع.. تنظر وتضحك من غير صوت، وكأنما تحول شارعنا ليصبح مكاناً سعيداً.. ومسلياً.

قارن ميخائيل السيدة جليك بالممثل المسرحي ألبرت كريسبن الزوج الثاني للعمة جينيه الذي أصيب بانهيار الأعصاب، وحين تماثل للشفاء هاجمه فتور كامل للشعور. على امتداد ستة عشر عاماً ظلّ يعيش في بنسيون بمدينة نهاريا.. لا يعمل شيئاً سوى النوم، والأكل والنظر. ما زالت العمة جينيه تنفق عليه من أموالها.

على أثر نزاع مرير تركت العمة جينيه عملها في قسم الأطفال بالمستشفى الكبير الذي كانت تعمل فيه، وبعد محاولات ومجهودات تمكنت من العمل كطبيبة ممارسة في مؤسسة علاجية خاصة في رامات جان لعلاج الطاعنين في السّن، والمصابين بأمراض القلب المزمنة، أصابني الفزع حين جاءت العمة لزيارتنا في عيد السكوت (المظال) الإكثار من تدخين السجائر غيّر من صوتها. أصبح صوتها أجش،

وعميقاً. حين كانت تسعل بشدة كانت تتمتم من بين شفتيها المضمومتين عبارة: «اخرسي يا حمقاء يا كوليرا». تحول شعر العمة إلى اللون الرمادي، وأيضاً أصبح خفيفاً، ووجهها أشبه بوجه رجل عجوز غليظ القلب. على فترات متقاربة خلت ذاكرتها من أية كلمة عبرية. كلما كانت تشعل سيجارة جديدة وكانت تطفئ عود الثقاب بحركات عصبية، وبزفرة من فمها أشبه بالبصاق. تتحدث بالييديش.. تلعن نفسها بلغة بولندية لها صفير. هاجمتني لأنني لا أعرف أن أختار ملابس مناسبة لمركز زوجي. هاجمت ميخائيل لأنه يخضع لي في كل الأمور كخرقة بالية تافهة، وليس كرجل. كان يائير في نظرها بذيئاً وقحاً، وغبياً. حلمت بها ليلة سفرها، واختلطت هيئتها بهيئة الأشباح القديمة التي في القدس من أصحاب الحرف، والباعة الجوالين الذين عفّى عليهم الزمن. خفت منها. خفت أن أموت وأنا صغيرة في العمر. وخفت أن أموت وأنا عجوز.

أثارت أحبالي الصوتية قلق الدكتور أورباخ. مرات عديدة عاد صوتي ليضيع مني عدة ساعات. فرض الطبيب عليّ الالتزام بعلاج مستمر. هذا العلاج تضمن التزامات معينة سبّب لي ضعفاً جسمانياً.

لا زلت إلى الآن استيقظ في الفجر، وأنا منتبهة إلى الأصوات الشريرة وإلى الكابوس الذي يعود بملامح لا تعرف الكلل: أحياناً حرب. أحياناً فيضان.. كارثة سكة حديد. ضياع. ودائماً كانت أذرع رجال أشداء تنقذني. كانوا ينقذونني فقط لكي يخونوا أو يعذبوا.

كنت أوقظ زوجي من نومه. أختبئ تحت بطانيته (حرامه) ألتصق إلى جسمه.. بكل قوتي. أنتزع. وأنتزع من جسمه التحفظ المصون.

أصبحت ليالينا أكثر إزعاجاً كما لم يحدث من قبل. أذهلت ميخائيل في جسمي وجسمه. أطلعته على ضواحٍ ملونة قرأتها في الروايات، ممرات ملتوية فككت رموزها من أفلام السينما. كل ما هو مخزون من الذي سمعته سراً في أيام طفولتي من البنات، وهن يقهقهن كل ما عرفت وخمنت من أشد أحلامي عن الرجال وحشية وتعذيباً. كل ما علمتني إياه أحلامي. توهجات الوجد المرتجف. فيضان. ارتعاشة جارفة في أعماق بحيرات ثلجية. رغبة في سقوط رقيق.

ومع ذلك تجاهلته. تعاملت مع جسمه فقط. عضلات. أذرع. شعر. في داخلي أني أخونه وأخونه مع جسمه. كل ذلك انغماس أعمى بأعماق هاوية دافئة. لم تبق لدي أي فتحة أخرى. في القريب العاجل ستوصد هذه الفتحة أيضاً.

ميخائيل لم يعرف أن يصمت أمام الفيض الملتهب، والمحموم الذي كان ينهمر عليه قبل مطلع الفجر. في الغالب كان يذعن، وينهار أمامي مع الأحاسيس الأولى. هل ربما شعر ميخائيل من وراء ذلك الفيض الهائل من الإثارة أيضاً بطعم الخزي المرير الذي جلبته إليه. مرة واحدة تجرّأ وسألني هامساً: هل بدأت أحبه من جديد. سأل ذلك برهبة واضحة لدرجة أن كلينا أدرك أنه ليس لديه ما يجيب. في الصباح لم تبد على ميخائيل أي علامات.. كان كعهده دائماً، عطفه المتحفظ، لا كرجل أصابه الخزي ليلاً.. بل كشاب رقيق يطارد للمرة الأولى فتاة مجربة ومتغطرسة. ألربما نموت أنا وأنت يا ميخائيل من دون أن يلمس أحدنا الآخر ولو لمرة واحدة.. أن نلمس أن نتداخل.. إنك لا تفهم

معنى ضياع هذا في داخل ذاك.. ذوبان. انصهار. نمو داخلي. التحام جارح. ليس بمقدوري أن أشرح. تعبت. أريد أن أنام. وأنام.

ذات مرة اقترحت على ميخائيل لعبة: كل واحد فينا يحكي كل شيء حول حبه الأول. لم يفهم ميخائيل قصدي: فأنا حبه الأول، والأخير. حاولت أن أوضح له: لقد كنت طفلاً.. كنت فتى. قرأت قصصاً.. كانت في صفك الدراسي فتيات. تحدث! إحك! هل فقدت الذاكرة وكل المشاعر. تكلم. انطق! توقف عن الصمت طوال الأيام. توقف عن التصرف يوماً وراء الآخر وكأنك عقرب في منبه. ولا تخرجني عن عقلي. أخيراً لمع برق في عيني ميخائيل إدراك مقهور.

بدأ يقص بكلمات حذرة، ومن دون تطرق لنعوت، عن نوع من المخيم الصيفي للمبيت منذ زمن في مستوطنة عين جارود، عن صديقته ليئوراه التي تعيش حالياً في مستوطنة طيرات ياعر، عن نوع من تمثيل لمحاكمة زائفة كان عليه أن يلعب فيها دور المدعي العام، وليئوراه هي المتهمة.. عن التسبب في إهانة جارحة، عن مدرس للألعاب البدنية اسمه يحيعام ييلد الذي كان يهين ميخائيل بتلقيبه «الأحمق جانتيس» لأن ردود فعله الجسمانية كانت بطيئة. عن خطاب. عن توضيح شخصي للمدرب في حركة الشبيبة، ومرة أخرى عن ليئوراه. عن اعتذارات. وهكذا...

كانت قصة فقيرة. حتى لو تحتم عليّ أن ألقي محاضرة في الجيولوجيا فلن أرتبك إلى هذا الحد. على طريقة المتفائلين تعامل ميخائيل مع الحاضر وكأنه يتعامل مع مادة عديمة الشكل.. ملساء.. منها يجب أن نصوغ المستقبل.. من خلال عمل دؤوب، ومسؤول كان

الماضي بنظره أبعاداً مثيرة للشكوك. كابوساً جاثماً. وإلى حد ما غير ضروري. بدا الماضي لميخائيل وكأنه عبارة عن قشور فارغة. يجب التخلص منها. لكن ليس بنثرها على طول الطريق حتى لا تعوق المشاة. بل بجمعها والتخلص منها. أن نكون بسطاء في إصرار. أن نلتزم في مسؤولية بالمشروع الذي وضعناه نصب أعيننا فقط. قلت من دون أن أكتم اشمئزازي الداخلي:

«من أجل ماذا نعيش؟ قل لي من فضلك يا ميخائيل!».

لم يتسع ميخائيل في الإجابة على سؤالي. بل دقق في السؤال أثناء التقاطه بعض الفتات من الطاولة وجمعها في كوم صغيرة أمامه.. أخيراً حدد: «سؤالك ليس له أي معنى. معظم الناس لا يعيش من أجل. بل يعيشون فقط. نقطة.».

قلت:

«خلقت، وستموت أيضاً، وأنت صفر مهين يا ميخا جانتيس! نقطة آخر الجملة».

قال ميخائيل:

«لدى كل إنسان حسنات وسيئات. ستقولين إن هذه جملة سخيفة. صحيح. لكن سخيف ليس عكس حقيقي. يا حنه أيضاً جملة اثنان في اثنين يساوي أربعة هي جملة سخيفة، ومع ذلك هذا..».

«ومع ذلك يا ميخائيل سخيف هو عكس حقيقي. وأنا سأجن ذات يوم تماماً مثل دوفاه جليك، وستكون أنت المسؤول يا دكتور أحمق جانتيس!».

قال ميخائيل:

«اهدئي يا حنه».

في المساء تصالحنا.. اتهم كل منّا نفسه بالتسيب في الشجار، وطلب كل منا صفح الآخر، وخرجنا معاً لزيارة شقة أباد وهاداساه الجديدة بحي راحافيا.

عليّ أيضاً أن أسجل ذلك:

ننزل ميخائيل وأنا إلى الفناء لتنفيض البساط الممدود على السرير. بعد عدة محاولات نتمكن من تنسيق حركاتنا، ونقوم بالتنفيض في حركة واحدة ويزول الغبار. بعد ذلك انطوى البساط. يبتعد. يظل ممسكاً بالأطراف الجديدة التي نشأت بعد الثنية الأولى. يفرد ذراعيه. يقترب. يبتعد. يمسك. يقترب. يناول.

«كفى يا ميخائيل يكفي. انتهينا».

«نعم يا حنه!».

«شكراً لك يا ميخائيل!».

«لا داعي لشكري يا حنة! فالبساط ملك لنا نحن الاثنين».

والفناء آخذ في العتمة. إنه المساء.. النجوم الأولى.. نواح مكتوم من بعيد! امرأة تصرخ. أو لحن في المذياع. برد.

٣٩

مريح عملي الجديد بوزارة التجارة والصناعة. مريح أكثر من عملي السابق في روضة أطفال المرحومة سارة زلدين بكثير. من التاسعة صباحاً، وحتى الواحدة بعد الظهر أجلس في مبنى فندق بالاس سابقاً. في الغرفة التي استخدمتها سابقاً القائمات على الخدمة في الفندق لتبديل ملابسهن. تصل إلى مكتبي تقارير من مختلف المصانع في طول البلاد وعرضها. مهمتي هي أن أنسخ منها معطيات معينة، وأن أقارنها بالمعلومات المكتوبة في الملفات المغلقة بالكرتون، الموضوعة فوق رف إلى شمالي. أدوّن نتائج المقارنة وأيضاً الملاحظات التي تظهر على الهوامش.. ثم أحول نتائج عملي إلى قسم آخر.

إنه عمل ممتع، خاصة بفضل السحر الذي لا ينتهي، والكامن في أسماء: مشروع هندسي تجريبي. مجمع كيماوي. أحواض السفن. معامل المعادن الثقيلة. اتحاد صناعات الصلب.

هذه الأسماء تأتيني لتدلني على نوع ما من وجود راسخ. إنني لا أعرف. ولا أشتاق أن أعرف هذه المشاريع البعيدة.. يكفيني التأكد الملموس من حقيقة وجودها في مكان بعيد.. هي باقية، وتؤدي مهمتها. تحدث فيها تغيرات. حسابات. مواد خام. أرباح. تخطيط تدفق قوي، الأشياء، وأماكن وأشخاص، وآراء.

إني أعرف: إنها بعيدة جداً.. لكن ليست في ما وراء جبال الظلمة، ولا تغمرها الشكوك.

في شهر يناير/ كانون الثاني من عام ١٩٥٨ تمّ تركيب هاتف (تليفون) في شقتنا. حظي ميخائيل بحق الأولوية بفضل مركزه الأكاديمي. أفادتنا أيضاً العلاقات الجيدة التي يتمتع بها صديقنا أبا. أيضاً في موضوع استبدال الشقة ساعدنا أبا مساعدة هائلة: فقد رتب بأن وضع على رأس قائمة الانتظار للإسكان الحكومي في نطاق أحد المشاريع الحكومية للإسكان. نحن سنعيش في حي من المقرر أن يكون بناؤه على الطراز الحديث فوق مرتفع خلف حي «بيت فاجان»[1].. في مكان نطل منه على جبال بيت لحم، وأطراف عمق رفائيم. دفعنا مبلغاً أولياً ووقعنا على الالتزامات. وعدونا بناء على بنود العقد أن نتسلم مفاتيح الشقة الجديدة عام ١٩٦١.

في المساء وضع ميخائيل على الطاولة زجاجة نبيذ أحمر، وأيضاً إكليلاً كبيراً من زهرة الأقحوان اشتراه لي. احتفالاً بالمناسبة ملأ كأسين حتى منتصفهما، وقال:

«في صحة الأوقات الهنية يا حنه! إنني متأكد في أن الجيرة الجديدة ستؤثر عليك تأثيراً مهدئاً. حي ماكور ـ باروخ يسبب الحزن».

قلت: «نعم يا ميخائيل».

قال ميخائيل:

---

(١) بيت فاجان: معناه باللغة العبرية منزل وحديقة.

«طوال السنين حلمنا بتغيير الشقة. ستكون لدينا ثلاث غرف منفصلة إلى جانب مكتب مستقل. كان أملي أن أراك سعيدة هذا المساء».

«إني سعيدة يا ميخائيل.. ستكون لدينا شقة جديدة تحوي عدة غرف مستقلة. حلمنا دائماً بالسكنى في شقة أخرى. حي ماكور ـ باروخ يسبب لنا حزناً» هذا بالضبط ما قلته.

قال ميخائيل بدهشة:

«بالضبط أنت قلت ذلك».

ابتسمت وأضفت:

«بعد ثماني سنين من الزواج يكون من شأن الزوجين أن يصوغا أفكارهما بكلمات متشابهة».

«الزمن والمثابرة سيحققان ما نصبو إليه يا حنه! وسترين بنفسك. مع الوقت قد نسافر معاً في نزهة لأوروبا، وربما إلى أبعد من ذلك.. مع الوقت سيصير لدينا سيارة صغيرة. مع الوقت ستشعرين بتحسن».

«مع الزمن والمثابرة سيتحسن كل شيء يا ميخائيل! هل لاحظت بأن أباك يحزقائيل هو الذي تحدث الآن من حلقك؟».

«وبهذا» قال ميخائيل «لم أفكر في ذلك.. لكن الأمر ممكن وطبيعي أيضاً. فأنا ابن أبي».

«بالتأكيد.. ممكن طبيعي. أنت ابنه. هذا فظيع يا ميخائيل فظيع!».

أبدى ميخائيل ملاحظة حزينة:

«ما هو الفظيع في ذلك يا حنه! إنك للأسف تسخرين من أبي وقد

كان شخصاً عفيفاً، وأنت لست صادقة في أقوالك هذه، وكان من الواجب ألا تقولي ذلك!».

«حدث بيننا سوء تفاهم يا ميخائيل! الفظيع ليس في أنك ابن أبيك. الفظيع في أن أباك يبدأ الحديث فجأة من داخل حلقك، وجدك زالمان، وجدي، وأبي، وأمي، وبعدنا يكون يائير. كلنا.. كأننا نتعاقب شخصاً على إثر شخص. كلنا مسودات مرفوضة. نسخة جديدة تظهر بعد الأخرى. مسودة طبق الأصل. بعد أن تتلف بالكرمشة (الجعلكة) تلقى في سلة المهملات، وتظهر مسودة أخرى بتغيير بسيط. يا له من انعدام للجدوى. يا له من فتور. يا لها من نكتة سخيفة».

وجد ميخائيل في كلماتي هذه أنها تثير الصمت. وخلال ذلك التقط ميخائيل مشبك ورق من داخل علبته.. ثناه بحذر عدة ثنيات.. صنع منه قارباً صغيراً. تفحص القارب بنظرة حذرة، ووضعه برقة على الطاولة. أخيراً اختار أن يشير إلى أن أرى الحياة في قالب أدبي للغاية. ذات مرة قال المرحوم أبوه:

«إن حنه شاعرة.. رغم أنها لا تقرض الشعر».

بعد ذلك أراني ميخائيل تخطيطاً للشقة حديثة الطراز التي سنعيش فيها في المستقبل القريب. حصل على هذا الرسم التخطيطي صباح اليوم أثناء توقيعه على التعهد المالي. شرح كعادته بلغة واضحة وموضوعية. أنا طلبت أن أفهم معلومة معينة. عاد ميخائيل وشرحها. وللحظة انتابني نفس الانقباض. ليست هذه على أية حال هي المرة الأولى. قد اشتركت ذات مرة في هذا الوقت، والمكان. كل الكلمات قد قيلت في الزمن الغابر. حتى القارب الورقي ليس جديداً. أيضاً دخان الغليون الذي

يتموّج في صعوده إلى المصباح الذي في السقف. طنين الثلاجة الكهربائية، ميخائيل، أنا، الجميع، كان الأمر بعيداً جداً لكنه واضح.. كحبات البرد.

في ربيع عام ١٩٥٨ أصبح لدينا مدبرة منزل دائمة. امرأة أخرى تدير من الآن شؤون المطبخ. لن يتحتّم عليّ مرة أخرى أن أعود منهكة من المكتب لأتساقط بسرعة على الثلاجة وعلى فرن البوتاغاز لتسخين محتويات علبة محفوظة. أقوم بخرط الخضار بالسكين. أن أعتمد على الأدب الطبيعي الذي يتحلّى به ميخائيل وابنه في أنهما لا يتذمران من الوجبة ذات الوتيرة الواحدة المتكررة.

كل صباح أعطي «فورتونا» قائمة بالطلبات بعد أن تلبي كل طلب تمحوه بخط غليظ. إنها ترضيني.. حريصة.. أمينة، وضيقة الأفق.

لكني رأيت على وجه زوجي في مرات معدودة تعابير كانت جديدة. لم أر مثلها طوال سنوات زواجنا.

حين نظر ميخائيل لجسم الفتاة بزاوية، ظهر على وجهه تغيرات، توتر، خجل، فمه فاغر، رأسه مائل بزاوية وقد تجمدت الشوكة والسكينة في يديه لطرفة عين. هذا الأمر كان يشبه إلى حد كبير منظر غباء تام. نوع من مشهد تمثيلي صعب الاستيعاب. كطفل ذكي ضبطوه يغش في الامتحان، ولهذا منعت فورتونا من أن تتناول معنا وجبة الغداء. كنت أطلب منها القيام بالكي، أو بإزاحة الغبار، أو طي الفوط، والغسيل، والمناشف. هي تتناول الطعام بمفردها. بعدنا.

أبدى ميخائيل ملاحظة:

«آسف يا حنه! لأنك تعاملين فورتونا كما تعوّدت سيدات في الجيل

الغابر معاملة أمائهن. هي ليست خادمة. ليست ملكنا. هي امرأة عاملة. تماماً مثلك».

سخرت. قلت:

«مرحباً أيها الرفيق جانيتس!».

قال ميخائيل:

«الآن حديثك غير موزون».

«قلت فورتونا ليست خادمة. وليست تابعة لنا. إنها امرأة عاملة، غير الموزون هو أن تظل أنت في حضوري، وحضور الطفل تلتهم جسدها بعينيك العجلاوين الجاحظتين. غير معقول، وأيضاً في منتهى الغباء». بهت ميخائيل. شحب لونه. بدأ يجيبني.. تراجع. صمت. فتح زجاجة صودا. وصبّ في حذر كؤوساً ثلاثاً.

أثناء عودتي ذات يوم من العيادة الطبية التي أتلقى فيها علاجاً مستمراً لحلقي وحبالي الصوتية.. خرج ميخائيل من البيت في اتجاهي. قابلني قرب الحانوت الذي كان ذات مرة ملكاً للسيد إلياهو موشيح، والآن يجلس فيه أخوان ثائران دائماً. كان في جعبته نبأ سيئ. مصيبة صغيرة ألمّت به.. لم يكن وجهه فزعاً.. بل أقرب إلى الخجل. كأنه قد اشترك في مزاح ومزّقوا له قميصه.

«نكبة يا ميخائيل؟».

«مصيبة صغيرة».

فقد وصل إليه العدد الأخير من دورية علمية تنشرها الجمعية الجيولوجية الملكية ببريطانيا العظمى.. نشرت الدورية مقالاً بقلم

بروفيسور معروف من جامعة كامبريدج يناقش ما توصل إليه ميخائيل في أبحاثه. كانت نظرية جديدة مروعة للغاية حول عوامل التعرية. افتراضات معينة كانت أساساً لبحث ميخائيل ثبت عدم صلاحياتها بأسانيد قوية.

«رائع». قلت إلى الأمام يا ميخائيل غونين صارع هذا الإنكليزي علمياً. دمره. لا تستسلم.

«لا أستطيع». أجاب ميخائيل بصوت خجول:

«غير ممكن هو صادق أقنعني».

على طريقة طلبة الآداب.. كنت أعتقد دوماً بأن كل الحقائق قابلة بل وخاضعة لتأويلات مختلفة، وأن الباحث الجاد، والمصمم يكون حراً دائماً في استيعاب الحقائق الأولية.. ثم يفرض عليها إرادته.. لو أنها إرادة رجولية قوية. قلت:

«خضعت من دون مقاومة يا ميخائيل! كان بودي أن أراك تناضل وتنتصر. كنت أفتخر بك دوماً».

ابتسم ميخائيل.. لم يجب. لو كنت أنا يائير كان سيتحمل مشقة إجابتي. أهنته، وسخرت منه:

«مسكين من هو على شاكلتك. الآن يتحتّم عليك تمزيق كل أبحاثك. يتحتم عليك أن تبدأ من جديد».

ومع هذا أستطيع أن أجزم الأمر ليس ميئوساً منه. فقد قابل ميخائيل هذا الصباح أستاذه للتحدث معه.. إنها ليست كارثة شاملة. عليه أن يلغي، وأن يعيد من جديد، الفصول الافتتاحية في بحثه.. كما ستحدث تغييرات في فصول ثلاثة مكانها وسط البحث.. الجزء الخاص بالنتائج لم ينته بعد، ومن الممكن استكماله طبقاً للتقديرات الجديدة، لم تتأثر

الفصول الوصفية.. بل ستبقى على حالها. سيتطلب الأمر منه عاماً آخر، وربما أيضاً أقل من ذلك. وافق الأستاذ المشرف على بحثه على إعطائه مهلة إضافية.

فكرت في ما بيني وبين نفسي: حين وقع ستروغوف في أسر التتار الاشرار كان بنيتهم أن يفقأوا عينيه في قسوة بحديد منصهر. كان ستروغوف رجلاً صلباً للغاية. لكن كان لديه رصيد في الحب الوفير. من شدة الحب امتلأت عيناه بالدموع. دموع الحب أنقذت نور عيني ستروغوف في أن يتخفى كرجل أعمى حتى نهاية مهمته الصعبة التي فرضها عليه القيصر الروسي في بيترسبرغ: فالمبعوث، وأيضاً البعثة قد أنقذهما الحب، والقوة. وربما في البعد سمعت أذناه صدى صافياً للحن متواصل. فقط من خلال التركيز كان بإمكانه الإصغاء للألحان البعيدة جداً. فرقة موسيقية بعيدة أخذت تعزف، وتعزف من وراء الغابات.. من وراء التلال، والمروج. الشباب يشير، ويعزف. رجال شرطة أقوياء. يركبون خيول شرطة هادئة، وقوية. فرقة موسيقية عسكرية بأزياء بيض ذات أشرطة ذهبية. أميرة. احتفال. بعيداً جداً.

في شهر مايو/ أيار، ذهبت إلى مدرسة بيت هاكيريم لمقابلة مدرِّسة صف يائير. كانت فتاة ذهبية الشعر. زرقاء العينين. تشبه بنت ملك من قصة مصوّرة للأطفال الصغار. طالبة جامعية. امتلأت القدس في الفترة الأخيرة بالفتيات الجميلات. أيضاً من بين صديقاتي كانت بعض الفتيات الجميلات بالفعل منذ عشر سنين. وأنا. لكن مع الجيل الجديد ساد نوع من الاتجاه المختلف. بناء تشكيلي متحرك. جمال خفيف من دون عناء. لم أحببهن. حتى الملابس الطفولية التي اخترن ارتداءها.

طبقاً لكلام معلمة يائير كان الطفل غونين ممتازاً في الفهم المنظم. ويتمتع بذاكرة قوية، وانتباه وتركيز.. ولكن كانت تنقصه القدرة على الإحساس النفسي. فها هم على سبيل المثال يتعلمون في الصف قصة الخروج من مصر[١]، والضربات العشر. أبدى معظم الأولاد فزعاً شديداً.. ربما مشوش وذلك من قسوة المصريين، ومعاناة العبريين.. أما الطفل غونين فقد سأل أسئلة تتعلق بانشقاق البحر الأحمر. كان لديه اعتراض منمّق على أقوال التوراة، واختار أن يشرح قوانين المد والجزر، وكأنه لا المصريون ولا العبريون يدخلون نطاق اهتماماته.

قدر من السعادة، والحيوية بعثتهما هذه المعلمة الصغيرة إلى من حولها. حين وصف زالمان الصغير ابتسمت، وحين ابتسمت أضاء وجهها، كأنه لم يبق به جزء لا يشترك في الابتسامة. كرهت حتى درجة الاشمئزاز بصورة مفاجئة الفستان البني الذي كنت أرتديه.

بعد ذلك في الشارع وقع ناظري على طالبتين جديدتين. كانتا تجهران بصوتيهما وجميلتين حتى الألم. جمال طاغ. كانتا تحملان في

---

(١) قصة الخروج من مصر:
وقد وردت هذه القصة في سفر الخروج الذي يقع في أربعين إصحاحاً.. تبدأ بالحديث عن اضطهاد الفراعنة لبني إسرائيل بعد أن عظم شأنهم وكثر عددهم خلال الأجيال التي انصرمت منذ موت يوسف. في تلك الفترة يولد موسى فيحكي هذا السفر قصة مولده ونشأته وتحركاته في منطقة الشرق الأدنى، وبخاصة صحراء سيناء وأرض مدين إلى أن يأتيه الوحي الإلهي على جبل الطور بالبدء في تحدي فرعون والعمل على إخراج اليهود من مصر (أرض العبودية) وقد تم له ذلك فعبر بهم البحر، وبدأت رحلتهم عبر سيناء من الإصحاح الخامس عشر. أما الضربات العشر التي ذكرت التوراة أنها أصابت المصريين أيام الخروج من مصر فهي: دم، ضفادع، قمل، طاعون، وباء، دمامل، برد، جراد، ظلال، بكور.

أيديهما حقائب من القش، وترتديان سترتين (كنزتين) ذاتي فروق طويلة على امتداد خطوط الجانبين. رأيت في ضحكاتهما المجلجلة قلّة حياء، وكأن القدس كلها ملك لهما. لدى عبورهما أمامي قالت إحداهن لصاحبتها:

«من الممكن أن يصيبني الجنون منهم.. إنهم ببساطة ليسوا طبيعيين».

وضحكت صديقتها:

«يستطيع كل إنسان أن يأخذ الحياة كما يريد، من جانبي حتى ولو انتحروا من السطح».

القدس آخذة في الاتساع: طرق. شبكة مجارٍ حديثة. مبانٍ. توجد بالفعل أماكن معينة تبعث على الاعتقاد للحظة أنها مدينة عادية: طرق ممهدة مستقيمة، وفيها مقاعد للاستراحة. لكن سرعان ما تتبخّر هذه الصورة، وتصبح واهنة للغاية. يكفيك أن تلقي نظرة لتجد أن قلب العمران الشامخ حقول صخرية. أشجار زيتون. أرض قاحلة. أودية وافرة الخصوبة. آثار ورسومات على الأرض محتها آثار أقدام جديدة وكثيرة. عند مكتب رئيس الوزراء الذي بنوه في الحي الجديد. تبعثر قطيع من الضأن. كباش تقضم العشب في سكينة. راع عجوز تجمّد على الصخرة المقابلة. الجبال تحدّها الخرائب. الريح مع أشجار الصنوبر. السكان. في شارع هيرتزل رأيت عاملاً أسمر البشرة. عارياً حتى وسطه. ويحفر قناة بعرض الشارع بمعاونة مثقاب آلي ثقيل. كان العامل يتصبّب عرقاً، ولمعت بشرته كالنحاس الأصفر. وارتجّت، وارتجّت كتفاه مع اهتزازات

المثقاب الضخم، وكأنما لا يستطيع الرجل التحكّم بعد الآن في تدفّق تيارات طاقته، وفجأة سيخطئ ويتهاوى.

إعلان نعي ملصق على جدار مؤسسة المسنين الواقعة في نهاية شارع يافا علمت منه نبأ وفاة الورعة المتدينة السيدة ترنو فولر التي كانت صاحبة المنزل الذي عشت فيه قبل زواجي. السيدة ترنو فولر هي التي علّمتني أن أغلي الشاي مع أعشاب النعناع كترياق لنفس عليلة. حزنت لموتها، ولنفسي، ولكل نفس عليلة.

حكيت ليائير قبل النوم قصة تذكرتها حرفياً منذ أيام طفولتي البعيدة.. كانت تلك هي القصة الرائعة حول الفتى دافيد حسن الصفات الذي كان مرتباً كل الأوقات. أحببت هذه القصة. قصدت أن أجعل ابني يحبها أيضاً.

سافرنا في الصيف نحن الثلاثة إلى تل ـ أبيب للاستجمام على شاطئ البحر. مرة أخرى استضافتنا العمة ليئه في شقتها في بيت قديم في حارة روتشيلد المليئة بالأشجار. أمضينا هناك خمسة أيام. ذهبنا في صبيحة كل يوم إلى شاطئ البحر الجنوبي. على مشارف بت ـ يام. أسرعنا بعد الظهر إلى حديقة الحيوان، إلى لونا بارك، إلى السينما. ذات مساء سحبتنا العمة ليئه لعرض في الأوبرا. كان المكان مكتظاً بسيدات بولنديات في خريف العمر، ومرصّعات بكثير من الذهب. هن أخذن ينتقلن من مكان لآخر ببطء ملوكي، وكأنهن سفن حربية ثقيلة. أنا وميخائيل هربنا من هناك أثناء الاستراحة. نزلنا إلى شاطئ البحر.. تجوّلنا على الرمال بطول المدينة حتى الشمال.. حتى سور الميناء. الرغبة غمرتني تماماً حتى أخمص قدمي. كأنها ألم. كأنها رجفة. رفض ميخائيل

وحاول أن يشرح.. لم أصغ له. بكل القوة التي كانت غريبة عني مزقت قميصه من عليه، وأسقطته على الرمال، وكانت عضة. تنهيدة، أنا وطئته بكل أعضاء جسمي كما لو كنت أثقل منه وزناً. وهكذا عدت لأكون طفلة بمعطف أزرق، وهي تتصارع منذ سنوات عديدة. في الفسحة (الفرصة) التي بين الدرس والآخر.. مع أطفال أقوى منها بكثير: باردة، وملتهبة. تبكي وتسخر. البحر اشترك، والرمال أيضاً. كانت هناك وخزات ضعيفة من المتعة الفظّة الخشنة المبتذلة. تنفذ. تخترق، وتلفح. كان ميخائيل خائفاً. مرة أخرى لا يعرفني. غمغم. أنا غريبة عنه، وأنا لا أعجبه. سعدت لأنني غريبة عنه ولم أرد أن أعجبه.

حين عدنا في منتصف الليل لشقّة العمّة ليثه اضطر ميخائيل أن يشرح بوجه به احمرار الخجل لعمته القلقة لماذا قميصه ممزق، وبعض الخدوش الخفيفة في خديه.

«تنزّهنا.. وحاول قاطع طريق أن يهاجمنا، وكانت.. أحداث غير سارة».

قالت العمة ليثه:

«يجب أن تتذكر جيداً وظيفتك، ووضعك يا ميخا! الرجل من نوعيتك محظور عليه أن يتورط في فضائح».

انفجرت ضاحكة، واستمرّ ضحكي الداخلي حتى مطلع الفجر.

في صبيحة اليوم التالي أخذنا يائير لزيارة السيرك في رامات جان. مع نهاية الأسبوع عدنا إلى البيت. علم ميخائيل أن صديقته ليئوراه من مستوطنة طيرات ـ ياعر تركت زوجها. أخذت معها طفليها، وانتقلت للعيش كمطلّقة في مستوطنة حديثة بصحراء النقب. نفس المستوطنة التي

أسسها بعد حرب عام ١٩٤٨ أبناء صفه الدراسي التي كانت فيه مع ميخائيل. هذا النبأ أثر على ميخائيل تأثيراً سيئاً. ارتسم على وجهه نوع من الخوف الحانق. كان مقهوراً، وصامتاً. أكثر صمتاً مما هي عليه عادته دائماً. ذات مرة بعد ظهيرة أحد أيام السبت وقف لتغيير المياه في المزهرية. حدث في حركاته نوع من التردّد المفاجئ. حركة بطيئة تبعتها حركة تعديل سريعة جداً قفزت، وأمسكت بالمزهرية الساقطة. وهي في الهواء. في صبيحة اليوم التالي خرجت للمدينة لشراء هدية له. قلم حبر من أغلى الأنواع.

٤٠

في ربيع عام ١٩٥٩، وحوالى ثلاثة أسابيع قبل عيد الفصح استكلمت رسالة ميخائيل للدكتوراه. كانت بحثاً شاملاً عن تأثير عوامل التعرية على الأودية الضيقة في صحراء بارن. استكمل العمل باستخدام أحدث النظريات العملية في مجال عوامل التعرية في العالم كله، وتناول بالتفصيل القواعد الأساسية المتحكمة في التشكيل البيئي للمنطقة.

ثم بحث التركيبات البيئية. أشارت الفصول الختامية إلى وسائل التطبيق العلمي للنتائج. كان بحثاً مستنداً إلى براهين وأدلّة. استطاع ميخائيل أن يفك ألغاز موضوع معقّد جداً. خصّص زوجي لبحثه أربع سنوات. كتب بحثه من خلال شعور بمسؤولية داخلية. كما أن العقبات والعراقيل التي وقفت في طريقه كانت صعوبات حقيقية، وصعوبات خاصة، وشخصية. بعد عيد الفصح سيعطي ميخائيل ما كتبه بخط يده إلى إحدى معارفنا لكي تنسخه بشكل جيد على الآلة الكاتبة. بعد ذلك يقدّم بحثه ليراجعه كبار الجيولوجيين. عليه أن يدافع عن افتراضاته الأساسية في نطاق محاضرة يعقبها نقاش علمي معترف به. في نيّته إهداء البحث لاسم المرحوم الحبيب يحزقائيل غونين الذي كان رجلاً مثالياً، وجاداً ومتواضعاً في ذكرى آماله. إخلاصه. وحبه.

في تلك الأيام قمنا بتوديع أعزّ صديقاتي هاداساه، وزوجها أبا. أبا أُرسل إلى سويسرا لمدة عامين كملحق اقتصادي. هو أفضى إلينا بأنه من أعماق قلبه يتطلّع إلى اليوم الذي يمنحونه فيه وظيفة مكتبية مناسبة تمكّنه من الاستقرار الدائم في القدس من دون أن ينتقل من مكان لآخر كفتى مبعوث لدى العواصم المختلفة، ومع ذلك لا يتجاهل الإغواء في أن يترك الخدمة الحكومية، ويسبح بنفسه في بحر الاقتصاد.

قالت هاداساه:

«أيضاً أنت يا حنه ستسعدين. إني متأكدة من ذلك. مع الوقت ستحققان أيضاً أنتما أهدافكما. ميخائيل فتى دؤوب، وأنت فتاة ذكية دوماً».

وداع هاداساه، وأيضاً كلماتها لي أثارا لديّ انفعالات. بكيت حين سمعت تأكيد هاداساه في أننا أيضاً لا زلنا سنتمكّن من تحقيق أهدافنا. هل حقاً كلها ستتحقق. هل حقاً كلهم في ما عداي قد توصلوا إلى اتفاق مع الزمن.. مع الاتجاهات.. مع الجهود. مع المثابرة. الهدف، والتحقيق. أنا لا أستخدم كلمتين هما: عزلة. يأس. أنا في ضائقة. في خزي. كانت خدعة. حذّرني أبي المرحوم يوسف حين كنت في الثالثة عشرة من عمري من الرجال الأشرار الذين يستغلون النساء بمعسول الكلام.. ثم يتركونهن مع حسراتهن، صاغ كلماته في أن وجود جنسين مختلفين هو عدم ترتيب من شأنه أن يزيد الألم في العالم، كان الرجال، والنساء ملزمون ببذل قصارى الجهود للتغلب على نتائج عدم الترتيب هذا. إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه جهودهم. أنا لم يستغلني

رجل باغ، أو مصاب بالجنون، ولست حتى من معارضي وجود جنسين مختلفين. لكنها كانت خدعة، وكانت مُخزية. رافقتك السلامة يا هاداساه! اكتبي الكثير من الخطابات للقدس! لحنّه! لفلسطين البعيدة. الصقي عليهم طوابع جميلة من أجل زوجي، وابني. احكِ في خطاباتك عن الجبال، وعن الثلوج. عن الفنادق. عن أكواخ منعزلة متفرقة في الوادي. عن الأكواخ القديمة التي تلعب الريح بأوابها حتى يعلو صرير مفصلاتها. أنا لا أتضايق يا هاداساه. ليس في سويسرا بحر. دراغون وتايغريس التابعتان لي مستريحان في مرفأ جاف في موانئ جزر سان بيير، وماكويلون. وملاحهما يطوفون بأرجاء الأودية.. بحثاً عن فتيات أخريات. لست غيورة يا هاداساه. لست مشتركة. أنا مستريحة. منتصف شهر مارس/ آذار. ما زال في القدس يهطل مطر خفيف.

مات جارنا السيد جليك قبل الليلة الأولى من عيد الفصح. أصابه نزيف داخلي. أنا وميخائيل اشتركنا في الجنازة. تجار متدينون من شارع دافيد يالين تحدّثوا في ما بينهم بلغة يدييشية غاضبة عن افتتاح محل جزارة لا يبيع اللحم الكوشير بالقدس.

مرتل مواعظ بالأجر متقلّص الملامح في معطف أسود قرأ التراتيل إلى جانب القبر المفتوح، واستجابت له السماء بوابل من الأمطار الغزيرة. رأت السيدة دوباه جليك أساساً مضحكاً للتزامن الذي بين التراتيل وبين المطر لهذا انفجرت في ضحك أجش. كان السيد جليك وزوجته دوباه شخصين عقيمين. لم يكن ميخائيل مديناً لهما لكن كان عليه ولاء لمبادئ وشخصية المرحوم والده يحزقائيل، لهذا أخذ على

عاتقه التكفّل بكل ترتيبات الجنازة، وبمساعدة العمّة جينيه غير المباشر استطاع ميخائيل ترتيب مكان إقامة للسيد جليك في دار المسنين ذوي الأمراض المزمنة. كانت تلك نفس المؤسسة الخاصة التي تعمل فيها الآن العمة جينيه كطبيبة دائمة. ذهبنا لقضاء العيد في الجليل.

كنا مدعوين لقضاء احتفالات العيد في كيبوتس نوف ـ هاريم مع أمي، وعائلة أخي. بعيداً عن القدس. بعيداً عن أزقتها. بعيداً عن النسوة العجائز المتديّنات الذابلات في الشمس كطيور شريرة على مقاعد منخفضة، وعيونهن تتلصص، وتتلصص، كأنهن ينظرن إلى واد فسيح، وليس إلى مدينة مخنوقة.

في الخارج كان الطقس ربيعاً. على جانبي الطرق ترعرعت أزهار برية. أسراب من الطيور المهاجرة تدفقت في الآفاق الزرق. كانت أشجار سرو حنونة، وكثيفة، وأشجار كافور كينا، أو كليبوتس، تظلّل الطريق في راحة تامة. كانت هناك قرى ذات بيوت بيض، ولها أسقف حمر. لا بيوت كئيبة من الأحجار، ولا شرفات مقوّسة تحيطها سياجات من الحديد الصدئ.

كانت البلاد تبدو بيضاء، خضراء، حمراء، كل الطرقات ضجّت. بشر كثيرون يتنزّهون بعيداً. كانت تلك رحلة لفتيان وفتيات تابعين لحركة الشبيبة ضحكوا وأنشدوا أغاني مترجمة من اللغة الروسية حول الحب، وحول الحقول المفتوحة، واختار السائق أن يقبض على عجلة القيادة بيد واحدة. في يده الأخرى أمسك بدفتر التذاكر، وأخذ يدق بضربات إيقاعية على لوحة العدادات. كان إيقاعاً مرحاً. للحظات فتل السائق

شاربه، وأدار مكبّر الصوت. بدأ يحكي للمسافرين عن أشياء مثيرة للضحك. كان يتمتع بصوت جهوري مبحوح.

على امتداد الطريق غمرنا الضياء الدافئ. انعكست أشعة الشمس على كل شظية من المعدن، وجعلت كل رقيقة زجاج تتألق. اختلطت الألوان الأخضر بالأزرق السماوي في أطراف السهول المنبسطة الفسيحة. صعد، وهبط في المحطات أناس جدد، وهم يحملون حقائب يدوية، وحقائب ظهر، بنادق صيد، باقات ورد بخور مريم، وشقائق النعمان ذات الشكل القطيفي، والسحلبي بلون أرجواني خفيف. حين وصلنا إلى الرملة اشترى ميخائيل لثلاثتنا قطع كراميل من النوع المثلج. عند مفرق بيت ليد اشترينا برتقالاً وفولاً سودانياً. امتدت على جانبي الطريق تقسيمات الأرض المنبسطة، وشبكات خطوط أنابيب الري. ضوء أشعة الشمس الدافئ، حمّى الأنابيب.. تحوّلت كل الأنابيب إلى قطاعات من الإبهار الخاطف.

كانت الجبال بعيدة على مرمى البصر.. ذات لون أزرق فاتح.. تحيط بها هالة من الضباب الرقيق. كان الهواء دافئاً. ومشبعاً بالرطوبة ندياً. تحدث ميخائيل وابنه طوال الطريق عن معارك عام ١٩٤٨، وعن مشاريع المياه الكبرى التي تنوي الدولة تنفيذها. أنا رسمت على وجهي أجمل ابتسامة لديّ. وثقت جداً بالدولة، وبنجاحها في تحقيق كل مشاريع المياه الكبرى حتى تؤتي ثمارها. عدت مرات، ومرات لتقشير برتقال لزوجي وابني. قمت بتفصيصه. نزعت عنه اللّب الأبيض. مسحت فم يائير بمنديل. في قرى وادي عارة وقف السكان على امتداد الطريق،

ولوحوا لنا بأيديهم. أنا نزعت شالي الحرير الأخضر، ولوّحت لهم حتى اختفى الناس وأنا لم أتوقف.

في العفولة كانوا يحتفلون بذكرى يوم معين. كانت المدينة مكسوّة بأعلام زرق، وبيض، امتدت مصابيح الزينة الملونة بعرض الشارع. أقيمت بوابة حديد مزخرفة على المداخل الغربية، ولافتة ترحيب مرتفعة تعبث بها الريح. أيضاً عبث الريح بشعري.

اشترى ميخائيل جريدة ليلة العيد. احتوت الجريدة على أخبار بها نوع من الانفراج السياسي. شرح ميخائيل. أنا ضممت كتفيه. ونفخت في شعره الحليق. بين العفولة وطبرية غفا يائير على ركبتينا. أنا تطلّعت إلى رأس ابني المربع وفكيه القويتين، وجبهته العالية المشرقة. أدركت فجأة من خلال أمواج الضوء الأزرق أن ابني سيكبر، وسيصير رجلاً وسيماً، وعفياً. سيكون مثل الضباط العسكريين مشدوداً بقوة إلى جسمه. سينبت على ذراعيه زغب شعر أصفر. سأستند إلى ذراعيه، ولن تكون في القدس كلها أم فخورة بابنها أكثر مني. لماذا القدس؟ سنعيش في أشكلون (عسقلان) في ناتانيا. على شاطئ البحر. أمام الأمواج التي ترغي وتزبد سنقطن بيتاً صغيراً أبيض. سيكون لبيتنا سقف من القرميد الأحمر، وأربع نوافذ متماثلة. سيصير ميخائيل ميكانيكياً. وسنضع مزهريات من الورد أمام البيت. سنخرج مع كل صباح لالتقاط الأصداف من على الشاطئ. وطوال اليوم ستهب الرياح المالحة من النافذة. سنكون نحن أيضاً مالحين، وملسوعين بالشمس. سيغمرنا، ويلمسنا الضياء الدافئ طوال اليوم، ولن يتوقف المذياع عن الغناء في كل غرف البيت.

أعلن السائق في طبرية عن توقف لنصف ساعة. استيقظ يائير. أكلنا فلافل ونزلنا إلى شاطئ بحيرة طبرية. خلع كل منا نحن الثلاثة نعليه. وغاصت أقدامنا في المياه. كانت المياه دافئة. تلألأت البحيرة وتألقت. رأينا أسراباً من السمك تسبح بهدوء في الأعماق. صيادون رائقو البال وقفوا متكئين على الحواجز الخشب. كانوا رجالاً أقوياء البنية بأذرع مفتولة، ومكسوة بالشعر. لوحت إليهم بشالي الحرير الأخضر.. لم يضع هذا هباء!.. فقد كان من بينهم من رآني وصرخ إليّ أيضاً: «يا حبيبي!». سافرنا بعد ذلك على امتداد الأودية الخضر بين ضفتي الجبل. على يمين الطريق أخذت برك السمك تتلألأ، وكأنها مربعات من البريق الأزرق الرمادي. أخذت انعكاسات الجبال الكبيرة ترتعش في المياه. كانت تلك رعشة متحفظة، ورقيقة تشبه رعشة جسم عاشق، وكتل البازلت كانت صغيرة سوداء. مستوطنات قديمة أشاعت طمأنينة رمادية: مجدال. روش يبنية يسودها معلية ـ محانايين. احتفلت كل البلاد، وعيدت من خلال شوق لجنون داخلي، وكأنها خرجت من عقلها.

قرب كريات شمونه صعد إلى الحافلة مفتش تذاكر. كان عجوزاً، ويبدو عليه أنه من جيل الطلائع في الثلاثينات. كانت على ما يبدو هناك صداقة حميمة بينه وبين السائق. تحدثا بمرح عن مشروع لرحلة صيد غزال في جبال نفتالي مع حلول عيد الفصح الذي على الأبواب. كل السائقين من النخبة القديمة مدعوون للاشتراك مع النخبة القديمة التي لم يأكلها الصدأ بعد. تسيتا. أبو مصري. موسكوفيتس. زامبازي. لن تشترك نساء في هذه الرحلة. ثلاثة أيام، وثلاث ليال.. باشتراك مثقفي أثر شهير من كتيبة المظلات. وسيكون صيداً لم تشهد له البلاد مثيلاً من قبل. من

منارة مروراً بطريق برعان. حتى حانينا، وحتى رأس الناقورة. ثلاثة أيام رائعة.. بعيداً عن النساء، وبعيداً عن بكاء الأطفال. فقط النخبة القديمة. توجد بنادق صيد، وتوجد خيام من النوع الأمريكي، ومن ذا الذي لا يحضر.. كل الذئاب، والسباع الذين يتمتعون بقوتهم. بالفعل كالأيام العظيمة الغابرة. سيشترك الجميع. كلهم. سنركض، ونركض فوق الجبال حتى يصير بمقدورنا رؤية البرق.

من كريات شمونه بدأت الحافلة تتسلق نفتالي كان الطريق ضيقاً، وغير ممهّد بانحناءات حادة منحوتة في صخور الجبل. كان دواراً قوياً. وملوناً. امتلأت الحافلة بصياح ممزوج بالمرح والخوف. أراد السائق الانفعال بأن أخذ يلف عجلة القيادة، ويجعل الحافلة تمس مساً عابراً حافة الهاوية. بعد ذلك تظاهر السائق بأنه سيصطدم بنا في جدار الجبل. أيضاً أنا صرخت من شدة السرور والخوف.

وصلنا نوف ـ هاريم مع الضوء الأخير للنهار. أناس بملابس نظيفة عادوا لتوّهم من الحمام. شعرهم كان مبللاً، وممشطاً. على كل ذراع تتعلق فوطة. أطفال شقر يتمرّغون على النجيل. انتشرت رائحة النجيل المقصوص. المرشات بعثرت قطرات المياه. أضواء الغسق لمعت، وخبت مع رزازات المياه وكأنها نافورة من بلورات لها ألوان قوس قزح.

جرت العادة على تلقيب مستوطنة نوف ـ هاريم بلقب عشر النسر. على هذه المستوطنة الواقعة في قمم الهضاب تلتصق الأبنية، وكأنها طيور تحلّق. وفي أسفل الجبل يظهر الوادي الفسيح المقسم إلى قطع مربعة. المنظر من فوق يسرّ النظر. رأيت قرى بعيدة تلفّها الغابات، وأحواض السمك. كتلاً من البساتين الخصيبة، طرقاً صغيرة تحيط بها

صفوف من أشجار السرو، أبراجاً بيضاً، وأيضاً الجبال البعيدة وسط الزرقة السماوية.

معظم أعضاء مستوطنة نوف ـ هاريم من أبناء جيل أخي. كانوا في حوالى الخامسة والثلاثين. إنهم مجموعة من الشجعان الذين أخفوا في غشاء من المرح علامات المسؤولية الجادة. رأيت فيهم ذلك الأساس المتين والمناضل. كأنهم يتمتعون، وينكتون دائماً من شدة بأس القرار الذي اتخذوه بشفاه مضمومة. أحببتهم. أحببت المكان العالي. بعد ذلك المنزل الصغير لعمانوئيل، والذي يرقد أسفله جدار المستوطنة الذي هو في الوقت ذاته حدود الدولة اللبنانية. دش بارد. عصير برتقال وكعك خبزته أمي. سترة راحة قصيرة. الاهتمام الباسم من جانب زوجة أخي، كنّتي، عرض تقليد عواء الذئاب الذي قدمه عمانوئيل أمام يائير ابني. كان ذلك نفس المنظر المجسّم الذي امتاز عمانوئيل بتقديمه أيام شبابنا.. حتى نذرف دموعنا من الضحك. أيضاً هذه المرة ضحكنا، وضحكنا.

أخذ يوسي ابن أخي على عاتقه استضافة يائير. تنزّهنا متشابكي الأيدي إلى حظائر الأبقار والماشية. كان وقت ظلال طويلة. وضوء معتم. نحن استلقينا على النجيل. حين أرخى الليل سدوله أخرج عمانوئيل من البيت مصباحاً متنقّلاً بسلك كهربائي، وعلّقه على أحد فروع الأشجار. حدث بين أخي وزوجي جدل بسيط.. بضحك سرعان ما انقضى باتفاق شبه تام.

بعد ذلك فرحة أمي ملكاه المبللة بالدموع.. قبلاتها. أسئلتها بالعبرية الركيكة التي هنأت ميخائيل على انتهاء رسالته للدكتوراه.

عانت أمي في الفترة الأخيرة من مضاعفات شديدة في الدورة

الدموية. بدت كامرأة تخبو شعلتها. ما أضيق الحيز الذي احتلته أمي في أفكاري. إنها كانت زوجة والدي. لا أكثر. كرهتها من المرات المعدودة التي رفعت فيها صوتها على أبي. في ما عدا ذلك لم أترك لها مكاناً في قلبي. أدركت في أعماقي أنني يجب أن أتحدث معها ذات مرة عن نفسي. عنها. عن أيام صبا والدي. وأدركت ايضاً أن مرة أخرى ربما لن تتيسر لنا.. لأن أمي بالفعل بدت كامرأة تخبو شعلتها. لكن هذه الأفكار لم تقلّل من فرحتي. سرت الفرحة في داخلي كأن لها حياة مستقلة بذاتها، وغير مرتبطة بي. أنا لم أنس حفلة عيد الفصح. أضواء الكشافات الساطعة. الخمور. جوقة أعضاء المستوطنة. احتفالات رفع السنابل. الشواء الليلي حول لهيب الشوايات في الساعات القليلة. الرقص. اشتركت في الرقص حتى نهايته. غنيت. دوّخت أقوى الراقصين. أيضاً ميخائيل الذي غلبه النوم سحبته بالقوة إلى داخل الدائرة. كانت القدس بعيدة، ولم تستطع أن تتعقّب آثاري. ربما تحولت في النهاية إلى غبار. فهي تستحق. لم أحب القدس من بعيد. أضمرت لي الشر. أردت لها سوءاً. كانت لي ليلة نابضة بالحياة، ومتوحشة في العرق، والتبغ. لم يسترح فمي. لقد عربدت، وانجذبت. كنت منتمية. لكن قبل الفجر خرجت لأقف بمفردي على شرفة البيت الصغير لعمانوئيل. رأيت حولي جداراً من الأسلاك الشائكة. شجيرات سود. أضاءت السماء كان وجهي متجهاً إلى الشمال.. كان بمقدوري تمييز ظلال إقليم جبلي: حدود الدولة اللبنانية. أضواء متعبة بعثت بضوئها في القرى الحجرية القديمة. أودية ليس بمقدوي أن أصل إليها. قمم بعيدة مكسوة بالثلج. مبان منعزلة. على قمم الهضاب. أديرة، أو أبراج مراقبة. أرجاء صخرية

فسيحة بها ندوب من الأودية المنبسطة. هبت رياح باردة. ارتجفت. تقت للذهاب.. يا له من حنين قوي.

حوالي الساعة الخامسة بزغت الشمس. صعدت محاطة بغيوم كثيفة. على وجه الأرض امتدت في استرخاء شجيرات برية صغيرة. على المنحدر المقابل وقف صبي عربي يرعى ضأنه، وحوله عنزات رمادية تمضغ، وتجتر في سخط. سمعت دقات أجراس بعيدة بعث برقرقات صغيرة إلى عنان السماء. كأن القدس تتعقبني. أنوار سيارة أضاءت الطريق الذي لم ألحظه من قبل. أشجار وحيدة.. كبيرة.. عجوزة جداً.. تموت في قوة. قطع من الغمام عبرت الوادي المهجور. كان المنظر جامداً وغير رائق. أرض غريبة يغمرها ضياء بارد.

٤١

كتبت في إحدى الصفحات أنه يوجد في العالم تفاعل كيميائي قادر على تحويل الشيء المبتذل إلى شيء نفيس، وهو أيضاً اللحن الداخلي لحياتي. الآن أنا أميل لإلغاء هذا التعبير.. لأنه تعبير سابح في الفضاء.. «التفاعل الكيميائي القادر على تحويل الشيء المبتذل إلى شيء نفيس». اللحن الداخلي.

في النهاية حدث شيء ما في شهر مايو/ أيار من عام ١٩٥٩. لكن هذا الشيء حدث بصورة وضيعة. كانت تلك نسخة باهتة وقبيحة. في بداية شهر مايو/ أيار حبلت، وكانت هناك ضرورة لفحوصات طبية. ولأنه أثناء حبلي الأول عانيت من مضاعفات بسيطة. أجرى هذه الفحوصات الدكتور لومباردو لأن طبيب عائلتنا الدكتور أورباخ مات في بداية الشتاء من أزمة قلبية. لم ير الطبيب الجديد ضرورة للقلق. رغم أن امرأة في الثلاثين غير فتاة في العشرين. أي جهود جسمانية، وأكلات حريفة واتصالات مع زوجي محظورة عليّ من الآن، وحتى الوضع (الولادة). مرة أخرى عادت الأوردة في رجلي إلى الانتفاخ، وعادت الدوائر السود لتظهر تحت عيني. الغثيان، والإرهاق الدائم. على مدار شهر مايو/ أيار حدث لي عدة مرات أن نسيت أين وضعت آنية، أو

قطعة ملابس. رأيت في ذلك علامة. حتى ذلك الحين لم أكن أنسى أي شيء.

في الوقت ذاته أخذت ياردينا على عاتقها أن تطبع على الآلة الكاتبة رسالة ميخائيل للدكتوراه. ميخائيل من جانبه تطوع بأن يساعدها في الإعداد للامتحان النهائي بالجامعة، والتي كانت قد أجلته حتى آخر الحدود الممكنة. ولهذا يذهب ميخائيل كل ليلة، وهو مرتّب، ونظيف إلى شقة ياردينا في آخر شارع الطلبة.

أنا أعترف: هذا الأمر كان قريباً من أن يثير السخرية، من وجهة أخلية كان ذلك متوقعاً أيضاً منذ البداية. لم أكن منزعجة. أثناء وجبة العشاء بدا لي ميخائيل عصبياً ومشتّت الفكر. يعبث، ويعبث برباط عنقه الهادئ، والمثبت بمشبك فضي. ابتسامته ملتوية، ومرتبكة. غليونه يرفض أن يشتعل. بلا توقف يعرض عليّ مساعدة مزعجة: أن يحمل. أن يرج. أن يكنس. أن يحضر. أنا في حلّ أن أتعذّب.

أكتب كلمات واضحة: أنا أشعر بأن ميخائيل لم يخرج عن نطاق الأفكار والتصورات الخجولة. لا أرى سبباً يجعل ياردينا قادرة على أن تستسلم له. حقاً إني لا أرى سبباً يجعلها ترفض. لكن كلمة سبب هي في نظري كلمة فارغة من أي معنى. إني لا أعرف، ولست مشتاقة لأن أعرف. إني قريبة إلى الضحك الداخلي أكثر من الغيرة. على أكثر تقدير يشبه ميخائيل الآن قطّنا الصافي الذي ناضل ذات مرة بقفزات حزينة للإيقاع بفراشة ترفرف تحت سقف الحجرة. قبل حوالى عشر سنوات شاهدت مع ميخائيل في دار سينما «أديسون» فيلماً بطولة غريتا غاربو. بطلة الفيلم ضحّت بجسمها ونفسها من أجل رجل فظ. أنا أتذكر أن

المعاناة والفظاظة بدتا لي كرمزين في معادلة رياضية بسيطة، وإنني حتى لم أحاول حل رموز المعادلة. بل أخذت أراقب الشاشة بصورة مائلة حتى تحولت صور الفيلم إلى تيار من التتابعات المتعاقبة بين الأسود والأبيض وخصوصاً بدرجات متفاوتة من الرمادي الفاتح. أيضاً الآن أنا لا أحاول أن أفك الرموز، وأن أرحل. أنا أنظر إلى خلفية الشاشة المائلة وفقط أنا متعبة للغاية، ومع ذلك من المؤكد أن شيئاً ما قد تغير بعد كل تلك السنين الموحشة.

طيلة السنوات العديدة أسند ميخائيل مرفقه على عجلة القيادة واستراح، وهو يفكر أو يغالبه النعاس فليذهب لحال سبيله. أنا لست مشتركة. تخيلت. حين كنت طفلة في الثامنة اعتقدت بأنه حين أتصرف كصبي في كل أمر ستظهر في جسمي علامات الذكورة، ولن أصير امرأة. يا له من جهد ضائع. لا. ليس لي أن أتسلق، وأن أضرب بأخمص قدمي لاهثة الأنفاس كامرأة مجنونة. لقد عقلت. فلتذهب لحال سبيلك يا ميخائيل! سأقف خلف النافذة، وأرسم بأصبعي أشكالاً على البخار الذي يغطي الزجاج. أنت حر في أن تعتقد بأنني ألوح لك بيدي. لن أصحح خطأك. لست أمك. نحن اثنان ولسنا واحداً. ليس بمقدورك أن تظل طوال الأيام.. ابني البكر العاقل. إذهب لحال سبيلك ربما ليس متأخراً أن أكشف لك أن لا شيء متعلقاً بك، أو بي. هل نسيت يا ميخائيل. قبل سنوات عديدة حين جلسنا معاً بمقهى عطارة قلت أنت إنه ربما كان من الأفضل لو التقى والدانا. الآن حاول أن تتخيل ذلك. آباؤنا الموتى. يوسف يحزقائيل. من فضلك أخيراً توقف عن الابتسام. حاول ألا! ركّز. حاول أن تجسّد الصورة! أنا وأنت أخ وأخت. هناك

احتمالات كثيرة للتقارب. أم وابنها. هضبة، وأدغال. حجر ومياه. بحيرة، وقارب. حركة، وظل. شجرة صنوبر وريح.

لكن ما تبقى في جعبتي ليس الكلمات فقط. لا يزال بقدرتي أن أزيح هماً ثقيلاً. أن أدور حول البوابات الحديد، وأن أطلق سراح أخين توأمين. سينسابان في الليل الفسيح لتنفيذ أوامرنا. أنا سأحفزهما مع الغسق. سيبحثان كلاهما لإعداد زادهما للسفر. حقائب عسكرية باهتة. صندوق متفجرات. أجهزة تفجير.. فتيل تفجير. ذخيرة. قنابل يدوية. خناجر لامعة. في السقيفة المهجورة تسود عتمة كثيفة. خليل وعزيز الوسيمان اللذان ناديتهما خلزيز. ليست بحوزتهما كلمات. بل سيتلفظان بأصوات حلقية. حركاتهما ثابتة. الأصابع مرنة وقوية. أجسامهما رشيقة. تنهض بانسيابية شديدة. رشاش معلق بحزام على الكتف. الكتف مربعة وسمراء. يتحركان في نعال من مطاط. على أجسامهما زي كاكي كحلي اللون، رأساهما مكشوفان للريح. مع ضوء الشفق الأخير سينهض كلاهما كشخص واحد. من السقيفة سينزلقان إلى المنحدر الشاهق. تترك أقدامهما آثاراً لا تستطيع العين تمييزها. لهما لغة من إشارات بسيطة. لمسات خفيفة، همسات ساكنة. كرجل وامرأة يتبادلان الغرام.. أصبع على الكتف. كف على الرقبة. طائر يصدح. تصفيرة سرية. أشواك مرتفعة في الوادي الضيق الانحدار. ظلال زيتون قديمة.

في صمت تستسلم الأرض. نحيفان وملطخان بالسخام.. يتسللان في الطرق الملتوية. التوتر مكتوم في الداخل. بصر الأسنان. الحركات الدائرية كانحناءات جذوع طرية تهب عليها الريح. الليل سيرخي سدوله ليتستر عليهما، ويبتلعهما في طياته. أزيز صراصير. ضحك ثعالب بعيدة.

يعبران طريقاً بقفزات سريعة، الحركة تقترب الآن من الانزلاق عديم الوزن. حفيف أدغال معتمة. مقص من الصلب يقطع أسلاكاً شائكة، النجوم شركاؤها. خفقاتهما تشير إلى اتجاه بعينه. في الأفق يبدو خط الجبال ككتل من السحاب المعتم. أضواء قرى في السهل الفسيح. صرير مياه داخل أنابيب أفعوانية.. حركة المياه في المرشات. قوة الإصغاء لديهما كامنة في نسيج الجلد. في الكفين. في روحيهما. في جذور شعرهما. في صمت يتجنبان فخاً منصوباً على مداخل الوادي الضيق شديد الانحدار. يشقان طريقهما في خط مائل في ما وراء البساتين المعتمة. يتدحرج حجر صغير. إشارة عزيز ينقض إلى الأمام. خليل يجثم خلف جدار حجري منخفض. ثعلب يعوي. يصرخ ويصمت. البنادق الرشاشة محشوة. ومصوبة، ومسحوب منها زناد الأمان. بريق خنجر مشحوذ. أنين. نحيب حانق. استعداد. قشعريرة. عرق مالح. سيل جارف.

على حافة نافذة مضاءة تتكئ امرأة متعبة، تغلق. تختفي. حارس يغالبه النعاس. يسعل سعالاً جافاً. الزحف الملتوي يستمر بين النباتات الشائكة. أسنان بيض تتعرّى لكي تنزع صمام الأمان من قنبلة يدوية. الحارس ذو الصوت الأجش يتجشأ بصوت مرتفع. يعود. يبتعد.

خزان المياه الأسمنتي على أعمدة ضخمة. زواياه تضعف وتلين في الظلام. وكأنها في رقص. كأنها في غرام. كأن الأيادي الأربع تنبعث من جسم حي واحد. فتيل جهاز توقيت. صمام الأمان. مفجر. جهاز إشعال. مشعل. أجسام تنجذب إلى أسفل التل. إلى رحاب مفتوحة. بمشيه خلسة، وفي المنحدرات تحت خط السماء هناك أيضاً ركض بخلسة،

وهو يشبه العناق الحار. النبات ينحني بعد أن داسته أقدام ثم يعتدل بعد مرورهما. كأنهما قارب صيد يشق طريقه في المياه الهادئة. مداخل الوادي. تطويق الزمرة المتربصة.. التي تنصب كميناً ترتجف أشجار سرو سود. الحدائق والبساتين. الممر الضيق الملتوي. الالتصاق المراوغ إلى جدار عمود الأساس المتين. فتحات الأنوف المتسعة للشهيق. أصابع تتلمس طريقها إلى الزناد. تجمعات صراصير مختبئة. رطوبة الندى والريح. وحينذاك فجأة وليس فجأة يدوي رعد الانفجار المروع. يتلألأ وهج من الضياء في الأفق الغربي. بقايا أصداء منخفضة تجلجل في كهوف الجبل.

انفجار ضحك هستيري ومتآكل ومرتجف، تشابك سريع للأصابع مصافحة. ظل الخرنوب الوحيد بأعلى الجبل. السقيفة. مصباح ملوث بالسخام. أولى الكلمات. صرخة سعادة. إغفاءة. لون الليل الليلكي. على وجه الأودية ندى ثقيل. نجمة. كتل من الجبال الصماء ريح هادئة تلامس وتداعب أشجار الصنوبر. الأفق البعيد يصير باهتاً ببطء. وعلى الوادي الفسيح تهبط سكينة باردة.

مايو/ أيار ١٩٦٧

هذا الكتاب

أشهر رواياته حنا ميخائيل، صدرت عام ١٩٦٨، وتُرجمت إلى حوالى ثلاثين لغة، وتحكي قصة فتاة تُسمى حنّة وزواجها من ميخائيل. . على خلفيّة القدس في الخمسينيات. وقد نجح عوز للمرَّة الأولى في كسر المحرَّمات القائمة في العلاقة العربية اليهودية؛ وأصبحت الرواية الأكثر مبيعاً.

